أنور الجندي

مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام

(الرد على فرويد وماركس ودوركايم)



دار الكتب الجزائر
LA MAISON DES LIVRES
12, Rue Maître A. Boumendjel
ALGER



مفاهيم العلوم الاجتماعيّة
والنفس والأخلاق
في ضوء الإسلام

محاولة بناء إطار متكامل

للفكر الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ان يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون [1].

☆ ☆ ☆ ☆

قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون، قل فلله الحجة البالغة [2].

☆ ☆ ☆ ☆

وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون [3].

قرآن كريم

(1) سورة الأنعام، آية 116
(2) سورة الأنعام، الآيتين 148، 149
(3) سورة الأنعام، آية 153

منهج البحث

أولا : الانسان مع نفسه

(1) المسؤولية الفردية
(2) الالتزام الأخلاقي

ثانيا : الانسان مع الآخر

(1) فطرية الأسرة
(2) حقيقة دور المرأة في المجتمع
(3) الاعتراف بالرغبات

ثالثا : الانسان مع الحياة

(1) الانسان مع الجماعة
(2) الانسان مع الحضارة
(3) الانسان والزينة
(4) الانسان والموت
(5) الانسان والعالم المواجه
(6) الانسان والمسرح
(7) الانسان والسينما
(8) الانسان والفن

رابعا : الانسان وعلم الانسان

(1) بناء الانسان
(2) إلى أي مدى تصدق النظريات المطروحة

مدخل

تتمثل المحاولات التي تواجه الفكر الإسلامي في العصر الحديث لاخراجه من أصالته وقيمه في عدة تحديات أهمها:

أولا : الحيلولة دون استئناف المسلمين حياتهم على أساس الإسلام.

ثانيا : إثارة الالتباس بين القيم المتكاملة لردها الى «منهج فكر» يقوم على الانشطارية.

ثالثا : طرح مناهج استحدثتها تحديات مجتمعات أخرى وجاءت نتيجة لتطور واسع طويل المدى، تم على مراحل ولم يتحقق دفعة واحدة.

رابعا : محاولة تصوير المجتمع الإسلامي الحديث، والفكر الإسلامي الحديث وكأنهما مستقلين عن روابطهما التاريخية والثقافية.

خامسا : محاولة اسقاط قيم جذرية ودعائم قائمة وفرائض أساسية كالجهاد والالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية.

سادسا : محاولة تصوير الإسلام على أنه نظرية: بينما هو منهج متكامل أما النظرية فهي عمل بشري يخضع للتغيير والإضافة والحذف. بينما يقوم المنهج الرباني على أساس الثبات في دعائمه مع اتساع آفاقه وأطره لتطور المجتمعات وتغير البيئات.

سابعا : محاولة إيجاد تفسيرات جديدة للمقومات الإسلامية الأساسية عن طريق التأويل أو التزييف أو إخضاع النصوص.

ثامنا : محاولة إدخال مفهوم الترف والإباحية والتحلل والرفاهية المنحرفة على طابع الإسلام الذي يتميز بالأصالة والتماسك والأخلاقية.

وإذا قيل أن على الفكر الإسلامي المعاصر أن يكون مستقلا فعن ماذا يستقل. هل استطاع الفكر الغربي أن يستقل عن الوثنية اليونانية

والمسيحية الغربية، وإذا كان الفكر الغربي على القطع قد استمد مقوماته من الفكر الهليني اليوناني فهل من عجب أن يستمد الفكر الإسلامي الحديث دعائمه وأسسه من الإسلام.

(2)

إن النظريات التي طرحها الغرب في أفق المجتمع الإسلامي سرعان ما تصدعت وانكشف فسادها وبمرور الزمن تبين أنها لا تحقق الاستجابة الحقيقية للنفس العربية الإسلامية وأنها في حاجة الى ادخال تعديلات وتحويرات جوهرية عليها.

ولا ريب ان المذاهب التي يصيبها العطب والاضطراب في سنوات قليلة لا تصلح لمعايشة المجتمعات ولا تصلح أساسا لبناء الأمم، ومن هنا انكشفت الفوارق البعيدة والعميقة بين منهج القرآن الثابت ثبوت الفطرة القائم على أساس بناء النفس الإنسانية، القابل للممارسة والحركة من خلال إطاره المرن الواسع وبين المذاهب البشرية التي وضعت في مواجهة تحد معين أو ظروف متغيرة.

(3)

هناك خطأ أساسي في مجال المذاهب والنظريات من حيث أنها تصاغ في أسلوب علمي براق: هو محاولة اخضاعها للمنهج العلمي الذي خضعت له المادة. ولكن هل يمكن أن تخضع الدراسات الاجتماعية للأسلوب العلمي الذي خضع له العلم التجريبي، ان هناك اختلاف واضح بين المفاهيم الانسانية والعلوم التجريبية: هذا الاختلاف مرده الى أن هذه المفاهيم ترتبط بالإنسان في مشاعره وعواطفه وهي حالات يصعب اخضاعها للقوانين التي أخضعت لها الظواهر الطبيعية. ان التجربة في مجال العلوم الطبيعية والرياضية تصدق لأنها تقوم على أسس ثابتة. أما المفاهيم الانسانية فإنها تتعرض لظروف مختلفة تتصل بأعماق النفس وتستحيل على

مقاييس التجريب، كذلك من العسير تحرير المفاهيم الانسانية من الأهواء والميول والمصالح: كل هذا جعل المفاهيم الانسانية متعذرة على الخضوع لما تخضع له العلوم الطبيعية.

° ° °

وهل في الإمكان لهذه المذاهب التي نشأت في بيئات خاصة ومن خلال تحديات معيّنة بعضها يتعلق بالدين (في بيئاتها) وبعضها يتصل بالعصر والحضارة، ان تصلح للتطبيق في بيئات أخرى تختلف من حيث العقائد والفكر والعصر والبيئة والتحديات. لقد ظهرت هذه الدعوات حين عجز الدين عن العطاء أو حين عزل المجتمع الغربي الدين عن التفاعل. فجاءت كمحاولات لدراسة النفس والمجتمع والأخلاق من خلال العمل العقلي الخالص، ولما كان العلم الغربي قائماً على أساس المحسوس والتجربة وحدهما فقد جاءت هذه المحاولات مادية خالصة لأنها تجاهلت عنصر الوحي والإيمان بالله ومناهج الدين.

وقد يقال ان (المسيحية الغربية) من شأنها أن تقبل الايدلوجيات والمذاهب والنظريات لانها دين عبادة اما الإسلام فانه دين له شريعته ومنهج الحياة الخاص به، فهو ليس في حاجة إلى مفاهيم وافدة، ولا تستطيع هذه المناهج أن تطابق ظروفه ومفاهيمه أو تتناسب مع ذاتيته وطابعه المفرد.

(4)

إن أخطر التحديات التي يواجهها المجتمع الإسلامي اليوم هي «تحديات التبعية وفقدان الذاتية» ولذلك فان تحرير الذاتية من القيود هو منطلق أساسي، وعلى المسلمين والعرب أن يتجاوزوا هذه المناهج الوافدة التي عاشوا أسارى لها خلال فترة السيطرة الاستعمارية الأجنبية، ووجدوا من خلال تجربتهم لها أنها لم تحقق «الاستجابة الحقيقية» لمفاهيمهم أو

ذاتيتهم وعلى المسلمين والعرب أن يفكروا بلغتهم وأن يتحركوا من داخل فكرهم وأن يستردوا أصالتهم.

(5)

في مواجهة بناء الانسان المسلم وإقامة المجتمع النافذ، أقام الإسلام ضوابط غاية في الاحكام تحول دون وقوع الفساد والاضطراب في حالة اتصال المجتمع الاسلامي بغيره من المجتمعات أو التقاء ثقافته الذاتية بالثقافات الوافدة.

وهي في مجموعها قواعد صلبة وأسس ثابتة تحول دون التداخل وفرض السيطرة فقد أقام الإسلام أساسا قاعدة الثبات والقيم المركزة ثم جعل ارادة الحركة والتغيير تجري من داخلها.

هذه القواعد هي:

(أولا) تقوم دعوة الاسلام على قبول التغيير في إطار الثبات وعلى التنوع في إطار الوحدة ولا تتخلى مطلقا عن أساس الثبات والوحدة. ثم تجري الحركة في داخلها حسبما يقتضي اختلاف العصور والبيئات بحيث تظل «القيم الأساسية» قائمة من حيث الحلال والحرام والحق والباطل والخير والشر.

ومن حيث ترتيب «سلم القيم» نفسه. دون تقديم قيم على قيم أخرى بمعنى أن تظل قيم الجهاد والعبادة والانفاق والأخلاق في مقدمة القيم ولا تسبقها مفاهيم الرفاهية أو الترف أو التحلل أو الإباحيات ولا ريب أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «قيمة أساسية» في الإسلام وقوة ضخمة من قوى تحريك المجتمع ودفعه الى الطريق الصحيح «والحركة» قانون من قوانين هذا الكون. ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد. وانما هي حركة في أفق وحول مدار.

ويقوم عنصر الثبات في الإسلام على قواعد أساسية منها:
1 ـ ثبات الإسلام إزاء الأخوة البشرية والعدل الاجتماعي.
2 ـ ثبات الإسلام إزاء فريضة الجهاد.
3 ـ ثبات الإسلام إزاء تحريم الربا.
4 ـ ثبات الإسلام إزاء الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية.
5 ـ ثبات الإسلام إزاء تحريم القتل والميسر والزنا.

ومن هنا امتنع الإسلام عن أن يكون مبررا لأوضاع المجتمعات أو أن تكون شريعته موضع تأويل لتساير ظروف الأمم والحضارات على أن يظل عنصر الثبات قائما دائما وخاصة في مسائل المرأة والزنا والخمر.

والإسلام يؤمن بما هو ثابت راسخ وبما يمكن أن يتبدل ويتغير حسب البيئات والعصور والعصور ولكنه لا يقر التطور في مجال الأخلاق والعقائد والأصول الثابتة للشريعة لأن ذلك يجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبية تتطور ويتطور الى غير ما نهاية بينما الدين حقائق مطلقة وأصول ثابتة راسخة.

(ثانيا) أكد الإسلام الإرادة الحرة للفرد واعتبرها مناط المسؤولية.
فالإسلام من حيث هو منهج حياة ونظام مجتمع يصدر عن مفهوم أساسي: هو التوحيد . وان الانسان مستخلف في الأرض لتحقيق رسالة ثابتة هي تعمير الكون وان له ارادته الحرة التي هي مناط مسؤوليته والمرتبطة أساسا بالبعث والجزاء. ومن هنا فان الإسلام يرفض «الجبرية» التي تحاول أن تسيطر اليوم على العلوم الاجتماعية من خلال مذاهب النفس والأخلاق والاجتماع والتي تستمد مفهومها من فرضية زائفة هي أن الحياة الدنيا هي غاية الوجود الانساني وأن سلوك الانسان وتصرفه محكوم بقوانين اجتماعية تجعله خاضعا لها وليس له إرادة حرة.

(ثالثا) أقام الإسلام مفهوم التكامل الجامع بين القيم والمقومات على أساس ترابط العقيدة والشريعة والأخلاق بالفرد والمجتمع.
فالإسلام منهج متكامل جامع بين العبادة ونظام المجتمع. ومن هنا

فانه لا يقر الانشطارية أو التجزئة بين القيم أو الفصل بين وحدات الحياة المختلفة: الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو التربوية فهي جميعها تتحرك من خلال الانسان وأساس الإسلام التكامل المادي والمعنوي. ومن هنا فان الفرد والمجتمع يتعانقان ولا يتصارعان. وكذلك الفكر والمادة فانهما يتكاملان ولا يتقدم أحدهما الآخر.

(رابعا) طبع الاسلام الحياة الاجتماعية بطابع الأخلاق الذي لا تتغير بتغير البيئات والعصور (مع التفرقة الواضحة بين الأخلاق والتقاليد).

فالأخلاق ثابتة أما التقاليد فمتغيرة ويجب أن تتغير لان ثباتها يعني الجمود وعدم القدرة على الاستجابة للتقدم والنهضة.

وهناك فرق عميق بين الأخلاق والتقاليد فالأخلاق تقوم على التمييز بين الخير والشر والحق والباطل.

ولقد كان من أخطر آثار الاستعمار (سعيه الدائب) الى خلط قيم الأخلاق بالعادات الموروثة. فهو يبعد الناس عن مبادئ الإسلام بالمغالاة في تمجيد العادات التي ورثها المسلمون عن أجدادهم. وقد أدخل في روعهم أن لها قداسة من حيث أنها تمثل تراث أسلافهم. وكان مبادئ الإسلام دخيلة أجنبية. وقد نتج عن ذلك التحدي أن ارتفع شأن العادات والتقاليد الى مقام القيم الاسلامية فنافستها وصرعتها في بعض البيئات.

(خامسا) قرر الإسلام وحدة النفس البشرية: حيث لا انفصال بين الدين والحياة. أو بين الدنيا والآخرة. أو بين الروح والجسم. وذلك في محاولة الحفاظ على تلاقي مختلف الأهداف في اتجاه واحد مما يحول دون قيام ظواهر التمزق والضياع والفصام.

وقد أقام الإسلام من الإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة وتحرص على المعاودة في حالة الاخفاق.

وليس الإيمان مضادا للمعرفة. ولا يقف الإسلام عند مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة بل يضيف اليه علما آخر جاء به الوحي وسجله القرآن وفيه تفصيل كامل لما وراء الطبيعة (عالم الغيب) ولما بعد الطبيعة من

بعث وآخرة وجزاء. وقد جعل الإسلام الإيمان بالغيب شرطا أساسيا من شروط الايمان والمعرفة.

ويقرر المفهوم العلمي الإسلامي أن لكل قيمة وجهين متكاملين: مادي ومعنوي لا انفصال بينهما. بينما يقرر المفهوم الغربي ان لكل قيمة وجها واحدا، فهو أما مادي فيعترف به وأما معنوي فيوضع في حساب الغيبيات.

وأن المفهوم الانشطاري لا يجد مثولا في العقل العربي الإسلامي، الذي يعجز عن استيعابه ويراه ناقصا عن مفهوم الاسلام ذي الأبعاد الواسعة، الشاملة لعالمي الغيب والشهادة.

(سادسا) حذر الإسلام المسلمين من التشبه بغيرهم وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكرة وحضارته ومجتمعه متميزة ولذلك أعلن حربا لا هوادة فيها على التقليد وعلى التبعية ودعا الى اعلان التمييز بين الأمم في العادات والأخلاق، وقرر أن التقليد فقدان للشخصية، وأن التبعية عبودية للفكر والعقل. وأن الأمم في فترة الضعف لا تقلد الا جوانب الضعف والهدم والانحلال (فهي التي يقدمها لها العدو) وهي تعجز عن تقليد جوانب القوة (التي يحجبها العدو عنها) ولذلك فهي تنحصر دائما في مجال اللذات والانحراف والتحلل وتتخلى عن قيم القوة والتماسك والصمود.

(سابعا) لا يقر الإسلام النظرية القائلة بأن هناك صراعا بين الجسم والروح، وقد أعلن أن الروح والجسم متكاملان وبذلك أسقط مفهوم الرهبانية القائمة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحي، أعلن الاسلام تكامل الروح والجسد معا ونظر الى الانسان نظرة متكاملة وكرمها معا ودعا الى الاهتمام بالجسد من حيث الطهارة والنظافة وجمع الى ذلك طهارة القلب والزينة.

وقد نظر الإسلام الى الانسان من خلال طبيعته الأصيلة الجامعة بين الروح والجسم والعقل والقلب.

وبالجملة فانه لا سبيل الى تفريغ كيان الانسان من مضمونه

الاجتماعي والنفسي والروحي أو النظر اليه على أنه ذلك الهيكل البشري (المادي) (أو الحيواني بتعبير فلاسفة علم النفس) خاليا من الروح والوجدان.

(ثامنا) قرر الاسلام أن نشر العلوم والثقافات ليس بديلا للتربية والتهذيب الخلقي. وأنه لا قيمة لهذه العلوم اذا نقلت الى المجتمع الاسلامي ما لم تتحرك في اطاره ومن خلال قيمه ومفاهيمه. وان العلم سلاح يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والانشاء. ولا يمكن استعماله استعمالا صحيحا الا من خلال اطار العقيدة والأخلاق.

(تاسعا) يقرر الاسلام «قانون البعث» كقاعدة أساسية ودعامة أصيلة في حياة الانسان وأن ترتيب البعث على الحياة والموت ليس أمرا مستحيلا ولا متناقضا عقليا ولا فطريا بل أن الحياة الدنيا بغير البعث هي صورة غير مكتملة اذ كيف يمكن أن تنتهي الحياة دون أن يقدم للناس تفسيرا كاملا لها وجزاء كاملا عن أعمالها. وفصلا واضحا في عشرات من القضايا والمعضلات التي أثارها أصحاب المنهج البشري في معارضة المنهج الرباني.

ولا ريب أن مفهوم المسؤولية الفردية يترتب عليه الحساب والجزاء. فاقرر البعث مطابق للفطرة ولا يشكل تناقضا عقليا وانما الذي يشكل التناقض العقلي هو انكار البعث اذ يجعل الحياة الدنيا التي هي جزء من حياة أخرى وَمَعبرا اليها بمثابة صدفة عارضة بينما هي «مجاز» لامتحان ومقر لاختبار يمر به الانسان ليصل الى الجزاء في مكانه وموعده ولقد وصف القرآن الصدفة بأنها العبث **(أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم إلينا لا ترجعون)**.

وليس فهم الحياة بوصفها معبرا الى الآخرة بمنقص من هدف تحسينها واداء الدور الحقيقي في عمرانها وبنائها ولكنه على العكس من ذلك. اذ يجعل العمل فيها أكثر أصالة وأعمق أثرا في انتظار جزاء الله وأجره.

إطـار البحث وآفاقـه

خطران يقفان اليوم في وجه البشرية في محاولة جسورة لتدميرها وصرفها عن منهج الله : أولهما خطر عقائدي يتمثل في الالحاد. والثاني خطر اجتماعي يتمثل في مفاهيم (العلوم الاجتماعية) التي تعمل على دفع البشرية الى متاهات القلق والتمزق حتى تضل طريقها الصحيح فلا تصل الى طريق الله.

وقد بدأ هذا الخطر يتحكم ويفرض نفوذه منذ سيطرت اليهودية التلمودية على الفكر البشري ممثلا في الفكر الغربي الذي حاول قيادة الأمم خلال مرحلة الاستعمار الواسعة التي شملت آسيا وافريقيا وركزت تركيزا شديدا على العالم الإسلامي.

ولقد اتجهت الايدلوجية التلمودية منذ سنوات سبقت الثورة الفرنسية للسيطرة على الفكر الغربي والمجتمع الغربي واستطاعت في خلال هذه العقود المتوالية من القرن الماضي والقرن العشرين أحكام قبضتها حلقة بعد حلقة حتى وصلت اليوم الى ما يشبه السيطرة الكاملة : (ماركس في الاقتصاد. فرويد في النفس. ديوي في التربية . دور كايم وليفي بريل في الاجتماع والأخلاق(وهي ما يطلق عليها مدرسة العلوم الاجتماعية تجاوزا[1].

ولقد نشأت هذه الدعوات في بيئة خاصة ومن خلال تحديات مختلفة ظهرت حين عجز الدين عن العطاء وحين انفصلت الأخلاق عن الدين. واستهدفت السيطرة التلمودية من وراء بناء ايدلوجيات فكرية

---

(١) تطلق (العلوم الاجتماعية) أصلا على ما قدمه : (دور كايم وليفي بريل).

بشرية ـ من حيث أن المسيحية دين لاهوتي وليس له منهج حياة أو نظام مجتمع ـ هدفا آخر هو تحطيم المجتمعات المسيحية واسقاط الاسرة على حساب اعلاء المجتمع والقول بأن القيم كلها للمجتمع وأن المجتمع هو الذي يخلق الأديان والعقائد والآداب وحتى القيم الروحية.

«وقد تعرضت المجتمعات الغربية لهزات عقائدية فادحة مهد لها التطور الحضاري بانجازه المادي وبروز عمالقة الملحدين» ثم انتشرت الدعوة الى التحلل والاباحة والحرية الدينية والأخلاقية.

وغاية القول في العلوم الاجتماعية هو أنها عمل ماكر دقيق. موضوع في أسلوب علمي براق. يرمي الى تحويل الأهداف الصهيونية المدمرة الى نظريات فلسفية مطروحة في مجال التعليم والصحافة والثقافة العصرية.

ثم يجيء الخطر حين تنتقل هذه المفاهيم لتطرح نفسها في أفق الفكر الاسلامي وهي المرحلة الأخيرة في مؤامرة احتواء الفكر البشري بعد أن سقط الفكر الغربي تماما في براثن المخططات التلمودية.

واليوم يصطخب المجتمع الإسلامي بموجات من مفاهيم العلوم الاجتماعية جاءته من كل مكان: عن طريق الترجمة وعن طريق اتباع الدعوات والمذاهب. وعن طريق مناهج التربية والتعليم التي قدمتها الإساليات أساسا للجامعات والمعاهد المختلفة في العالم الإسلامي. بالاضافة الى مجال الأزياء والزينة.

تقول بنجمين فيلبي في محاضرة لها بالجامعة الأمريكية في بيروت ـ (1957/10/20) «لقد لعبت المؤسسات (نقصد الارساليات في بيروت والقاهرة والقسطنطنية): الدور الرئيسي في تنمية الفكر الشخصي عند طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ومن المهم أيضا أن نعرف أن النفوذ التربوي الوحيد الذي تعرض له الطلاب العرب في القرن الماضي كان النفوذ الغربي».

ومن هنا تأتي الخطورة: خطورة حصر تفكير المثقفين داخل دائرة الفكر الغربي المطعم بالتلمودية ولذلك فان من اعظم المحاذير: دخول

العرب والمسلمين في مواجهة مع العدو بمفاهيم وافدة هو صانعها في الأغلب.

ولا ريب يستهدف طرح هذه المفاهيم في أفق المجتمع الإسلامي عملا أساسيا: هو تحطيم قدرة الأمم على المقاومة. ذلك لان هذه المذاهب الفلسفية الحديثة في الأخلاق والنفس والاجتماع والتربية انما تحاول أن تصور للانسان المسلم والعربي أنه مقيد في جبرية ولا سبيل له إلا الارادة الفردية للخلاص منها. وهذا هو الطابع الذي ينتظم مختلف نظريات العلوم الاجتماعية.

فضلا عن الحملة الشديدة على الدين ومحاولة ازدراءه والسخرية به وكذلك الحملة على الأخلاق وترويج الدعوي الباطلة بنسبية الأخلاق وانتهاء زمن الأديان.

ولعل أخطر ما ترمي اليه نظريات العلوم الاجتماعية: ليس هو في اعتناقها أو رفضها بقدر ما هو في بلبلة العقل واثارة الفكر. وخلق روح المقارنة والمعارضة. ثم الاحتقار لكل القيم المتضاربة.

ذلك أن هذه المدارس لا تقدم وجهة نظر واحدة ولكنها تقدم عديدا من وجهات النظر وليس هناك مدرسة واحدة لعلم النفس أو الاجتماع أو الأخلاق أو التربية ولكنها مدارس مختلفة تقدم عشرات المذاهب والمناهج. تتعدد معها وجهات النظر وتختلف مسلماتها وطرق تأويلها للوقائع.

فهناك مدارس فرنسية والمانية وانجليزية وأمريكية.. وكلما ظهرت نظرية في اتجاه ظهرت نظرية أخرى في الاتجاه المضاد وحين ظهرت الماركسية أو الفردية أو الوجودية أو مدرسة العلوم الاجتماعية ظهرت نظريات معارضة لدارون وماركس وفرويد وسارتر.

وجرت في أفق الفكر معارضات ومساجلات لا يقصد بها أكثر من الهدم: هدم كل القيم واثارة روح الاحتقار والكراهية لكل المفاهيم وخلق روح من اللامبالاة واللاانتماء لشيء ما.

وهذا هو ما أثمر أخيرا تلك الموجة العارمة من الرفض الذي حمل لواءه الشباب باسم الهبية وغيرها من دعوات.

ولقد تظهر نظريات لتدحض زيفا ولكن تظل الدعوات الزائفة باقية محمولة على كل طائر الى الآفاق ولا تجد محاولات النقض مجالا لرأي أو مكانا لبيان بفعل نفوذ أصحاب الأهواء. ولقد جرت المحاولات منذ وقت بعيد لسيطرة الفكر الغربي باسم العالمية على الفكر الإسلامي كما جرت محاولات احتواءه وصهره. ذلك أن الغرب حاول في غطرسة واستعلاء فرض وجهة نظره على العالم كله. بحسبان أنه هو صاحب الحضارة وسيد الأمم وتاج الخليقة ولقد دافع الفكر الإسلامي عن نفسه هذه المحاولات وجاهد في مقاومتها جهادا بالغا. وكشف في معركة المقاومة عن جوهره الأصيل الصلب الذي لا يخضع ولا ينطوي.

وهذه موجة أخرى جديدة من موجات الاحتواء تحاول أن تسيطر على الفكر الإسلامي وتجتاحه بقوة وهي ذات طابع آخر. فهي شطر من دعوة تجتاح العالم كله وموجة عارمة من التحلل في العقائد والقيم والأخلاق تدعو الى حرية الغريزة وانطلاق الشهوات والأهواء.

وقد عمدت التلمودية حين سيطرت على الفكر الغربي «الى نقله من توجيه السلوك الانساني على أساس العقل كما عرفته الفلسفة المادية الى توجيهه على أساس الغريزة والانطلاق النفسي كما صوّره فرويد. وكتاب القصة وهوليود. وذلك في سبيل دفع السلوك الانساني الى فلسفة بدائية في جوهرها. وفي مضمونها تمجد الغريزة وتناقض العقل.

وتتركز الدعوة التلمودية في مجال العلوم الاجتماعية الى اسقاط قيم الدين وتحطيم الثوابت من القيم في مجالات المجتمع وفي مجال الأخلاق على الخصوص وهي دعوة: «الى أن يصبح الناس أحرارا لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نوادي العراة» فلما وقفت المدنية المسيحية من ذلك موقفا عدائيا. أخلاقيا. رأوه يحول دون نجاح هدفهم في تليين الشباب منذ طفولتهم بتلقينهم أسس دعوات الجنس والانحلال

وتلقينهم مبادئ قداسة أعضائهم التناسلية. لما رأوا معارضة رجال الدين المسيحي صنعوا بهم الأعاجيب من قتل وتخويف[1] وعندما حملت التلمودية لواء الدعوة الى تحرير الانسان في الثورة الفرنسية (حرية ـ آخاء ـ مساواة) لم يكن الهدف الا تحرير الانسان من الدين ودفعه الى إباحية الالحاد. وعندما دعت التلمودية الى تحرير الفرد من ظلم المجتمع كان الهدف هو فرض عبوذية الجبرية عليه واسقاط ارادته وجعله ترسا في آلة كبرى وحين يحاول علم النفس الفرويدي طرح فكرته انما يعمد الى دعوة الانسان لفصل العلم عن التطبيق. ومن أخطر مفاهيم الفكر اليهودي التلمودي التي سيطرت على الفلسفات مذهب الشك في الحياة بعد الموت وانكار البعث.

ويرى المراجع للفكر اليهودي أنه «لا يوجد في تعاليمه وشريعته ذكر للروح. ولا اعتراف بحياة أخرى بعد الموت. ولم يرد في دينهم شيء من الخلود. وهم يؤمنون بالاله يهوه وهو إله خاص بهم وحدهم دون الآخرين. وهكذا تطغى المادة على عقيدتهم طغيانا عجيبا يقول يهوه: لا بعث في حياة أخرى وما الموت الا نوع عميق».

ومن هنا جاءت تلك الدعوة الحارة الى المتعة واللذة في حياة ليس بعدها جزاء وتلك العبارات المثيرة التي تدعو الانسان أن يقتنص حظه قبل أن يذهب.

وقد استعلت هذه النغمة بعد الحرب العالمية وارتبطت بخطر الذرة وما إليها والتلمودية هي التي تذيع كراهية الأب وتحاول أن ترسم له صورة الغطرسة والاستبداد وتدعو الى حرية الصداقة والى التقليل من شأن البراءة والبكارة والطهارة. وتدعو الى تحطيم كل الصداقات والقيم والتحرر من كل القيود.

والتلمودية هي التي تقول: انه ليس في الكون شيء ثابت لا يتغير وليست هناك أخلاق مثلى دائمة وهي التي تسوق العالم الآن تحت لواء

---

(1) عن بحث للأستاذ محمد خليفة التونسي.

الجنس: قصة وثقافة وتربية وصحافة وهي التي تذيع عن طريق أوليائها أن الدنيا مسرحية ساخرة.

ولا ريب أن أعظم أهداف التلمودية هو هدم الأسرة: واعلاء العلاقات غير الشرعية، ودفع المرأة الى أن تكون اداة طيعة للأهواء واللذات.

وهي التي تعلن أنه لا علاقة بين اللباس والأخلاق وأن الشهوات لا تستثار بالتبرج وأنه لا وصاية على الشباب.

ولا ريب أن طرح هذه المفاهيم الوافدة الزائفة في أفق المجتمع الاسلامي انما هي محاولة خطيرة للتأثير على النفسية والمزاج والجانب الروحي الاسلامي واخراجها جميعها من مفاهيمها وموازينها وفرض أعاف جديدة على المسلمين تختلف في الأصل.

وهي محاولة لصياغة عقلية المجتمع الاسلامي وتبديل أسلوب تفكيرها وتغيير نظرتها الى طبائع الأشياء وصبها في قالب التلمودية المادية الربوية الإباحية.

ومن الحق أن يقال أن لنا مفاهيم في النفس والاجتماع والأخلاق ــ لا نقول تفوق ــ ولكن تختلف عن مفاهيم مدارس العلوم الاجتماعية والتحليل النفسي ووجه اختلافها انما يتركز في صلاحيتها لمجتمعنا وافقنا لأنها نابعة من فكرنا وقيمنا، ومن هنا فهي صالحة لنا بينما لا يصلح غيرها لنا مهما كان صالحا لمجتمعه ولماكانت مفاهيم العلوم الاجتماعية والتحليل النفسي قد عراها اضطراب كبير وكشفت التجارب عن أخطاء واسعة فيها كما كشفت التحاليل عن فروض فاسدة، ونتائج مضللة، فالأولى وقد تجاوزها قومها أن نتجاوزها وأن لا نسرف في الثقة بها.

الباب الأول

الانسان مع نفسه

أولا : المسؤولية الفردية في مواجهة نظرية الجبرية الاجتماعية.

ثانيا : الالتزام الأخلاقي في مواجهة نظرية نسبية الأخلاق.



الفصل الأول

المسؤولية الفردية في مواجهة نظرية الجبرية الاجتماعية

(1)

اختلف الباحثون في فهم الانسان وتعددت النظريات واختلفت مع اختلاف المراحل (خلا العصر الحديث) بين مؤلهة للإنسان وواضعة له في إطار الحيوان والمادة. وهي في كلا نظريتها مسبوقة بنظريات مختلفة تداولها الفكر اليوناني والفكر الغنوصي على السواء. وهما جناحا الفكر البشري في الشرق والغرب وهما أيضا يختلفان في هذا عن نظرة الدين الحق على عمومه والإسلام بصفة خاصة.

ولا ريب ترجع أزمة الانسان الحديث الى سيطرة النظريات التي شكلتها مدرسة العلوم الاجتماعية (وهي علوم الاجتماع والنفس والأخلاق) والتفسير المادي للتاريخ. وكلها ظهرت في خلال المائة سنة الأخيرة وقادها كثيرون على رأسهم سبنسر وماركس وفرويد ودوركايم وليفي بريل وسارتر.

وقد استقطبت هذه النظريات دعويان: هي [الليبرالية الغربية] المعروفة باسم الرأسمالية و[الماركسية] التي تفرعت عنها دعوات البلشفية والاشتراكية والشيوعية ودارت هذه النظريات بين فلكين أحدهما يحمل لواء الفردية والآخر يحمل لواء الجماعية. ثم طرحت هذه المذاهب نفسها في أفق الفكر الإسلامي عن طريق مدارس الإساليات ومناهج الجامعات والصحافة وأبحاث الأدباء والمفكرين.

ولقد حفل العصر الحديث على أثر سيطرة مفهوم التطور (المطلق) بعد الانفصال عن المسيحية الغربية بتغيرات متوالية، تراوحت بين الفلسفة اللاهوتية. والفلسفة المثالية والفلسفة المادية التي سيطرت في السنوات الأربعين الأخيرة وأصبحت قاعدة الفكرين الليبرالي والماركسي جميعا ولم تعد نظريات الفلسفة اللاهوتية أو المثالية تبدو من بعد وإلى اليوم إلا في موقف الدفاع وتقديم التنازلات.

ولا ريب أن المرحلة الأخيرة التي سيطرت فيها مدرسة العلوم الاجتماعية التي قامت أساسا على مفهوم الجبرية الاجتماعية والحتمية التاريخية قد شكلت ذلك التحدي الخطير الذي أصبح يطلق عليه في عالم الغرب : [أزمة الانسان الحديث].

وقد كتب الكثيرون تحت هذا العنوان بحوثا هامة تناولت هذه الأزمة. وفي مقدمة هؤلاء تشارلز فريكل في كتابه (أزمة الانسان الحديث) وكارل باسبرز في كتابه (مستقبل الانسانية) كما أطلق عليها أدرتين كوخ (أزمة العصر) وكلها تدور حول الانسان وتبحثه من خلال مفاهيم العلوم الاجتماعية له (حتى نظرية الوجودية التي تمثل الدفاع عن فردية الانسان في وجه النظرية الجماعية) ولكن ما يلفت النظر حقا ويستدعي العجب أن هذه النظريات كلها على اختلافها بين التيارات والمذاهب والمجتمعات إنما تصدر عن قاعدة واحدة: فهي تقيم الانسان على أساس واحد: هو الأساس المادي.

وبدأت تنكر عليه أعظم معطياته وهي الروح والنفس والعاطفة والوجدان ولقد دار الخلاف حول الانسان وهل هو حيوان اجتماعي ام أن له جانب آخر هو الفردية. ولكن البحث لم يجرؤ مطلقا على أن يقول إن الانسان ليس ماديا فحسب ولكنه مادي وروحي. وانه ليس خاضعا للعلوم البيولوجية ولكنه قسم بين البيولوجية والنفسية وأن له نفسا هي بمثابة الروح. فكما أن الانسان مزيج من الفردية والجماعية فهو مزيج أيضا بين المادية والروحية.

ولقد استثيرت في السنوات الأخيرة ظاهرة البحث عن الانسان وتصدت لذلك هذه العلوم الاجتماعية التي تصدر عن المذهب المادي والتي ترد كل تصرفات الانسان اما إلى الطعام أو الجنس، والتي تقيس الانسان بتجارب الحيوان. أو تطبق عليه مناهج العلوم الطبيعية والتي تفسر تاريخه كله بالحتمية (ماركس) أو تضعه في قالب الجبرية الاجتماعية (دوركايم).

ولا ريب أن حتمية الانسان تنفي عنه المسؤولية الفردية التي هي عماد شخصيته ورسالته ووجوده في هذا الكون.

ويعني هذا تماما أن الانسان الغربي بقيادة مدرسة العلوم الاجتماعية قد قطع آخر خيط بينه وبين مفهوم الدين ولذلك فقد انفصل تماما وأصبح معلقا في الهواء تتقاذفه التيارات تحت اسم التطور المطلق والحركة الدائمة.

(2)

كيف يتصور المفكرون الغربيون أزمة الانسان الغربي المعاصر.

1 ــ في محاولة تشارلز فرانكل لدراسة أزمة الانسان يقول:

«بالرغم مما حققه العصر الحديث من معجزات العلم والتكنولوجيا إلا أن الثورة على الانسان المعاصر الذي سيطر بعقله وعمله على الكون بدأت تشتد وتقوى. اذ أنه رغم كل ذلك لم يحصل الانسان الحديث على السعادة ولا الطمأنينة وما زالت قيمه في تخبط ووجوده مهدد بالقلق».

«لقد اشتدت صيحة فلاسفة الغرب ينذرون الانسان الغربي صاحب الحضارة وسيد العالم بأن أخطارا جسيمة تهدده وأنه يسير الى حتفه ما لم يخفف كبريائه ويعيد النظر الى قيمه التي يلتزم بها وجوده. وما كانت هذه الدعوة لتعلو وتشتد ما لم تكن الحضارة الغربية مهددة اليوم بأشياء كثيرة منها صحوة المارد الشرقي آسيا وافريقيا، وقد بدأت تظهر أن حضارته ليست وحدها هي الحضارة المثلى وأن قيمه رغم التقدم العلمي في حاجة الى كثير من التغيير والتعديل.

ويرد (جاك مارتيان) هذا الخطر الى مفهوم الاتجاه التجريبي في

الأخلاق المعاصرة[1]. ويقول: ان أي مجتمع بشري يحتاج الى مجموعة من القيم ذات المصدر الإلهي الذي يعلو على الإنسان، أي أن مصدر القيم لا يجوز أن يرجع الى الانسان نفسه وإلا فإنه سيكون طرفا وقاضيا في نفس الوقت. إذن لا بد لكي يحتفظ المجتمع البشري باستقراره وخضوعه للسلطة السياسية من وجود حقائق مطلقة يسلم بها الأفراد جميعا.

° ° °

ويرد (راينهولد نيبور) الأزمة الى فكرة الخطيئة الأصلية، وتعني عنده مذهب الخطيئة: ان وجود الشر في العالم ليس مجرد نتيجة لنظم اجتماعية غير صالحة أو نتيجة الجهل البشري ولكنه نتيجة انحراف أساسي في طبيعة النفس البشرية ذاتها. ومن ثم تتدخل الخطيئة الأصلية في سير التاريخ البشري. حتى في خير العوالم الممكن وجودها. لا بد للحياة البشرية من أن تنطوي على تناقض ثابت. ذلك أن الإنسان مخلوق محدود، وهو من ناحية أخرى غير محدود برغباته. «والنتيجة أن يظل هناك احساس أساسي واضح في حياة الناس (يقصد في الغرب) هو الشعور بالقلق. وليس هذا القلق خوفا من شيء محدود. كما أنه ليس ناجما عن أشياء معينة يمكن أن تعالج بأساليب عملية معينة. انه شعور جميع الناس بأنهم لا يدركون المطلق، ويقول: لقد كان الظن أنه حين يتقدم الانسان في المعرفة يتقدم في الفضيلة ولكن ذلك لم يتحقق. ويقول: وكذلك اتخذ الانسان الحديث من العلم نبيا كاذبا.

ويرى المؤرخ توينبي: ان أمل الانسان مركز فيما يمكن التمسك به من المثل الروحية التي جاءت بها الأديان جميعا وإعادة تنظيم النظم السياسية والاجتماعية بما يتفق والقيم الخلقية. وبهذا وحده يمكن انقاذ الحضارة الغربية.

---

(1) راجع الفصل الثاني من هذا الباب.

ويدعو توينبي الغرب للالتزام المثل الأخلاقية ويشير الى ما كان للغرب من حضارة زاهرة بفضل تمسكهم بالقيم الروحية الخالدة[1]. ويشير الى قضية تقدم العقل البشري في العلم والتكنولوجيا وخطرها على مستقبل الانسان.

(3)

ويرى كثير من الباحثين أن النفس[2] الانسانية أهملت أشد الاهمال وازدريت أشد الازدراء بتأثير الكنيسة في العصور الوسطى. التي ذهبت الى تضليل العقول مذهبا بعيدا. فزعمت الانسان شريرا خاطئا بالطبع. وعلمت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان وقد عكست (بمعنى غايرت) الكنيسة غاية الدين الذي لم تأت الا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله».

ثم كيف انتقل من النقيض الى النقيض. فأخذ الانسان يتصور نفسه قوة قادرة. مسيطرة. وبدأ يتحدث عن ما أسماه تلاعب الأقدار به أو صراعه مع الأقدار. ودعوته العريضة في قدرته على السيطرة على الطبيعة والطموح الى القوة وقهر الموت. ثم تبين له من بعد مدى غروره بهذه الدعاوي الباطلة. فقد ظل الموت علامة ضخمة على عجز الانسان عن فهم رسالته الصحيحة ومكانه الطبيعي من الكون والحياة.

لقد تحولت النظرة إلى الانسان ثلاث مرات بعد أن انسلخ الفكر الغربي من مفهوم المسيحية اللاهوتية:

المرحلة الأولى: تقديس فرديته ووصفه بأنه مركز الكون.

المرحلة الثانية: إلغاء شخصيته وتطبيق مقاييس الحيوان عليه ووصفه بأنه صدر عن غريزته وعن الجنس أو الطعام.

---

(1) الواقع ان القيم التي تمسك بها المسلمون والعرب ليست روحية خالصة ولكنها قيم جامعة بين الدين والدنيا والعقل والقلب وتعترف بالانسان كيانا متكاملا: روحيا وماديا معا.

(2) الرسالة م 1937.

المرحلة الثالثة: اعتباره مجرد فرد في القطيع وإعلاء مفهوم الجماعية.

وهكذا بقي الانسان في نظر المذاهب يتأرجح بين تيارين من الشك كلاهما فيه تجاوز كبير كبير وكل منهما أشد خطرا من الآخر:

هل الانسان هو سيد الكون غير منازع كما تقول الوجودية؟

أم ان الانسان حيوان مقيد بالغرائز كما يقول فرويد أو مقيد بالطعام كما يقول ماركس.

الحقيقة ان الأنسان ليس سيدا للكون إلا بمعنى الاستخلاف في الأرض لله. وليس حيوانا مقيدا بالجنس أو الطعام ولكنه جامع بين الرغبات المادية والأشواق الروحية وقادرا على الموازنة بينهما.

ولقد حاولت بعض الدراسات أن تثير الشكوك حول عناية الأديان السماوية والكتب السماوية بالانسان وهي قضية تثار من خلال بعض النصوص المنسوبة إلى المسيحية أو التي يجري تفسيرها لاهوتيا على النحو الذي ذكره (ماجد فخري) في كتابه: (دراسات في الفكر العربي) وما ردده (جورج حنا) في كتابه (اكتشاف الانسان العربي) حتى يصل القول إلى أن اليونان هم الذين كان لهم فضل اكتشاف هذه الحقيقة. ثم يقول أن النظرة الانسانية غلبت على الفكر الحديث منذ القرن الخامس عشر[1].

والواقع أن القرآن الذي أهدى الى البشرية منذ أربعة عشر قرنا قد قام على محور واضح الدلالة في التركيز على بناء الانسان على نحو شامل جامع. ومن خلال منهج يربط بين المادة والروح فيه.

ولا ريب أن هذه الحقيقة تجعلنا نعتقد أن الكتب السماوية السابقة له والتي جاء مصدقا لها وكذلك رسالات السماء كلها التي جاء الإسلام متمما لها قد أولت عناية كبرى بالانسان وأن كل المعاني التي كانت تذخر بها الحياة البشرية قبل الإسلام من قيم الأخلاق والعلم والحضارة إنما تعود الى تراث الأديان أساسا وإلى الفكر الرباني الأصل الانساني الطابع. بينما تعود

---

(1) ص 266 ـ كتاب اكتشاف الانسان العربي.

كل مفاهيم الوثنية والإلحاد والظلم والجحود الى تراث الفكر البشري الهليني والعنوصي على السواء.

ولا ريب أن هذا الصراع الحاد بين العقل والروح من ناحية وبين النفس والجسد من ناحية أخرى هو ثمرة الفكر البشري الذي تخطى القيم والضوابط والحدود التي رسمتها الأديان للإنسان وانطلق نحو الغابة الموحشة.

(4)

يقول المتابعون لتطور الفكر الغربي في آخر مراحله أن همومه اليوم تدور حول قضية أزمة الانسان المعاصر، وأن كل المذاهب الجديدة تدور حول الأزمة الراهنة للانسان المعاصر «ذلك أن الانسان المعاصر قد أصاب العلوم وفي كل مكان بأزمة حادة وخطيرة تهدد بغروب شمس الانسان على الأرض، واختفاء الانسان من الوجود، وترجع هذه الأزمة الى تخلخل مكانة الايدلوجيات المختلفة وعدم حلول مناهج ومفهومات جديدة محل المناهج والمفهومات التي تخطتها الوقائع والأحداث».

ويقول جول رومان في كتابه (المسألة رقم واحد): «ان الغرب في دمار وهو ينهار نظرا لفقدان أيدلوجية ثابتة لأن الأيدلوجيات الثائمة لا تحمل عناصر الثبات وهي لذلك تنطلق وتتعدى».

ويقول أحد الباحثين في أزمة القيم الانسانية: «ان الانسان منذ وجد على الأرض يناضل في سبيل الوصول إلى عالم أفضل أو مجتمع أمثل ولكن الانسان لم يستطع بعد تحقيق هذا العالم. ويرجع ذلك إلى الانغماس في اللذات والمتع الرخيصة وحالة الميوعة والفوضى وفقدان الشخصية الانسانية، فقد فقد الانسان الحاسة الانسانية المهمة وأصبح لا يهتم إلا بحياته الفردية والمضي دون أن يقيم وزنا لما في العالم من قيم فكأنه كفرد أصبح المقيم الوحيد[1].»

---

(1) عن بحث لـ : لبيب زوبا.

ويرى الدوكس هكسلي : «ان العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد والمادية البحتة التي تجرد الانسان من كل مشاعر الانسان بلا حب ولا تعاطف. وتقوم على تبادلات الاتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة».

ويقول: «ان العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لا تقوم على منطق أو تفكير والمجتمع الجديد لا يعترف بعقود الزواج ولا يعترف بلأمومة وكل شيء تصنعه الآلات. والانسان يستهلك مائة سنة في خمسين سنة بالعقاقير والاجهاد العصبي والخروج عن الطبيعة وكبت الانفعالات والتظاهر باكذب والنفاق».

(5)

يؤكد الباحثون والمؤرخون أن أزمة الانسان الحديث وأزمة الحضارة المدنية لا يمكن انقاذها إلا بالدين: الدين الحق. وأن مصدر الأزمة الحقيقي هو انفصال الانسان بجانبه المادي عن جانبه الروحي. وافتقاده عناصر الرحمة والأخلاق والعدل وصفة عزم الأمور.

فضلا عن انهيار جانب المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي وقد أكدت جميع الدراسات على أن الترف والنعمة والرفاهية تهدم رجولة الرجل وتحطم المجتمعات.

وقد وقعت البشرية اليوم في الأزمة المضادة: كانت الأزمة فيا تصوره الغربيون هي أزمة الفقر المادي. وقد حلت هذه الأزمة تقريبا وحل محلها ما يسمى بالفقر الروحي أو الخواء الروحي وهو التعبير الذي يستعمله المؤرخ توينبي في صيحته في وجه الفكر الغربي «ان المخلص من أزمة الانسان الحديث هو الدين» يقول: إن الأوروبيين يعجبون لأن ما عندهم لم يعطهم شيئا وأن العطاء من مصدر واحد هو الدين» ونحن نقول: العطاء يصدر عن الدين الحق.

فإن بعض الأديان التي عرفتها البشرية عليها تبعة ما انتهت بها إلى هذه الأزمة وأن الاسلام وحده هو الدين القادر على إعطاء البشرية حاجتها في نفس الوقت الذي يقتدر فيه على استيعاب هذا التقدم العلمي والتكنولوجي ويوجهه وجهة إنسانية أخلاقية تضمن استمراره ونموه مع فطرة الانسان وفي إطار (الربانية) ويؤكد الباحثون على أن فصل الدين عن الفكر والمجتمع هو فناء محتوم للحضارة، التي تندفع الآن إلى طريق الإسراف والبذخ.

(6)

إن أخطر ما يواجه النفس البشرية والإنسان هو ذلك النزاع الحاد بين العقل والروح، ذلك أن الطبيعة الانسانية خاضعة لقانون التوازن، تقول مدرسة وليم جيمس «إن الخوف والبلبلة النفسية ومشكلة السلوك السيكوبياتي ليست إلا وليدة انكار الفرد على غريزته الدينية حقها ووظيفتها وتجاهله لاهميتها والدور الذي تلعبه في السلوك الانساني ونفوره من انمائها ورعايتها.

ولا ريب أن محاولة إخضاع الانسان الى المناهج المادية والتجريبية هو الذي حمل البعض على القول بأن الإنسان ما هو إلا ظاهرة من الظواهر العامة وانه لا بد خاضع في حياته الفردية وفي حياته الاجتماعية الى قوانين جبرية لا مفر من سلطانها.

ويجيء في مواجهة هذا منهج الإسلام القائم على حرية إرادة الانسان التي هي موضع مسؤوليته وجزائه ومن هنا يتكشف خطر المذاهب المادية التي تقوم على الجبرية لأنها تحاول أن تقنع الانسان بأنه لا يخضع للجزاء المترتب على البعث والنشور بعد الموت.

ومن هنا تجيء دعوة الإسلام الى بناء (الارادة) ذلك أن تربية قوة الإرادة هي المبدأ الأساسي في التربية الأخلاقية ولا يستطيع الانسان

تطبيق الالتزام الأخلاقي دون أن يملك قوة الارادة التي تتمثل في أمرين :
1 – الشجاعة في مواجهة الحياة وألوانها المختلفة من عسر ويسر.
2 – الثبات على المبادئ التي يؤمن بها الإنسان والاستمرار في تطبيقها مهما كلفه من العناء والمشقة.

وقد شاء الله أن يكون الانسان قوة مريدة فعالة في هذا الكون فلا يؤمن الاسلام بالجبرية اللاهوتية التي تقول أن الانسان ليست له ارادة وأنه مسير غير مخير ولا يؤمن الاسلام بالجبرية المادية التي تقول أن الانشان ليست له إرادة وإنما الوسيلة المادية هي التي ترسم الطور الاقتصادي ثم الواقع الاجتماعي.

والمسؤولية الفردية تجعل المجرم مسؤولا عن جريمته وذلك بخلاف ما تحاول المذاهب المادية والعلوم الاجتماعية أن تقول أن المجرم ضحية الأوضاع الفاسدة فهي تسقط من حسابها قدرة الفرد الفطرية على التميز وقدرته الفطرية على ضبط تصرفاته وهي بذلك تعتبره مخلوقا سلبيا خالصا. والإسلام يرى وجود مسؤولية المجتمع والبيئة ولكنه لا يلغي المسؤولية الفردية على فاعل الجريمة.

والحرية الفردية في الاسلام هي حرية مسؤولة ومقيدة باستعمالها على الوجه الذي قامت الشريعة من أجله وهذا ينفي مشروعية استعمالها إذا ترتب عليها ضرر بالغير أو بمصلحة صاحبها بقطع النظر عن الغير من الفرد أو الجماعة.

(7)

وهناك الخطأ في فهم الانسان فهما مجزءا : يقول الكسي كاريل في كتابه (الانسان ذلك المجهول): «اننا في الغرب لا نفهم الانسان ككل. أننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة وحتى هذه الأجزاء ابتدعت وسائلنا فصل واحد منا فيكون كمركب من الأشباح تسير في وسطها

حقيقة مجهولة. ذلك أن هناك مناطق محددة في دنيانا الباطنية وما زالت غير معروفة».

وقول ذلك الطبيب حق. وأن جهلنا بحقيقة الانسان شبيه بجهلنا بحقيقة الكون والحقيقتان لم يكشف عنهما غير الوحي. وأصدق المعلومات فيهما هي ما أعطتنا إياها الأديان عنهما لأن وسائلنا الخاصة قاصرة عن فهمها.

واليوم والعلوم الحديثة تذهب شرقا وغربا في البحث عن كنه الانسان فإنها عاجزة وقاصرة ومحدودة لأنها جعلت وسائلها مادية خالصة. وقفت عند حدود العقل والتجربة. فقصرت عن استكناه أعماق الانسان وهي نتاج علوم أخرى قدمها لنا الدين الحق.

لقد أثبت الانسان عجزه عن معرفة حقيقة ذاته، ولقد أعفته رسالة السماء من هذا البحث المضني الذي يعجز عنه بأدواته القاصرة: عقله وتجربته فضلا عن هواه وتعصبه لجنسه واستعلائه بعنصره، ولذلك فقد قدم الإسلام هذا المفهوم متكاملا وواضحا (في شأن عالم الغيب والانسان والنشأة وما بعد الموت من حياة أخرى).

وإذا كانت جميع التجارب التي أجراها الانسان في سبيل وضع منهج حياة لنفسه قد أكدت فشلها بعد سنوات وسنوات تداخلت فيها الايدلوجيات بين الفردية والجماعية والمادية والوجودية، فإن ذلك من شأنه أن يؤكد لنا نحن المسلمين تلك الحقيقة الدامغة، أن الانسان عاجز عن وضع منهج حياته الذاتية بنفسه وأن الله تبارك وتعالى قد أغناه عن هذا الجهد الضائع فوضع له المنهج الملائم لفطرته وحياته وفق رسالته ووظيفته ودوره في العمل في الأرض.

ومن الحق أن يقال أن الانسان في العصر الحديث بعد أن أزاح عنصر الدين من حياته واعتمد على نفسه في البحث عن نفسه وتشامخ بالقول بأنه لم يعد قاصرا وأنه يستطع أن يعرف كل شيء عن الانسان،

فقد تدافعته المذاهب ولم يحقق له العلم مطمحه. لأنه كلفه بما لا يستطيع. ولم يجد العقل نفسه قادرا لأن المطلوب أكبر منه.

لقد حاولت المذاهب التي دارت حول الإنسان أن تجعله مقطوع الصلة بكل الأجيال قبله. وجرت بعضها على تفسيره عن طريق الجنس وجرى بعضها الآخر على تفسيره عن طريق الاقتصاد والانتاج وقالت مذاهب أخرى أنه لا يوجد كيان ثابت للانسان لأنه حصيلة الظروف المتغيرة وأن التغيير يشمل أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه.

ومعنى هذا كله في مجموعه: إخضاع الانسان للجبرية الاجتماعية أو الحتمية التاريخية وكلها محاولات تعمد الى إذلال الانسان وتشويه مكانته وإفساد حقيقته وإبطال دوره الأصيل.

فليس الانسان في حقيقته خاضعا للقهر أو الجبرية أو الحتمية وإنما هو صاحب إرادة فاعلة هي جزء من إرادة الله، تميز بها عن الحيوان، ذلك أن للانسان كيان ثابت مرن قابل للتشكل وليس كما يحاولون تصويره دائم التشكل والتغير ففيه عناصر الثبات وفيه عناصر التغير. وليس الانسان كيانا بيولوجيا. أو كيانا سيكولوجيا ولكنه صاحب روح ونفس مشبعة بكيانه المادي. أنه الانسان المزدوج الطبيعة المكون من (قبضة الطين ونفخه الروح) متحدين ممتزجين فيه سلبية وإيجابية وحب وكره. وواقع وخيال. حسي ومعنوي. وفردية وجماعية يجري كله في إطار (التوازن).

ولقد تتغير صورة الانسان على اختلاف البيئات والعصور ولكن جوهره لا يتغير تتغير صورة الطعام والمسكن واللباس ولكن تظل نزعات الطعام والمسكن واللباس قائمة. إنما تتغير المظاهر والأساليب أما النزعات التي احتواها الانسان فهي ثابتة.

(8)

وليس الانسان في مفهوم الاسلام واحدا من المفاهيم الثلاثة التي عرفه بها الفكر البشري:

(1) ليس حيوانا كما تقول العلوم الاجتماعية.

(2) وليس آثما بحكم ولادته كما تقول بعض الأديان.

(3) وليس مجبور التناسخ كما يقول البوذية والهندوكية.

بل هو مستخلف في الأرض؛ ممتاز عن كل ما خلق الله في الأرض، كرمه الله وفتح له آفاق الحياة وكنوز البحار والجبال والأنهار وحمله الأمانة والمسؤولية أمانة استخلافه في الأرض. ومسؤوليته الحرة عن تصرفاته، وكشف له المنهج الذي يهديه والضوء الذي يسير فيه، متحررا عن الأهواء . عزوفا عن الدنيا، قادرا على امتلاك إرادته ، ساهرا على حراسة ثغوره مرابطا فيها في مواجهة عدوه، قادرا على فطم نفسه عن الشهوات، صامدا محشوشنا إيمانا منه بأن النعمة لا تدوم.

وقد أمهد الإسلام بالإيمان بحريته ذات المسؤولية وإرادته ذات الجزاء وأمده في نفس الوقت بالإيمان بالله بقوة دافعة للنضال والعمل فلا يخشى أحدا سواء فيثور على التواكل وينكر الجبر ويعتقد أنه مسؤول وحر كما يعتقد أن الله سخر له ما في السموات والأرض إذا قام بدوره قياما صحيحا.

(9)

إن نظرية الجبر التي دعا اليها فلاسفة الغرب وأقاموا عليها مفاهيم العلوم الاجتماعية ثم نقلها الى أفق الفكر الاسلامي بعض الذين يكتبون بالعربية من ذوي العقليات التابعة والفكر الوافد لا تجد عند المسلمين قبولا ولا تلقى من أصول فكرهم تقبلا.

الإسلام يرفض الجبر المطلق ويعتقد في الحرية البشرية. ولقد شاد مفكرو الإسلام منارا عاليا من الإيمان بالاختيار والحرية وتأكيد حرية الانسان في أداء عمله ومسؤولية آراءه.

والاسلام حين يؤمن بإرادة الله العليا القادرة التي وضعت نواميس الكون وسنن الطبيعة وقوانين الأمم والحضارات يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو صانع هذه القوانين والسنن وهو قادر على أن يخرقها. وأن الأمر كله اليه وان إرادته لا تتوقف على أن كل شيء في هذه الحياة نتيجة لشيء قبله. فهو الذي صنع ما قبل القبل وأنشأ هذا الكون من العدم. وله الأمر كله.

وأما الانسان فقد أعطاه الله حرية عمله وجعلها مناط مسؤوليته، بما يترتب على هذه الحياة من بعث وجزاء في الآخرة.

وإذا كان للزمن أو للبيئة أو العادات أثر في أعماله فانما يبقى هناك جانب الإرادة الحرة.

هذا ويقرر الإسلام إن إرادة الله قائمة ودائمة على الانسان والكون جميعا.

وكما يقرر الاسلام أن الفرد ليس من صنع المناخ أو البيئة أو العادات كذلك يقرر أنه ليس ظاهرة اجتماعية في وجوده المادي بل له كيانه الخاص الذاتي وله رابطته مع الجماعة في نفس الوقت بحيث لا تقضي الجماعية على الذاتية ولا تسيطر الذاتية وتستعلي دون أن ترتبط بالجماعة.

ولا ريب أن نظرية الجبر المطلق تنطلق من مفهوم المادية الخالص.

(10)

يقرر الاسلام أن الفرد له فرديته المتصلة بارادته الحرة والتزامه الأخلاقي ومسؤوليته الخاصة ثم له دوره كفرد في إطار المجتمع وأن كلا الوظيفتين لا تقضي إحداهما على الأخرى.

ولذلك فان الاسلام يعني ببناء الانسان الفرد أساسا ثم يبني معه الاسرة أولا قبل أن يبني الجماعة التي لا يمكن أن تقوم الا على أساس الحصن المنيع : حصن الأسرة.

ومن هنا يبرز خطأ دعوة هدم الفردية في سبيل الدعوة إلى الجماعة مع تخطي الأسرة التي هي الأساس الأول وسوء قصدها من هذه المحاولة في اعلاء الجماعة وطحن الفرد ولا ريب هدم الاسرة له هدف خطير هو هدم الفرد وهدم الاسرة دون أن تكون هناك جماعة ما في النهاية والبناء الاسلامي إنما يقوم على لبنات قوية في تكوينها الداخلي من خلال بناء الانسان الفرد ثم بناء الاسرة وصولا الى بناء الجماعة التي لا يكون فيها الفرد نتاجا ولا ظاهرة ولا ترسا في الآلة.

فقد حرص الاسلام على بناء الانسان الممتاز بتربيته وتكوينه من خلال الصلاة والصوم والزكاة وطاعة الله ورسم القرآن أروع صورة لهذا النموذج، ثم جاء رسول الله ﷺ بمثابة الأسوة الحسنة والقدوة العليا في مجال بناء الفرد المسلم.

غير أن الاسلام لم يذهب مذهب الفردية المغرقة، كما أنه لم يذهب مذهب الجماعية التي يفنى فيها الفرد في المجتمع، بل وازن بين الفردية والجماعية وربط بينهما برباط وثيق ودفعهما الى هدف واضح في ضوء كلمة الله وعلى طريقة والى الهدف الذي رسمه تبارك وتعالى للإنسان في هذه الحياة.

(11)

وأقام الإسلام «منهج التكامل» : تكامل العقل والروح بين الدنيا والآخرة. فالإنسان روح وجسد ولا يمكن تفسيره من جانب واحد، كما لا يفسر تفسيرا أساسه الطعام والجنس، وإذا كانت المناهج الوافدة قد نقلت لنا نظريات دوركايم في الجبر المطلق وطحن الفرد في نطاق الجماعة،

ونقلت لنا نظريات فرويد في اعتبار الجنس أساس تصرف الفرد ، فلماذا لم تعن بأن تنقل لنا الوجه الآخر. هذا مفهوم الفيلسوف في الانسان وهو مفهوم يقوم على أساس الافتراض والتجارب التي أجريت على المرضى لا على الأصحاء.

فلماذا لم ينقل لنا مفهوم الطبيب في الإنسان: في مثل رأي اليكسي كاريل الذي يقول: «الانسان كل لا يتجزأ وهو في غاية التعقيد ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له. وليس هناك طريقة لفهمه في مجموعه. أو في أجزائه. في وقت واحد. كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي. وانه لكي نحلل أنفسنا فنحن في حاجة الى الاستعانة بفنون مختلفة وإلى استخدام علوم عديدة ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم الى رأي مختلف في غايتها المشتركة فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط وبعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها الى بعض فإنها تبقى أقل عناء من الحقيقة الصلبة».

وإذا كان هذا القول صحيحا وهو صحيح، فكيف يستطيع دور كايم وماركس وريتان وأوغست كونت وفرويد وغيرهم أن يقرروا مصير الانسان وهم لا يملكون أي أداة من أدوات هذا البحث غير (منطق الفلسفة المادية) الذي ينكر جوانب الإنسان الروحية والنفسية ويرده جميعا الى التفسير البيولوجي أو المادي أو الجنسي.

ويحاول أن يقدم لنا اليكسي كاريل بعض مواصفات هذا الانسان الذي تحاول أن تحكمه الفلسفة وتسيطر عليه الايدلوجية التلمودية بجبريتها وماديتها فيقول:

إن الانسان هو أشياء كثيرة:

أولا : هو الجثة التي شرحها البيولوجيون علماء الحياة.

ثانيا : هو الشعور الذي لاحظه علماء النفس وكبار معلمي الحياة الروحية.

ثالثا : هو الشخصية التي أظهر التأمل الباطني لكل إنسان انها كامنة في أعماق ذاته.

رابعا : هو المواد الكيماوية التي تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا.

خامسا : تلك الجمهرة المدهشة من الخلايا والعصارات المغذية.

سادسا : ذلك المركب من الأنسجة والشعور.

ثم يقول: إن التشريح والكيمياء والفسيولوجيا وعلم النفس والبيداجوجيا (علم التربية) والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي: كلها لا تلم بجوانب موضوع الانسان».

فإذا كان الإنسان على هذا النحو في مفهوم العلم، فلماذا تحاول الفلسفة أن تزيف الحقائق وأن تصور الانسان على أنه مادة فقط وعلى أنه حيوان وتحاول أن تحاكمه على أنه رغبة جنس أو لقمة عيش بينما هو كل هذا الكيان الضخم المتكامل الجامع الذي لا يستطيع العلم أن يلم به.

وهذه الحقائق التي تجمع بين الناحية المادية والناحية الروحية في الإنسان والتي لم يصل العلم اليها بعد، قد قررها الإسلام وكشف عنها منذ أربعة عشر قرنا حتى لقد لفتت أنظار كل الذين دخلوا في الإسلام من أصحاب الأديان الأخرى.

° ° °

(12)

ومن هنا فإن النظرة التي تقدمها (العلوم الاجتماعية) للإنسان على أنه جسد ومادة، ومحاولة تطبيق مناهج العلوم المادية أو النظريات التي طبقت على الحيوان عليه تجعل الباحث عاجزا عن الوصول الى الحقيقة.

فالعقل البشري ليس قادرا قدرة كاملة على معرفة كل شيء: وقدرته محدودة بعالم المحسوس، ولذلك فإنه لا بد من علم آخر لمعرفة عالم الغيب، هذا العلم هو اللوحي الذي جاء برسالات السماء، ونظرة الاسلام وهو

خاتم الأديان. هي النظرة المتكاملة الجامعة وقد قطع الاسلام بالرأي في كل الشبهات التي أثارها الفكري البشري من خلال رسالات الأديان ليدحض بها الحق ويدفع البشرية إلى أهوائها.

قطع الإسلام بالقول بخطإ التعارض بين الروح والجسد وأبان عن تكاملها وعن التوازن القائم بينهما، وأنكر النظريتين اللتين ذهبت أحداهما: إلى احتقار الجسد وإهمال الحياة المادية، والثانية: التي ذهبت الى تقديس الجسد وإهمال الحياة الروحية.

وفي مفهوم الإسلام أن الجسد ليس سجنا للروح وليس إطلاق الجسد هو مفهوم حريته، بل ان الروح والجسد كلاهما مرتبط في الانسان في اتجاه واحد، ولا ريب ان الهدف من الإلحاح على هذه النظرية الباطلة هو تدمير الانسان بإقامة التصارب في داخله وخلق الصراع في أعماقه ولن يكون هذا المفهوم سائغا إلا عند الماديين الذين أنكروا الروح إنكارا تاما.

لقد أعطى الإسلام أهمية كبرى للقوة المادية التي أهملتها بعض الأديان وقللت من شأنها وأنكر على التخل التي تجرم على أهلها اقتناء المال وتحثهم على اعتزال الناس وأبان كيف أنها بذلك قد سلبتهم واقع الحياة ووسيلة القوة وعوقتهم عن مكارم الأخلاق.

وفي نفس الوقت أعطى أهمية لجانب الروح وترقيتها وكشف عن جوهر مفهومه الواضح (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) وبذلك أعلن ان القوة مادية وروحية ليست شرا أو خيرا في ذاتها بل في طريقة استعمال الانسان لها ويتحدد أثرها بالهدف الذي تستخدمه وهو هدف وحيد يرمي الى اسعاد الناس وتقدمهم وليس اتعباد الناس واشقائهم.

وأعلن الإسلام أن التكاليف هدفها تقوية الإرادة وتربية العزيمة وكبح جماح الغزيرة.

وقد أوجز الإسلام ذلك كله في كلمات قليلة: هي أن للإنسان رسالة في هذه الحياة وإدارته العمل وهدف العمل عمارة الأرض وحدود العمل:

التقوى بحيث يكون العمل عمل المستخلف لا المالك وأن يكون العمل كله لحساب الله تعالى.

(13)

ولما كان الانسان واقعا تحت خطر إطلاق العنان

ولما كان الإنسان واقعا تحت خطر إطلاق العنان لنزواته ورغباته فقد جاءت الشريعة لتضع الضوابط التي تحول بينه وبين تحطيم نفسه وتحول بينه وبين الاعتداء على حقوق الآخرين.

ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى ضبط الرغبات وردها الى الاعتدال وإدارتها داخل إطار مشروع.

وقد وصل الى هذا المعنى كثير ممن فهموا الاسلام وبحثوه من غير العرب. يقول ليوبولد فايس الذي أسلم بعد أن كان يهوديا وتسمى باسم (محمد أسد):

«نجد الاسلام وحده من بين الأديان يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا الى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة، ذلك أنه ليس في الاسلام خطيئة أصلية موروثة وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية. إن كل مسلم رهين بما يكسب، والاسلام ينظر الى الحياة في هدوء واحترام ولكنه لا يعبدها، ان النجاح المادي مرغوب فيه ولكن ليس غاية في نفسه، بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل والغاية من جميع نشاطنا العملي أن يكون خلقيا».

(14)

إن محاولة القول بأن الانسان أصبح راشدا وليس في حاجة الى توجيه الهي هو من الآراء الزائفة والشبهات الباطلة. ذلك أنه إذا كان

الانسان في حاجة الى هذا التوجيه في القديم فما الذي جد عليه من معطيات جعلته مستغنيا عن ذلك التوجيه في الحاضر. هل هي معطيات العلم المادي والتكنولوجيا وهي في مجموعها لا تتصل بالنفس الانسانية بل لعلها قد أقامت حجابا إزداد كثافة حول مفاهيم الإيمان والروح.

إن الحقيقة التي لا شبهة فيها هي: ان الانسان في حاجة دائمة الى توجيه الهي، وان طبيعته قائمة على هذا الأساس، وهي طبيعة لا تتخلف، فالانسان خلق هلوعا اذا مسه ضر لجأ الى الله فإذا خوله نعمة نسي وقال إنما أوتيته على علم وهذه الطبيعة ثابتة على هذا النحو لا تختلف فالطبيعة البشرية في حاجة دائمة الى موقظ وهو القرآن. وان علاج الطبيعة الانسانية وتقويمها لا يتحقق الا بالإيمان بالله ودوام الاتصال به.

إن اعتماد الانسان على العقل البشري ليس كاف وحده لا في تقديم المعرفة الحقة ولا في بناء اليقين والطمأنينة النفسية، ان هناك أداة أخرى الى جوار العقل هي جماع الايمان بالله وعالم الغيب واليوم الآخر والمسؤولية الفردية والجزاء، ولما كانت العين وهي جهاو الابصار لا تعطينا كل المعلومات، كذلك فإن العقل لا يستطيع أن يعطينا الصورة الكاملة إلا إذا دعم بالوحي.

والإنسان في حاجة الى أن يعرف مهمته في هذه الحياة ورسالته وأمانته، وانه خلق لمسؤولية كبرى خلال فترة من الزمن من بين برزخين: برزخ العدم وبرزخ الموت، وأن هذه الحياة لا يمكن أن تكون نهائية الأشياء لأنها لم تستكمل بعد عملية المحاكمة والمواجهة والتصحيح ولم يتم بعد تقديم الحلول النهائية للقضايا المتشابكة التي أثارها الطواغيت حين حاولوا أن يخدعوا الناس بتفسيرات وإجابات ومناهج تتعارض مع مفهوم الدين الحق. ولا بد لصاحب هذا الدين أن يبين للناس حقيقة ما فسروا وما عملوا وما أخطأوا وذلك كله يقتضي بالضرورة. إعادة الناس الى الحياة، وكشف الحقائق أمامهم كاملة وتقرير جزائهم وثوابهم وعقابهم في يوم الفصل الذي تشيب لهوله الولدان.

إن بناء الإنسان هو من أعظم معطيات الإسلام: من حيث تكريمه وترقيته ودفعه الى تحقيق الرسالة المنوطة به وتذليل العقبات في طريقه، والنظرة الاسلامية الى الانسان نظرة شاملة جامعة، لا يغيرها اختلاف دينه أو لونه أو جنسه أو وضعه في المجتمع.

وقد أقر الإسلام للإنسان حق الحياة فالله هو الذي وهب الحياة للإنسان فمن حق كل فرد أن يعيش ويستمتع بحياته بغير خطر يهدده. وليس من حق الانسان إنهاء حياته فانهاء الحياة يجب ألا يكون إلا لله وحرّم الإسلام في هذا قتل النفس وقتل الأبناء خشية الفقر ووأد البنات خوفا من العار (حسب مفاهيم الجاهلية) وأكد أنه تبارك وتعالى يرزق الأبناء والأباء وكذلك كرم المرأة ووضعها في صف الرجل وأنكر الاهتمام البالغ بالأولاد دون البنات.

وأعطى الإسلام الإنسان حق الحرية وجعله مرتبطا بحق الحياة.

وجعل للإنسان حقه في إرادته وتصرفاته حيث لا تناقض بين القول بحرية الانسان في الاختيار والفعل وبين القدرة الإلهية وإرادة الله، كما حرّم المثلة بالانسان عند قتله. ولم يأذن بعقوبة الاعدام للانسان إلا في جريمة واحدة هي جريمة القتل العمد ومع ذلك فقد جعل القرآن لولي المقتول سلطانا فلا يسرف في القتل بينما كانت عقوبة الاعدام في حكم البشرية، ان نزول الإسلام تنزل لجملة أسباب منها السرقة والزنا والكذب.

وأنكر الإسلام المثلة ولو بالكلب العقور.

وأعطى الإسلام للانسان حق الاعتقاد والحرية بأنواعها العلمية والسياسية والمدنية والاجتماعية. وقرر حق المساواة على نحو ما تعرفه الحضارات السابقة له.

تقول ماسينون: «ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة فللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها

وليس في مجتمع آخر مثل ما للإسلام من ماض كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة والحقوق والواجبات». والمساواة في الإسلام مبدأ أساسي وحق طبيعي للانسان لا نزاع فيه وهو مردود في الإسلام إلى فكرة الخلق.

فالله هو الذي خلق الناس جميعا ومن ثم فهم جميعا سواء بالنسبة لله لا فرق بين أحد منهم الا بالعمل الصالح والتقوى.

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وهذا المعنى الذي أوضحه الرسول في قوله: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، وكلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي أو لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر من فضل إلا بالتقوى».

يقول إقبال: إن الإسلام حطم أصنام الدم واللون والجنس.

ويقول (دين انج) استطاع الاسلام التغلب على التعصب الجنسي بدرجة لم يبلغها أي دين آخر أو عقيدة أخرى.

ويقول توينبي : إن إخماد جذوة التعصب الجنسي والنعرة العنصرية بين المسلمين هي من أهم منجزات الإسلام الحضارية.

ولا ريب أن مقررات لوك ورسو وميل وكندرسيه وجيفرسون والاعلام العالمي لحقوق الانسان كلها استمدت مضامينها من معطيات الاسلام، غير ان مفهوم الاسلام لحرية الانسان قد صيغ في إطار محكم، ولم تستطع الفلسفات السياسية والاجتماعية أن تصل اليه أو أن تحققه، ذلك أن هذه الفلسفات لا تملك أن ترتفع الى معنى المساواة في الحقوق فيما أعطى الإسلام من حق العدالة: وهو مفهوم التسوية بين الناس جميعا أمام الله والقانون لا فرق بين حاكم ومحكوم وغني وفقير.

(فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله).

وفي هذا يقول الرسول الكريم: «إنما أهلك الذين من قبلكم انهم

كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

وهذا ما عجزت عنه المجتمعات الغربية وما تزال عنه عاجزة.

وإلى جانب ذلك أعطى الإسلام حق الإخاء وحق العلم وحق الملكية وحق العمل. وقد أقام الاسلام الى ذلك معطيات الرحمة والعفو والتسامح والبر والعفو والاحسان وجعل «الصبر» من أهم الفضائل الإيجابية التي تشد عزم الانسان أمام الشدائد والمصائب (وقد ذكر في القرآن أكثر من مائة مرة) ودعا الاسلام الى تزكية النفس: «**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**»، وجعل أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن ظلمك.

وجعل البر بالوالدين ملاك الأمر كله، وكذلك البر بالأهل وحرص على تأكيد حق الأم في حسن الصحبة.

ودعا الى الوفاء، والى رد التحية بأحسن منها ودعا الى الاستئذان في الدخول الى البيوت ويسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير وأكد حق الجار وحق الرحم.

وملاك الأمر كله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(16)

يقول دكتور أحمد فؤاد الأهواني: لقد كان الاسلام حريصا على تحقيق المصلحة العامة للمجتمع مع الاحتفاظ بفردية كل فرد في الوقت نفسه، والمحافظة على هذا التوازن.

ويضرب المثل بالعلاقة بين المجتمع والفرد بالجماعة الذين ركبوا سفينة في عرض البحر ثم همّ واحد منهم بخرقها فإن تركوه يعبث بالسفينة غرقوا وان وقفوا في سبيله انقذوا.

ومعنى هذا ان الفرد ليس حرا في أن يفعل ما يشاء ولكنه مقيد

فليست الفردية في الاسلام ملازمة للفوضى وإنما مقيدة بقيود شديدة.
وتتأكد فردية الانسان في ولادته وفي كسبه وعمله وفي موته وفي حسابه فالعبادات مفروضة على كل فرد على حدة، وكل فرد في شأن علاقته بالله له مسؤوليته وحريته وجزاؤه وكيانه الخاص، ويحاول الاسلام ألا يعزل الفرد عن غيره، بل يسعى الى تأكيد الصلة بين الأفراد بحيث تتلاشى الفردية وتسود النزعة الاجتماعية.

وتتجلى الفردية في المحراب والجماعية في الشارع، كما تتأكد في الزواج والأسرة والأهل، والاسلام يطالب الفرد بأن يؤثر غيره على نفسه، فالايثار نزعة إسلامية أصيلة. والاسلام دين إيثار لا أثره.
(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)
وقد أقام الإسلام علاقة الرحمة بين الأباء والأبناء وقيد تعدد الزوجات بالعدل بينهن.

وأقام الإسلام التوازن : بين الفرد والجماعة فجعل الفرد في خدمة الجماعة والجماعة في خدمة الفرد.

(17)

يقول الاستاذ محمد قطب: إن الطبيعة الانسانية ليست خيرا محضا ولا شرا محضا بل هي شيء خال من هذا وذاك وهي قابلة لأن تكون شريرة وأن تكوْن خيرة فقد خلق الله في الأنشان الاستعداد للخير والشر معا.

(وهديناه النجدين) و **(ونفس وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها)**.
وكل مولود يولد على الفطرة: أي ان الانسان يولد خاليا من أي اعتقاد أو أي مسلك، فأبواه هما اللذان يجعلانه يعتقد هذا أو ذاك ويسلك هذا المسلك الخير أو ذلك المسلك الشرير **(قد أفلح من زكاها. وقد أخاب من دساها)** والتزكية هي التربية التي تطبع الانسان بطابع الخير.

والطبيعة الانسانية مرنة قابلة للتشكيل باشكال مختلفة وتكوين عادات جديدة وإزالة عادات قديمة وسهولة ذلك وصعوبته يختلف حسب عمر الانسان وحسب قابليته وحسب نوع وأساليب التغير والتبديل.

ومن حقائق الطبيعة الانسانية الفروق الفردية بين الذكور والإناث من جهة وبين أفراد الجنس الآخر من جهة أخرى: وهي فروق في الإحساس والقدرات العقلية والميول.

والطبيعة الإنسانية جامعة (بيولوجية وسيكولوجية معا) أي مركبة من العنصرين المادي والنفسي والصلة بينهما وثيقة للغاية، فهي ليست شيئا واحدا ولكنها شيئان متلائمان ملتقيان يتبادلان التأثير والتأثر.

(18)

تقول الدكتورة بنت الشاطئ: إن أقسى ما يواجه البشر به اليوم وما يأزمها هو خروجها على الفطرة واندفاعها في التيار المضاد المعاكس لاتجاهها وهداها فكل ما نراه من غربة ومن تمزق ومن اضطراب فإنما يرجع مصدره الى هذا: **(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها)**. والقضية هي قضية الانسان والأمانة وهي تبعة التكليف وحرية الإرادة ومسؤولية الاختيار التي حملها الانسان تحقيقا لذاته وممارسة لخلافته في الأرض.

وقد أقر الإسلام حرية الانسان في الاعتقاد والتدين إلزاما له بمسؤولية اختياره. ترك الله للانسان أن يتحمل هذه المسؤولية وتبعاتها وقد تهيأت له وسائل التحضير والهدي: مادية ومعنوية.

وحرية الارادة هي عنصر جوهري من كل لا يجزأ: هو الحرية الكاملة للانسان وشرط التكليف الاختيار اذ كيف يتحمل الانسان الرشيد تبعة التكليف إذا فقد الاختيار الذي هو شرطه.

ومفهوم الارادة حين تكون من الله الخالق: حكما وقضاءاً.

ومفهوم الارادة حين تكون من المخلوقين: رغبة واختيارا وعزما.
الرغبة من الانسان والعزم من الله.
ومفهوم إرادة المخلوق غير مفهوم إرادة الخالق.

إرادتنا كسبية مصحوبة بعزم مسبوق برغبة وتفكير. وإنما تفهم إرادة الله في القرآن كله على أنها حكم نافذ وقضاء مبرم وليست كإرادتنا عزما على أمر أو سعيا وراء كراد فالعزم لنا وحدنا ما بقينا في الدنيا والارادة الكسبية إرادتنا وبهذه الإرادة الكسبية نختار لانفسنا ما نختار متحملين مسؤولية هذا الاختيار الحر. أما الإرادة الالهية فحكم نافذ ومصير محتوم وإذا كان الله سبحانه يحكم علينا بما نريد لانفسنا فليس ذلك الا تقريرا حاسما للتبعة وتأكيدا الهيا لحرية إرادتنا وإلزاما لنا بمسؤوليتها.

• • •

(19)

يقول الدكتور محمد البهى:

«ان الحرية الفردية المكتسبة التي يدعو اليها الاسلام، هي الحرية التي تجعل الانسان انسانا لا يسقط الى محل الحيوان، وليست الحرية هي أن يترك الانسان لغريزته يمارس شهواته. بل هي أن يتحرر من هواه فإذا تحرر من هواه كان قوله صدقا وكان رأيه حرا، فالحرية هي أن يرتفع بعقله عن هواه وعن شهواته».

(20)

إن الهدف الذي تقصد اليه مدرسة العلوم الاجتماعية هي حل عقدة الفكر الجامع للأمة بهدم الأسرة ومسخ الفردية وإقامة علاقة غير فطرية هي علاقة المجتمع من غير طريقه الطبيعي الذي قرره الاسلام وهو بناء

الانسان وحماية الفردية وبناء الأسرة وتعزيز قاعدتها الصلبة وصولا الى بناء المجتمع نفسه.

هذا الهدف هو أن يتحرر كل فرد عن روابط الجماعة والعقيدة والأسرة جميعا ويذهب منطلقا بغير حدود، له مثله، وفكره، وطريقته، وفهمه، وبذلك تتحطم الفكرة الجامعة التي أقامتها وحدة العقيدة والأخلاق والثقافة من خلال الأسرة.

ومن هنا يصبح كل انسان وله مذهب ودعوة ونحلةومنهج وطريق. وبذلك يتحطم بناء الجماعة أساسا وينفصل عن قاعدته الأصلية. ان الهدف هو حل رابطة وحدة الفكر الجامعة ووحدة الجماعة القائمة على بناء الأسرة.

وفي هذا يقول أريك فروم في كتابه أزمة الانسان الحديث. ان الأزمة هي الانفصال داخل الذات، وأن الانسان لا يستطيع أن يحقق ذاته الا اذا بقي متصلا بحقائق وجوده الأساسية.

ذلك أن الفصل بين المرء وعمله ونفسه، يوجد المثل مما يؤدي الى الانتحار أحيانا حتى يتخفف المنتحر من أعباء الحياة.

(21)

إن سؤال الانسان وقد وصل العلم الى قمة معطياته:

ماذا أمكن أن يقدم العلم للسلام النفسي للانسان، للطمأنينة، لليقين، للثقة؟ فلا يجد شيئا انما يجد كل ما أمامه وكأنه عوامل لهدم عقدة المادية والمعنوية الأصيلة في كيانه.

إن الاستعلاء المادي فكرا وحضارة قد صدع النفس الانسانية وفرق كيان الانسان وأنشأ عقدة إنفصام في الشخصية.

ولقد عجز العلم عن حل هذه المشكلة وعجزت الفلسفة التي تسوق البشرية تحت اسم «العلوم الاجتماعية» الى التدمير الكامل.

إن الدين والدين الحق وحده هو الضوء الكاشف للنفس الانسانية وهذا لن تجده البشرية الا في الاسلام، أما كل هذه المحاولات التي ترمي الى احلال بديل للدين من أيدلوجيات وفلسفات فسوف تعجز، وسوف تحطم النفس البشرية وتمزقها.

لقد وصل الانسان بعد التجربة المريرة وبعد أن اكتشف من أسرار الكون ما أكتشف الى حقيقة خطيرة وأليمة ومرة: هو أنه لا يستطيع أن يعيش في فراغ من العقيدة وكل النظم مهددة بالخطر إذا ظلت تتجاهل الحقيقة: ان الخطر كله في كلمة واحدة زائفة شديدة الزيف هي المادية وأن الحقيقة كلها هي كلمة واحدة صادقة مضيئة أن الانسان ليس مادة فحسب.

ولقد جاء الاسلام ليحمي النفس الانسانية من التمزق وتحفظ شخصية الانسان من الخروج عن الفطرة.

إن حاجة الانسان الروحية لم تشبع بعد أشبعت حاجته المادية على نحو طغى على كل شيء، ليست حاجة الانسان هي الطعام والجنس وحدهما ، ان للنفس الانسانية بفطرتها وبطبيعة تركيبها أشواق روحية حطمتها الفلسفة ومفاهيم العلوم الاجتماعية وسحقتها ودمرتها تدميرا.

إن الانسان في كل زمان ومكان في حاجة الى ذلك الضوء الكاشف الذي يحميه ويحول بينه وبين تدمير نفسه والتردي في مهاوي الشقاء، ذلك هو نور الله الذي جاء عن طريق الدين الحق: الذي يوائم له بين جسمه ونفسه، بين ماديته وروحه، والذي يضع له الضوابط في الأساس والاطار في الحركة والشريعة المثلى بما يدفعه الى الامام ثم يقوم حارسا له حتى لا يطغى ولا يستبد ولا يظلم ولا يفسد طبيعته.

وذلك كله هو عطاء الدين. الدين الحق، عطاء الإسلام.

° ° °

الفصل الثاني

الالتزام الأخلاقي في مواجهة نظرية نسبية الأخلاق

(1)

نحن المسلمون نؤمن أساسا بأن الدين فطرة وأن الأخلاق شريحة من شرائح الدين وشرعه من شرائعه تقوم به وتستمد منه ولا تنفصل عنه وهي من الأصول الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان.

والأخلاق على هذا النحو تختلف عن العادات والتقاليد التي هي من صنع المجتمع نفسه. فالأخلاق ثابتة مرتبطة بالانسان نفسه وبفطرته التي فطره الله عليها والتي لا تتبدل ولا تتغير، والعادات والتقاليد متغيرة لأنها من صنع المجتمع نفسه والتي قد تكون مضادة لمفهوم الدين نفسه أو معارضة له، فضلا عن جمودها بمرور الأزمان وفسادها وتخلفها عن روح العصر.

ولما كان الاسلام وهو الدين الحق الذي قام على دعائم العقيدة والشريعة والأخلاق دون فصل بينها قد أقام منهجا أخلاقيا لبناء الانسان فإنه قد عمد الى أحكام هذا المنهج على النحو الذي جعله مرنا واسع الأفق قابلا لضرورات التغير والتحول والتطور التي تتأثر بها المجتمعات ولم يجعله جامدا ولا مناهضا للطبيعة البشرية أو معارضا للفطرة الانسانية، غير أنه في كل الأحوال ربط هذا المنهج بالانسان فجعل له طابع الثبات ولم يربطه بالعصور أو البيئات حتى لا يتحول مع الأهواء وتتصدع قوائمه إزاء الأحداث.

ومن هنا فإن الفرق بين مفهوم الأخلاق في الإسلام. ومفهومها في الفكر الغربي يرجع الى نقطة واحدة: هي وجود أو إنكار الدين المنزل من عند الله على البشرية بالتزاماته وضوابطه ومفاهيمه. ومن هذه النقطة باذات يقع الخلاف بين المنهجين: المنهج الإسلامي والمنهج الغربي. أما المنهج الاسلامي فهو قائم أساسا على عناصر الثبات الواسعة المرنة القادرة على استعاب تغيرات المجتمعات والعصور والتجاوب معها دون أن تتعارض إلا في الأصول العامة التي هي مرتبطة بالانسان نفسه وبالحدود والضوابط الأساسية التي لا سبيل إلى تجاوزها. وفي مقدمتها قاعدة «الالزام الأساسية» أما المنهج الغربي الذي يطرح نفسه بقوة في أفق الفكر الاسلامي من خلال مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية والنفسية وغيرها فإنه يقوم على أساس المشيئة الخاصة بالقبول أو الرفض للالتزام الخلقي. أما الاسلام فإنه يلزم بهذه المسؤولية ويقيم قاعدته الأخلاقية عليها أساسا ولا يقبل أي محاولة للتفسير أو التأويل فيها:

1 ـ ترابط كامل بين الأخلاق وأصول الدين . فالدين أصل والأخلاق فرع.

2 ـ ثبات القيم الأخلاقية الأساسية مرتبطة أساسا بالانسان والفطرة البشرية.

3 ـ الالزام.

وفي ضوء هذه الأصول يواجه الفكر الاسلامي مفاهيم الأخلاق التي يطرحها الفكر الغربي، وخاصة آخر تطوراتها المتمثلة في مدرسة العلوم الاجتماعية التي تختلف أساسا في النقاط التالية:

أولا : المفهوم المادي القائم على إنكار الوحي والنبوة وربانية القيم الأخلاقية.

ثانيا : نسبية الأخلاق وتغيرها من زمن الى زمن.

ثالثا: اختيارية العمل بالقيم الأخلاقية دون الالتزام الكامل بها فالخلاف هنا واضح وظاهر: ثبات في مواجهة نسبية، والتزام في مواجهة

اختيار ، وترابط بين الأخلاق والدين في مواجهة انفصال بين الدين والأخلاق.

° ° °

(2)

عندما انفصل الفكر الأوروبي عن (المسيحية) بمفهومها الغربي أقام منهجا أخلاقيا مستقلا عن الدين وقد اعتبر في أول أمره فرع من الفلسفة يبحث في المقاييس التي يميز بها بين الخير والشر في سلوك الانسان.

واصطلح على أن مفهوم الأخلاق هو دراسة الخير الأقصى والأسمى للإنسان باعتباره غاية لذاته، وسمي القانون الخلقي بالواجب وتضمن هذا العلم البحث في مقومات الخير والشر والفضيلة والرذيلة.

ولما ظهر مذهب التطور تأثرت به جميع الدراسات والأبحاث الاجتماعية والأخلاقية والنفسية. ولما كان التطوير هو مجرد نظرية بيلوجية فان بعض الفلاسفة افترض انسحابها على الأبحاث الانسانية وسيطر على الفكر الغربي منذ ذلك الوقت القول بأن كل شيء يتطور ولا يوجد شيء ثابت.

ثم كانت تلك الحملة على الأخلاق المسيحية ووصفها بأنها أخلاق الضعف أو أخلاق العبيد. وكان من رأى نيتشه أن الفلسفة المسيحية متضافرة الى اقتلاع الحياة من جذورها واحلال إرادة (إماتة الحياة) محل إرادة الحياة. ومن هنا كانت مقاومة نيتشة للمبادئ الأخلاقية الزاهدة الداعية الى الهرب من الحياة. والدعوة الى أخلاق الأقوياء التي هي أخلاق السيادة. هذه الأخلاق التي لا تعرف الرحمة بالضعفاء والتي تقضي باستئصالهم من المجتمع وبقاء الأقوياء. ومن خلال كل هذه التيارات جرت الدعوة الى تحرير الأخلاق من تبعيتها للدين أو على الأقل أبعادها عما

يتصل بتعاليم الكنيسة[1] ، ويرى بعض الباحثين أن الدعاة الجدد لم يفعلوا أكثر من استبدال تبعية بتبعية أخرى فقد حطموا اللاهوت كأساس للأخلاق وأقاموا بدلا منه أساسا جديدا هو علم الحياة (أي التطور البيولوجي).

ولا ريب ان هذا المفهوم كله متصل أساسا بالفكر الغربي وبالتحديات التي فرضتها عليه أرضيته الفكرية الأغريقية الوثنية في تقابلها مع تفسيرات المسيحية على النحو الذي وصل اليها والذي بدت فيه الصورة الدينية أو الأخلاقية قائمة على أساس الانسحاب من الحياة والى استشراء الزهادة الرهبانية ونقض اليد من العمل ومن تحقيق إرادة الله في الأرض بالعمارة والبناء.

ولعل هذا يرجع الى خطأ تفسيرات الشراح للمسيحية بالإضافة الى العجز عن تقدير مكان الرسالة التي أنزلت على السيد المسيح وهي رسالة مكملة لرسالة سيدنا موسى وليست منفصلة عنها ولذلك فانها كانت في مجموعها جملة من الوصايا التي استهدفت تصحيح خطأ وتحرير الدين الموسوي فيما يتعلق باستعلاء الجانب المادي والعمل على إعادة الطابع الروحي المتكامل مع الجانب المادي أساسا الى مكانه الصحيح.

فلما انفصلت المسيحية واستقلت ووصفها رجالها الذين بشروا بها وعبروا بها ألى أوروبا بأنها ديانة عامة وعالمية وكاملة، ولم تستطع وهي ليست بذات شريعة أن تحقق ارضاء النفس البشرية فضلا عن تحول مفاهيمها الى لون من الجبرية الانسحابية من الحياة.

كل ذلك كان مصدر الصراع القوي بين الدين والعلم، أو بين رجال الدين ورجال العلم مما دفع العلم وهو المسيطر أن يقضي الدين نهائيا عن مجال التوجيه وأن يستحدث مفاهيم جديدة كالديانة البشرية التي دعا اليها أوجست كونت، ومن هنا كانت هناك الدعوة الملحة الى بناء فلسفة

---

(1) كتاب التطور ـ السيد محمد بدوي.

أخلاقية تقوم على أساس الواجب ولا تستمد مفاهيمها من الدين ـ أي الدين الغربي.

ومن هنا فقد قامت أزمة ضخمة في الفكر الغربي في هذا المجال فصلت بين الدين والأخلاق وأقامت للأخلاق منهجا خاصا خضع فيه لمفاهيم التطور والمفاهيم الأخلاقية الهلينية.

ولا ريب أن هذه القضية بجملتها غير واردة ولا مطروحة في أفق الفكر الإسلامي الذي استمد كيانه من الإسلام. الدين المتكامل الجامع للشريعة والعقيدة والأخلاق والقائم في ذلك كله على أرضية واسعة وإطار مرن وافق مفتوح وحيث لم يقع التصادم ولن يقع مطلقا بين العلم والدين أو الأخلاق والعقيدة.

ومن هنا فإن طرح القضية في أفق فكرنا لا يمثل الا مجرد دراسة تاريخية لحركة الأديان في العالم والفكر البشري.

وفي ظل هذا الاتجاه كانت فلسفة المنفعة تسيطر بشكل واضح على أفق الفكر الغربي وتصبغ كل شيء بلونها فلا تترك مجالا لمفاهيم الرحمة أو الانفاق أو التضحية بالنفس أو العطاء غير المقيد. ولم تلبث المنفعة أن أصبحت الغاية القصوى للأخلاق الغربية.

ومن هنا بدأت المعارك حول العلاقة بين الأخلاق في ظل التطور والأخلاق في ظل الدين وارتفعت الأصوات بأن القانون الأخلاقي في المسيحية يتعارض تماما مع القانون الأخلاقي الذي يفرضه التطور.

وعارض عدد من علماء التاريخ الطبيعي أن يكون التطور مصدرا للأخلاق وفي مقدمتهم : الدكتور ماتيوز الذي قال: انه لخطأ يفضي الى الى كارثة أن ندعي أن العلم الطبيعي يستطيع أن يحل مشكلة الأخلاق. وقال مثل ذلك الدكتور (آرثر كيث).

ولا ريب أن فكرة التطور عندما خرجت عن مفهومها البيلوجي الى المعنى الاجتماعي كانت في قبضة المفكرين اليهود ومن هنا قال أنصار المسيحية: ان هدف الانسان في الحياة أن يمجد الله ويتأمل حكمته. وقال

التطوريون اليهود: إذا كان هذا هو حقيقة الهدف النهائي أو الغاية القصوى فلماذا منح الانسان طبيعة لا تستطيع تحقيق هذا الغرض فما من جماعة انسانية انصرفت الى هذا الغرض وحده الا وتلاشت من على ظهر الأرض[1].

وعندنا أن عرض القضية على هذا النحو فيه مغالطة واضحة.

فليس مفهوم توجيه الحياة على النحو الذي رسمه الله بقاض على الجماعة الإنسانية بل هو مصدر بقائها أما تلاشي الجماعة فإنما يرجع الى إسرافها في الترف والإنحلال والإباحة وخروجها على منهج الله أما فهم تحقيق إرادة الله في الحياة على أنه هو الانسحاب من الحياة واعتزالها بالرهبانية فليس هو المفهوم الصحيح إن فناء الأمم مرتبط بالافساد في الأرض سواء بالانسحاب منها أو الاغراق في متاعها وهما جناحي الانحراف الذي حمت الأديان منه البشرية حتى لا تسقط وتنهار.

° ° °

وإذا كانت مفاهيم الأخلاق المسيحية لم تحقق إقامة المجتمع الانساني، فإن المفاهيم التي استحدثها التطوريون ستعجز عن تحقيق هذا المجتمع أيضا، وإذا كانت الرهبانية والانسحاب من المجتمع قد عجزت لانها معارضة للفطرة، فان هدم عنصر الثبات وقيام الأخلاق على مفهوم المنفعة وحده هو أيضا مما لا يتلاءم مع الطبيعة البشرية، وسوف يحول مرة أخرى دون قيام المجتمع الانساني.

أما الوسيلة الحقيقية فهي في التماس منهج الأخلاق القائم على الثبات والمرتبط بالعقيدة والمتمثل في الالتزام الأخلاقي واقرار مبدأ المسؤولية الفردية والجزاء.

---

(1) كتاب التطور ــ السيد محمد بدوي.

(3)

غير أن الأخلاق الغربية بعد أن انفصلت عن الدين لم تتوقف عند مفهوم الواجب أو المنفعة ولكنها خضعت للتطور مرحلة بعد مرحلة وضاع منها نهائيا عنصر الثبات فذهبت بعيدا وانفصلت تماما عن كل القيم التي تتصل ببناء الانسان وإقامة قاعدة الالتزام.

ذلـك أن هذه المرحلة التي أقامت علم الأخلاق على أنه علم معياري يبحث فيما يجب أن يكون السلوك الانساني وبحث مقومات الخير والشر وتحديد مبادئ الواجب، هذه المرحلة لم تلبث أن انتهت حين دخل علم الأخلاق في مضمون جديد وتفسير جديد بفضل مدرسة العلوم الاجتماعية وعلى رأسها دور كايم وليفي بريل. فقد رفضت هذه المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي سيطرت من بعد الفكر الغربي كله. رفضت القواعد التي ينبغي أن يستعملها الانسان في سلوكه وقالت ان علم الأخلاق هو مجرد دراسة تقريرية للعادات والطباع والأخلاق السائدة في المجتمع.

وبذلك قضى نهائيا في محيط الفكر الغربي على فكرة التوجيه الخلقي أو وضع المثل الأعلى الأخلاقي أو إقامة تشريع القانون الخلقي.

ومن خلال هذه المدرسة جرى القول في تعميق معاني نسبية الأخلاق بالقول ان لكل شعب أخلاقه الخاصة. وأن هذه الأخلاق تحددها الظروف المعيشية، وأن هذه الأخلاق تتغير مع اختلاف الأزمان والبيئات.

ولما كانت مدرسة العلوم الاجتماعية مادية الأساس من حيث أنها لا تؤمن بالدين أو الوحي أو النبوات أو الكتب المنزلة فانها قد حاكمت التراث البشري كله على أنه من عمل الأفراد. ومن هنا فانها لم تستطع أن تفرق بين الأخلاق والعادات ونظرت الى كل مقومات المجتمع على أنها عادات وعرف وتقاليد وآداب عامة خاضعة للعصر ولظروف المجتمع وأنها قابلة للتغير والتحول والتطور بحيث لا يثبت منها شيء.

ويرد الباحثون مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية الى النظرية الماركسية والتفسير المادي للتاريخ استمداد من مفهوم التطور الاجتماعي كما رسم سبنسر، فالأخلاق في الفكر الغربي كله منذ انفصل عن مفهوم المسيحية مثل السياسة والقانون تتوقف على الظروف والأحوال وتتشكل في إطار المنفعة وتجري حسب عوامل التوسع الحضاري ومن هنا كان مفهوم الأخلاق مرتبطا دائما بنفوذ السياسة، وكان له معنى الإذلال والقهر والسيطرة في المستعمرات وله مفهوم العدل في أوروبا وكان ذلك استمدادا من مفهوم الامبراطورية الرومانية القديم (روما سادة ما حولها عبيد) ثم جاء التفسير الماركسي فجعل الأخلاق مرتبطة بالاقتصاد وظروف المعيشة ووسائل الانتاج.

ومعنى هذا عندهم أن الأخلاق من نتاج المجتمع نفسه.

وجاء (ليفي بريل) فانهى مهمة علم الأخلاق الغربي الذي تشكل خارجا عن نطاق الدين فقال ان مفهوم الأخلاق انما يعني دراسة ما هو كائن بينما كانت مهمة الأخلاق التقليدية هي ما ينبغي أن يكون.

وهكذا قطع علم الأخلاق صلته بالتوجيه والعمل في داخل كيان المجتمع واكتفى برصد الوقائع ودراسة الظواهر من خلال الواقع.

ويرد ليفي بريل في كتابه (الأخلاق وعلم العادات) القيم الأخلاقية كلها الى علم العادات مع الفارق البعيد بين العادات والأخلاق من حيث أن الأخلاق جاءت بها الأديان المنزلة لضبط معايير المجتمعات وعلاقات الأفراد؛ أما العادات فهي من نتاج الشعوب. ولذلك فنحن في الفكر الإسلامي نفرق بين الأخلاق والعادات تفريقا واضحا عميقا، ونحرص على ألا تطغى العادات على الأخلاق ومعنى هذا الاتجاه الجديد لمدرسة العلوم الاجتماعية هو إلغاء القانون الأخلاقي كلية واطلاق المجتمعات من كل قيود الضبط والتوجيه بينما يقوم الفكر الإسلامي على أساس واضح هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوة كل إنسان للإنسان الاخر على

أساس المكاشفة والتناصح واهداء العيوب، كما يحرص الإسلام دائما على مراجعة العادات والتقاليد، وفحصها ورد ما يخالف منها طابع الفطرة أو يعارض ضوابط المجتمع أو تتناقض مع القيم الأخلاقية الثابتة.

ولا ريب أن اتجاه مذهب العلوم الاجتماعية في الأخلاق يهدف أساسا الى القضاء على قاعدتي الثبات والالتزام من حيث دعوته الى تمييز القيم الحسية وإحلالها مكان الصدارة، وهو ما يتعارض مع غاية الأخلاق في المفهوم العام الذي يهدف الى «اعلاء القيم التي تسمو على عالم الحس» اي القيم الروحية وهي غالبا ما تتعارض مع القيم الحسية.

ويرى بعض الباحثين أن الأخلاق في نظر العلم الوضعي تصنف في دراسة علم الإنسان وعلم الإنسان يقوم أساسا على أمين لا ثالث لهما: البيولوجيا وعلم الاجتماع ومن هنا فإن الدائرة المادية المغلقة تحول دون الاعتراف بالقيم المطلقة كالألوهية والشرائع والضوابط وتطلق للنفس الانسانية أسباب التصرف دون النظر الى قيد من القيود أو ضابط من الضوابط. ومعنى هذا في النهاية هو محاولة تأسيس الأخلاق على القواعد البيولوجية الصرفة.

ويجري هذا الاتجاه كله في نطاق المذهب المادي الذي ينظر الى الانسان كما هو كائن بالفعل لا كما يجب ان يكون وهو مفهوم في جملة يفتح الباب واسعا أمام حرية التصرف في مواجهة الشهوات والرغبات والعواطف دون النظر الى مدى الأخطار التي تترتب عليها بالنسبة للكيان البشري نفسه أو بالنسبة للمجتمع بصفة عامة.

ويحاول دوركايم أن يجعل المجتمع هو القوة العليا التي تلزم الفرد أخلاقيا والتي رسم له المثال الأعلى الذي يتوق الى تحقيقه ويرمي هذا الى اقرار مفهوم نسبية الأخلاق في مجتمع معين في عصر معين دونما تكون هذه الأخلاق ثابتة وعامة ومرتبطة بالإنسان نفسه.

وقد عارضت مدرسة العلوم الاجتماعية من خلال تفسيرها الذي قام على وضع فروض مسبقة مع البحث عن وقائع فردية واعطائها صفة

العموم للوصول الى اهدار الحقائق الفطرية الأساسية التي لم تتخلف خلال عصور البشرية المتوالية والتي قامت عليها سنن المجتمعات وقوانين بناء الانسان.

أولى هذه الحقائق التي تعارضها مدرسة العلوم الاجتماعية وتعمل على هدمها: إن الطبيعة البشرية في جذورها وأطرها ومضامينها وهدفها لم تتغير بتغير الزمان والمكان.

وإذا كانت الأديان قد أعلنت هذه الحقيقة فإن مجرى التاريخ نفسه قد أكدها ولم يعارضها، بل أن الفلسفات العقلية لم تجاوزها ولم تعارضها وفي ذلك يقول ديكارت: ان جميع أفراد الجنس البشري توجد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة وإن الاختلاف بالزيادة والنقصان لا يكون إلا في الصفات العرضية أما الصفات الجوهرية أو الطبيعية للأفراد فانها ثابتة.

ولا ريب أن الحضارات المتوالية ووقائع التاريخ تجري في هذا الاتجاه ولا تنقصه ولقد وجدت مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية وفروض ليفي بريل ودور كايم معارضة وردا ووجهت بوقائع حاسمة تكشف زيفها وبطلانها وترد ما حاولت الاعتماد عليه في اقرار قواعد بشرية عامة على نصوص لم تثبت تماما أو حفريات غامضة أو ملتقطات أريد بها التدليل على فكرة مسبقة.

(4)

ان ميدان الصراع في مفاهيم الأخلاق إنما يتحرك في أفق الفكر الغربي بين ثلاث اتجاهات :

أولها : الأخلاق المسيحية التقليدية.

ثانيها: المدرسة الفلسفية المثالية.

ثالثها: مدرسة المنهج الاجتماعي.

ولا ريب أن المناهج الثلاثة هي أطوار ثلاثة للتحول في نطاق التغيير

المتصل الذي أصبح يحكم الفكر الغربي ويسيطر عليه بعد اسقاطه لكل المقومات الثابتة وبعد خضوعه للانشطارية بين الدين والخلق وبين العلم والدين. وهو اتجاه طبيعي لتحول متصل لا يتوقف وسيظل خاضعا للتغيير والتحول بعد أن انفصل عن القاعدة الأساسية الثابتة وأصبح لا وجهة محددة له.

وهذا هو خطر الانطلاق بعيدا عن قاعدة الثبات التي عرفها الفكر الإسلامي واتخذها ركيزة أساسية ينطلق منها ويرجع اليها ويلتمس دائما مفهومها ويصحح نفسه كلما فسد أو انحرف بالعودة الى المنابع الأولى التي هي ليست من صنع البشر وانما هي من صياغة صانع البشرية.

والمعروف انه لا حد يمكن أن يقف عنده أي تحرك ما دام قد انفصل عن قاعدة ثابتة وأصبح يخضع للتطور وللنسبية وللتغيير الدائم المتصل الذي لا نهاية له.

ولا ريب أن مصدر الاضطراب كله هو اعتماد الفلسفة على مفهوم خاطئ من أساسه يقوم على النظر الى العلم على أنه الوسيلة المشروعة للمعرفة الانسانية ولربما كان هذا هو الرأي السائد في مرحلة متقدمة ولكن التجارب المتصلة واتساع آفاق البحث كشفت عن أشياء جديدة حدت من غرور العلم عندما اعترف العلماء بأنهم يقفون عند تفسير ظواهر الأشياء وعندما فصل المفكرون بين منهجين من مناهج المعرفة: منهج العلم التجريبي ومنهج العلوم الانسانية. بعد أن تبين عجز منهج العلم التجريبي عن الاستقصاء والاحاطة بمفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق وعدم إمكان خضوعها للمقاييس المادية التي تقام داخل المعامل.

ومن هنا فإن موقف الفلسفة من العلم يبدو في هذه المرحلة غير علمي وغير منطقي، فحيث اعلن العلم عجزه وقصوره ووقوفه عند حدود التجريب في مجال المادة، نجد الفلسفة ما تزال مندفعة في خطها المادي الصرف غير مبالية بأن للنفس الانسانية جوانب أخرى أو أبعادا أخرى تتجاوز الجسم والمادة.

غير أننا إذا لاحظنا أن هذه التطورات كلها تجري في نطاق مجموعة العلماء اليهود استطعنا أن نفهم المخطط والهدف إذا ما استقصينا خطط بروتوكولات صهيون وما تحمله من دعوة الى تدمير القيم الانسانية جميعا ودفع البشرية كلها إلى أنياب الجنس والمادة والذهب والربا.

وفي ضوء هذا نجد الفلسفات والمذاهب الاجتماعية تتقاصر عن بناء الانسان ودفعه الى آفاق المثل الأعلى وتعجز عن تحقيق أشواقه الروحية في نفس الوقت الذي تدفعه الى الإغراق في الجانب المادي والاندفاع فيه الى آخر المدى. وذلك حين تنظر هذه الفلسفات الى الانسان كما هو كائن بالفعل لا كما يجب أن يكون ولا ريب أن هذه الفكرة الجريئة قد «أزعجت كثيرا من العقول التي رأت فيها انحدارا نحو نفس الأخلاق برمتها[1]» ويرد الباحثون ذلك الى أثر المذاهب التطورية والبيولوجية في الجنوح نحو الغلو والشطط في موقفها من الأخلاق.

وهكذا نجد دوركايم متابعا لأوجست كنت ونجد هذا مستمدا من سبنسر ثم نجد ليفي بريل امتداداً لدوركايم في حلقات متصلة على خط واحد وقد استغلت اليهودية التلمودية هذا الفكر في تدعيم هدفها الأساسي سواء باحتضان الفكر أو بتوجيه الفلاسفة أنفسهم. وكل هذا الاتجاه يهدف الى انكار إرادة الفرد وتصويره بصورة الجبر المطلق الخاضع للمجتمع وفي ذلك إلغاء للمسؤولية الفردية التي هي مناط الجزاء الأخروي وعقيدة الغيب. وكل هذه المحاولات في مجموعها تهدف الى هدم القيم التي أرستها الأديان في المجتمع البشري وتحطيمها سواء أكان ذلك عن طريق القول بنسبية الأخلاق أو التشكيك في وحدة الجنس البشري وثبات صفاته النفسية والخلقية أو إنكار الالتزام الأخلاقي أو المسؤولية الفردية مما يدور حوله كل ما قدمه ليفي بريل ودوركايم وهو ما حمله لنا أتباعهم وأولياؤهم ممن كتبوا باللغة العربية وقد استتبع هذا المنهج الذي طرحته مدرسة العلوم الاجتماعية آثارا بعيدة المدى على بناء الانسان وعلى علاقاته

---

(1) السيد محمد بدوي من كتاب (التطور).

بالمجتمع والحياة وعلى مفاهيمه حول عالم الغيب والبعث والنشور وامتدت منها خيوط الى مفاهيم التربية والأدب والفن.

(5)

ومن أجل إلقاء أضواء كاشفة، ودراسة ابعاد قضية الأخلاق التي واجهها الفكر الغربي ونقلت برمتها الى أفق الفكر الإسلامي دون عرض تطورها التاريخي نجد أنه من الضروري الكشف عن الخلفية القائمة وراء هذا الموقف.

وذلك أن التفسيرات التي كانت تقوم عليها المسيحية الغربية (وهي بالقطع مختلفة عن مفاهيم المسيحية المنزلة) قد أحدثت هذا الصراع بين رجال الدين والعلم، ودفعت رجال العلم وهم قادة الحركة الفكرية في إبان النهضة الى تجاوز الدين وفصل الأخلاق عن الدين.

وكان من وراء الحركة اليهودية التلمودية التي تريد أن تحطم القيود المفروضة على اليهود في أوروبا والتي تحول بينهم وبين المناصب السياسية والقيادية غير أن هذه الحركة في مجموعها وفي هدفها العميق الى احتواء الفكر الغربي المسيحي والسيطرة عليه كانت تحاول أن تستفيد من النظريات الفلسفية وتوجهها الى الغرض المبيت، ومن هنا فقد استغلت أساسا نظرية دارون وفسرتها على غير النحو الذي أراده ونقلتها من ميدان السيولوجيا الى ميدان الاجتماع، وكذلك استغلت نظرية ديكارت واستخدمتها سلاحا في محاربة الدين، واستفادت كذلك من مفاهيم نيتشه وحملته على الأخلاق المسيحية أما ديدرو وفولتير فإنهما من أقطاب المحافل الماسونية ومن مخططي الفكر التلمودي الصهيوني، ويمكن أن يضاف أوجست كونت الى هذا الطريق فقد كان يرى أن المذهب الكاثوليكي لا يستطيع تحقيق التجانس بين العقول بعد انهيار هذا المذهب تحت ضربات الثورة الفرنسية وان إعادة التجانس الاجتماعي لا يحدث الا بوضع ديانة

جديدة ذات عقائد واضحة يمكن البرهنة عليها ولا تتطلب الإيمان بشيء يناقض العقل.

ومن هنا فقد دعا إلى دين جديد أطلق عليه إسم (ديانة الإنسانية) تكون العلوم الوضعية أساسا للإيمان به وهو دين يختلف تماما عن مذهب الألوهية عند مفكري القرن الثامن عشر، وعن الديانة المسيحية التي تقرر أن العقيدة تتناقض مع فكرة البرهنة عليها مع أن الحقائق العلمية التي يعتمد عليها الدين الجديد يمكن البرهنة على صدقها وفي وسع كل إنسان أن يفهم هذه البراهين وتبدو ضرورة هذا الدين من أن العقل لم يعد يقنع بالتفسير اللاهوتي أو الميتافيزيقي» ولا ريب أن هذه الحيرة التي تبدو في كتابات أوجست كونت، كانت تشمل الفكر الغربي كله وقد امتدت منذ ذلك الوقت الى اليوم ولا تزال ممتدة، بل زادت عمقا، وخطرا وأحدثت نتائج بعيدة المدى من التمزق والأزمة النفسية، مما نرى ظواهره في قضية أزمة الإنسان الحديث وأزمة الحضارة.

أما عالم الإسلام وافق الفكر الإسلامي فإنه لم يشهد مثل هذه الأزمة لأن جميع فقهائه وفلاسفته وعلمائه ومتصوفيه «يقررون أن حقيقة العقل والشرع واحدة وأن براهين القرآن تصلح لجميع العقول على اختلاف درجات نموها».

ولذلك فإننا نخطئ خطأ كبيرا حينما ننقل هذه المعركة الى أرضنا وهي ليست معركتنا، وليست ظروفها التاريخية ظروفنا وليست مصادرها الإساسية من عقائد وفكر ومفاهيم مما يتصل بنا من قريب أو بعيد.

وليس هناك شبهة ما في قيام أي إنفصال في الإسلام بين العقيدة والشريعة أو بين العقيدة والأخلاق أو بين الدين والعلم أو بين الدين والمجتمع. وكل هذه المحاولات التي تجري لإثارة هذه الشبهات باطلة ومضللة وفيها افتئات على علماء المسلمين الذين لم يكونوا يوما معادين للعلم ولا ملتمسين سلطانا من أي نوع يفرضون به الفكر على الناس وحيث لم تكن هناك مؤسسات إسلامية ذات طابع ثيوقراطي.

ولقد أحدثت محاولات نقل مثل هذه القضايا في أفقنا بريقا خاطفا عند ذوي الرغبات والأهواء من حيث أنها تفسح لهم الطريق الى التحلل من القيم وتجاوز الحدود ومعرفة الضوابط التي وصفها الإسلام من أجل حماية الكيان الانساني نفسه وبناء الإنسان القادر على مواجهة أخطار الغزو وتحديات الصراع العالمي، فضلا عن بناء الانسان المؤهل لان يكون ربانيا، يعمل في هذا المجتمع من أجل وجهة خالصة.

ولكن مثل هذا القبول الشكلي أو الممارسة التي فرضتها عوامل كثيرة أهمها سيطرة فلسفة المسرح والسينما والقصة الغربية ومفاهيمها الوافدة، وبريق الفن بصوره المختلفة وأضواءه الساطعة في النادي أو السيرك أو المرقص أو الملهى.

غير أن الفكر الإسلامي بأصالته ومقوماته لا يزال قادرا على رد أهله إليه وتجاوز هذه الأخطار الوافدة التي لم تنبعث من أعماقه أساسا وانما فرضت عليه في ظل مرحلة السيطرة والاستعمار.

وسوف يجد المسلمون أنهم في حاجة شديدة الى مفاهيمهم الأصلية كلما ازداد ضغط الأخطار عليهم وتعدد التحديات وإتساع نطاقها فليس لهم عاصم يحول بينهم وبين الخطر أو يرد عنهم الغزو إلا أن يتحركوا من داخل قيمهم ومفاهيمهم، هذه المفاهيم التي تصدقهم الحقيقة ولا تزيفها لهم.

(6)

إن أبرز أخطاء مفاهيم العلوم الاجتماعية هي الخلط بين الأخلاق والتقاليد وإن النظرة الدقيقة الصائبة تكشف عن فوارق عميقة بين الأخلاق والتقاليد. فالأخلاق قيم وضوابط تعمل على بناء الانسان من خلال تقديم الخير وبذل التضحية وفي نفس الوقت مجاهدة النفس ومقاومة الإنحراف وهي دائما ربانية متصلة بالدين لا تنفك عنه أما العادات

والتقاليد فتلك هي الظواهر التي كونها المجتمع او اعتادها الإنسان والتي ترتبط بمواقف الزواج والموت والولادة والفرح والحزن وغيرها وهذه حقيقة ما يمكن أن يطلق عليها استجابة النفس الى الوسط، ولقد اختلط الأمر على فلاسفة المذهب المادي والمدرسة الاجتماعية في العجز عن التفرقة بين الأخلاق والتقاليد نتيجة لغياب المفهوم الأساسي الكائن في هذا المجال وهو العقيدة المستمدة من الدين ومن هنا اعتبروا قيم الأخلاق أشبه بظواهر التقاليد وردوها الى الوراثة أو الوسط أو الثقافة.

والحق أن إنكار الدين بوصفه مصدرا للأخلاق هو الحائل الأكبر دون عزل القيم الأخلاقية عن الظواهر التي تتمثل في العادات والتي تأخذ شكل القيم الأخلاقية مع الزمن وتحمل طابع القداسة الزائفة بينما نجد أن القيم الأخلاقية لها عنصر الثبات والاستقرار مع وضوح الالتقاء بالفطرة. مع اتساع الأفق بينما نجد الظواهر الاجتماعية التي تتمثل في العادات والقاليد تحمل صورة الجمود والتخلف ولا تخضع للفطرة أو تتجاوب مع النظر العقلي وربما تحمل طابع الخرافة والزيف الذي يعارض القيم الأخلاقية وربما يحل محلها عندما تضعف المجتمعات وتعجز عن التمسك بالقيم.

ولقد كانت دائما تلك محاولات الاستعمار في اعلاء العادات والتقاليد والاحتفال بها حتى يجعلها قادرة على طمس القيم الأخلاقية والحلول محلها.

فإذا تعمقنا الفوارق بين القيم الأخلاقية وظواهر العادات والتقاليد وجدنا ان كل ما يقال عن تطور الأخلاق بتطور الجماعة ونسبية الأخلاق والقول بأن مرد الأخلاق الى الوسط كل هذا يعني العادات والتقاليد فقد حلت كلمة الأخلاق محلها من حيث اقتناع المذهب المادي بأنه لا فرق بين هذه وتلك لانها في تقديره الباطل هي من صنع المجتمع نفسه.

فإذا نحينا الأخلاق المتصلة بالدين والمستمدة من الوحي والمتصلة بالعقيدة والشريعة، والتي تحمل طابع الثبات، إذا محيناها عن

هذا البحث، كان كل ما يدور فيه بمثابة وجهات نظر غير غريب. فالعادات والتقاليد ما دامت هي وليدة المجتمع فهي تتطور بتطوره وكل ما تتهم به العادات والتقاليد من جمود عن العصر مقبول بل ونحن في أفق الفكر الاسلامي نطالب به لانه يصل أحيانا إلى درجة الخطر التي تحول دون تقدم المجتمع والتي تؤثر على صفاء العقيدة وعلى سلامة القانون الأخلاقي.

والإسلام في أعمق مفاهيمه حرب على الأوهام والخرافات والأساطير والمنكرات التي تتشكل مع الزمن من حول العادات والتقاليد وله صوت عال في كشف زيفها وتحرير الفكر الإسلامي والنفس الإسلامية منها.

فإذا علا صوت هذه التقاليد والعادات الضارة سارعت القيم الأخلاقية وأعجزتها وحلت مكانها، كما حدث في المجتمعات الغربية فلما جاء الباحثون الماديون المجردون عن فهم الدين، عجزوا عن التفرقة بين الأخلاق المرتبطة بالدين والعادات المرتبطة بالمجتمع وحسبوها جميعا شيئا واحدا لأن العادات والتقاليد كانت فعلا قد قضت على القيم الأخلاقية وسحقتها تماما.

ومن هنا جاءت تفرقة الإسلام بين الحق والباطل وبين السنة والبدعة وما صلك به رسول الله الآذان من أن شر الأمور محدثاتها وان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

ومن هنا يجب التحرز ضد هذا الخطر في أفق المجتمع الإسلامي وذلك برد كل حركاتنا الاجتماعية في شؤون الأكل والملبس والبيوت وآداب الطعام والشراب والسفر والإقامة والزواج والمعاشرة والمعاملة والكسب واللهو والأفراح والمآتم الى القيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام وتحرير هذه الأوضاع جميعا من زيوف العادات والتقاليد الدخيلة الفاسدة التي كانت تعمل في الجاهلية والوثنية والتي تجددت وحاولت أن تأخذ طابع الثبات وأن تنافس القيم الأخلاقية الأساسية.

ذلك أن التفرقة بين الأخلاق والعادات تجعلنا قادرين على تثبيت الأخلاق وتغيير العادات ، لا العكس، فإن الأخلاق في أساسها مرتبطة بالفطرة الأنسانية ولها طابع الثبات، أما العادات فهي مرتبطة بالمجتمع أو لها طابع التغيير وإذا حيل بين الأولى وبين الثبات سقطت وإذا حيل بين الأخرى وبين التغيير تجمدت وفسدت.

ولا ريب ان المجتمع اليوم يغير من أساليب الأشياء مع بقاء جوهرها، من أزياء اللباس وطريقة تناول الطعام ووسائل تأسيس البيت. وأدوات الانتقال وغيره ولكن أصول الحركة فيها جميعا ما تزال وستظل تحكمها قيم الأخلاق لا تنفك عنها. وإن تغيرت العادات والأساليب. فتتغير العادات والتقاليد مرتبط بالعصر وتطوره وثبات الأخلاق مرتبط بالدين وأسسه التي لا تحول ولا تزول.

ونحن نعلم أن الإسلام حين جاء كان لدى العرب عرف وعادة، فلم يلبث الإسلام أن أقام شريعته ونشر قانونه الأخلاقي فما صلح للبقاء من هذه الأعراف والعادات بقي وما تعارض معه سقط. أما ما بقي فقد أخذ طابعا جديدا، ومفهوما مغايرا. والكرم والشجاعة والنجدة ونصرة الجار والمستجير قد بقيت مما أقره الإسلام ولكن لم تعد وجهتها كما كانت في الجاهلية من أجل الظهور والتفاخر بل من أجل إرضاء الله والتماس مثوبته وكذلك تغير مضمون القيم.

ومن هنا نعرف الفرق بين الأخلاق والتقاليد. الأخلاق ثابتة ومتصلة بالقيم العليا للدين لأنها من صنع الله أما التقاليد فهي ظواهر عارضة ووسائل متغيرة تختلف وتتغير مع الزمان لأنها من صنع الناس، وفي نفس الوقت لا بد أن تخضع التقاليد لاسس الأخلاق ولا تتجاوزها ومن هنا نجد أن اللباس والزينة والأزياء وألوانها هي من عناصر التقاليد غير أنها لا بد أن تتحرك في إطار الأخلاق.

الأخلاق الإسلامية لها ذاتيتها الخاصة المختلفة عن الأخلاق اليونانية والمسيحية ولها أيضا مقوماتها والأخلاق في الإسلام منهج عملي وليس نظرية فلسفية وهي تقوم على مبدأين: الالتزام والجزاء الأخروي. وقد ربط الإسلام بين الدين والخلق وأعلن زيف النظرية القائلة بأن الأخلاق تختلف عن الدين أو تستقل عنه، أو أن الملحد يستطيع أن يكون أخلاقيا. واعترف الإسلام بالإنسان ككل وأقام قانون الأخلاق شاملا مؤثرا في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والأدب.

ولقد قام قانون الأخلاق الإسلامي مستمدا من القرآن ، قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطهير النفس.

وتقوم ممارسة الأخلاق على الحرية فكل تكليف يقوم على الاختيار، ويجري على أساس الإرادة الحرة، لذلك يقرر الإسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه فله عذره. وقد أطلق الإسلام على كلمة حرية الإرادة اسم (الكسب والاختيار) وجعلها مناط التكليف ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقي منصفا بالطواعية وصادرا عن إرادة محبة للخير.

وتقوم الأخلاق في الإسلام على أساس التقوى (أي تجنب الحرام والإقبال على الحلال) وعلى الإيثار (أي البذل والإنفاق).

ولقد ربط الإسلام بيه العقيدة والأخلاق والشريعة، وأعلن فساد النظرية التي تقول بأن الأمة ليست في حاجة الى دين ولكنها في حاجة الى الأخلاق وأنكر مثل هذه الإنشطارية وكشف عن أن الأخلاق لا تقوم بنفسها وانها لا تتحرك إلا من داخل إطار العقيدة اي من داخل الإيمان بالله نفسه فالدين بمعنى العقيدة والأخلاق بمعنى الدين حقيقتان لا تنفصلان في الإسلام كما تتلازمان في جميع الأديان.

والأخلاق بمفهوم الإسلام تختلف عن العلم وهي نفس الوقت لا تعارض العلم ولا يحل العلم محلها بل يقرر ضرورة وجودها فالأخلاق قاسم

مسترك على مختلف تصرفات الإنسان وهي بمثابه صوابط وحوافز بين الانسان ونفسه وبين الانسان والإنسان وبين الانسان والمجتمع.

والعلم لا ينفصل عن الأخلاق بل يتحرك في نطاقه والعلم لا يتقدم إلا في بيئة أخلاقية ولا بد من حماية الأخلاق لإنطلاقة العلم وتوجيهها الى الخير والحق.

غير أن العلم في العصر الحديث قد تجاوز ارتباطه بالأخلاق وانفصل عنها واندفع يحقق من المطامع والأهواء والمظالم ما كان بعيد الأثر في أزمة الحضارة المعاصرة. وقد قرر العلماء أن تقدم العلم لم يضمن إتقاء الأخلاق. بل أن العلم قد ساعد على إفساد الأخلاق من حيث استغلال ابتكنولوجيا في وجوه الإباحية والشر واللذات والشهوات. إن العلم لا يستطيع أن يكون أخلاقيا إلا اذا كان في خدمة البشرية كلها لا في خدمة مطامع النفوذ الاستعماري والقوى الطامعة في السيطرة على البشرية وإذلالها.

لقد كانت البشرية في حاجة الى ثبات المصدر العلوي وتحريره من التفسيرات الفاسدة والتماس مفهومه الأصيل فإذا صححت البشرية مفاهيمها على ضوء التوحيد استطاعت أن تعتصم بقيم الثبات وتتحرك حركتها الأخلاقية في وجهة الخير والتقدم المعنوي والمادي معا. غير ان إنفصال الدين عن مفهومه الحق وخضوعه للتفسيرات التي أخرجته عن أصالته هي التي حالت بينه وبين الصمود في وجه مفاهيم العلم ومواجهة منهج المعرفة القائم على العلم. ومن هنا تجاوز رجال العلم الدين كلية والتمسوا الأخلاق مفهوما منفصلا هو مفهوم عقلي في أساسه ثم تحول من بعد فأصبح مفهوما يستمد كيانه من إصلاق الغرائز.

ولقد خضعت غاية الأخلاق في الفكر الغربي الى مبدأ المنفعة ثم تحولت عنه لتخضع لمبدأ اللذة فأصبحت تتحرك في مهب الأهواء والشهوات والمطامع.

وبذلك عجزت عن بناء الضمير الذي يستمد قيمه من الإيمان بالله

والالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية والإيمان بالبعث والجزاء.

وهذا هو أبرز وجوه الخلاف بين مفهوم الأخلاق ومضمونها في الإسلام وبينه في الفكر الغربي فهو في الإسلام قيم ثابتة متصلة بالدين الحق لا تنفك عنه حتى تبقى العقيدة مهما صحت وقويت شيئاوعديم القيمة إذالم تصبح جزءا من السلوك والحقيقة.بل هي في الواقع لا وجود لها قبل ذلك.

ومن هنا اختلفت الأخلاق في الإسلام عن مفهوم الأخلاق في المسيحية والفكر اليوناني أساسا وحين ترجمت مفاهيم الأخلاق الهلينية لم تجد تقبلا حقيقيا في محيط الإسلام لاختلاف الأصول والجذور وبقي مفهوم الأخلاق في الإسلام مرتبطا بمعطيات الأديان السماوية السابقة عليه متصلا بها على النحو الذي عبر عنه رسول الله حين قال «إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق».

ومن هنا فإن ما كتبه الفارابي وابن سينا وابن مسكويه لم يكن إلا تقليدا للفكر اليوناني الذي يخالف روح الإسلام ولا يلتقي بها إلا في القليل.

فالأخلاق في مفهوم الدين الحق المنزل من عند الله ضوابط وكوابح لتزكية النفس وترويض الغرائز وتصعيدها والسمو بها ولم تكن بصورة ما زهدا له صفة الرهبانية ولا تحللا فيه صفة الإباحية.

وقد تأكد أن فكرة تصعيد الغرائز كما يفهمه الفكر الحديث مستفادة أساسا من القرآن الكريم:

«**ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**».

والإسلام لا يقتل الغرائز ولا الرغبات البشرية ولكنه ينظمها ويضعها في إطار الحلال والاعتدال وإن هناك فرقا بين التقوى في عمل الشيء وبين اعتزاله كلية، فالتقوى ممارسة لها ضوابط أما اعتزال الشيء فهو مضاد للطبيعة البشرية التي أكد الإسلام وجودها وحقها في الممارسة والتطبيق.

ومن الخلافات العميقة أن الأخلاق في مفهوم الوثنية الاغريقية كما

يردده أرسطو وأفلاطون لا يخرج عن دائرة السعادة وعند غيره يقتصر على مفهوم اللذة ومعناهما راحة النفس وسرور الفرد وهو مفهوم يقاس على الأهواء والمطامع أما الإسلام فيجعل التقوى أساسه ومقصده.

فالإسلام لا يأمر بقمع الشهوات ولا التحكم في الغرائز ولكنه يدعو الى الإعلاء والتأحيل إذا لم تتيسر الوسائل السليمة الشرعية للمارسة وقد فهم كثيرون أن مهمة الإسلام فيما جاء به رسوله ليتمم مكارم الأخلاق، ان يعممها على الفرد والمجتمع والحاكم والمحكوم وأن يضع الفرد بين الفردية والجماعية (فرديا في الفكر، اجتماعيا في العمل، فرديا في حق الكسب اجتماعيا في دفع الزكاة والصدقات فرديا في النوافل اجتماعيا في الفراض، فرديا في المحراب اجتماعيا في المنبر)[1].

وحين يعطي الإسلام النفس البشرية رغائبها يدعوها الى التوسط حتى يتحقق التعادل بين الرغبات المادية والأشواق الروحية فالإسلام لا يقر الإغراق في حب اللذة ولا التحلل ولا عبادة الجسد أو تأليه الأهواء، ولا يجعل السعادة أو اللذة غاية الحياة.

فهو بهذا المعنى واضح الذاتية مختلف عن مفهوم المسيحية الغربية ومفهوم الوثنية اليونانية التي تجددت في العصر الحديث من خلال نظريات فرويد ودور كايم وليفي بريل.

وإنما يهدف الإسلام بذلك الى التخفيف عن النفس الانسانية ما لا تستطيع احتماله من الأهواء التي تودي بكيانها النفسي والعقلي، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن يميل الانسان ميلا عظيما ومن شأن مراد الإسلام أن يحفظ كيان الانسان نفسه قويا فيكون قادرا ما عاش على التماسك والصمود ويحفظ كيان المجتمعات فإن سقوط الأمم في تقدير جميع علماء الحضارة إنما يحدث إذا اختل التوازن النفسي والاجتماعي وسيطرت الحواس والغرائز على العقل والانسان معا وفي عديد من الحضارات كاليونانية والرومانية والفارسية والفرعونية كان انهيار القيم الأخلاقية مقدمة

(1) من بحث للعلامة صلاح الدين السلجوقي.

لانهيار هذه الامبراطوريات عندما عجز الانسان عن حماية نفسه من أخطار اللذات والأهواء.

ولا ريب أن أي حضارة إذا فقدت عنصر الدين والإيمان بالله فقد أخذت في فقدان عنصر الأخلاق التي يقوم على أساس الالتزام ويكون ذلك مقدمة للإنهيار.

(8)

وأخطر ما تحاول أن تقرره مدرسة العلوم الاجتماعية والفلسفات الوضعية وهو من الفروض لا من الحقائق: أن الانسان ليس له دور في هذا الوجود غير دور المنفعل والمتفاعل وأن التطور يحدث بصورة عرضية لا تدبير فيها ولا حكمة، ومن هنا فإن الانسان سليب الارادة الحرة.

والهوى واضح من وراء إذاعة مثل هذه النظريات المأساوية المدمرة لإرادة الانسان وقدرته على التغيير، وهي تستهدف تحطيم نفسه فلا يتقدم خطوة على الطريق الصحيح، بينما ما تزال تلك القوى القائمة وراء هذه الأفكار تعمل دون توقف بإرادة حرة في سبيل تدمير المجتمعات تمهيدا للسيطرة عليها.

ومن خلال الجبرية المطلقة تنطلق الدعوة الى انعدام المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي وتنكر عقيدة البعث والجزاء وتروج أفكار اقتناص اللذات فالعمر قصير.

وهكذا تصل دعوى الجبرية الى أخطر مخاطر معارضة مفهوم الايمان بالله وأقصى مظالم هدم الانسان وتقويض الأسرة، وانتاج أجيال ضائعة ممزقة قلقة رافضة لكل شيء.

ولا ريب أن العلوم الاجتماعية هي التبرير الفلسفي للإباحية وللأنطلاق وراء الرغبات من غير حدود، وانه مقدمة وتكملة لدعوتين خطيرتين احداهما تفسر الحياة بأنها رغبة جنسية والأخرى تفسر الحياة بأن

غايتها الطعام وبين مطامع الجنس والطعام تضيع كل مقومات الانسان وتنهار ضوابط شخصيته وكيانه.

لقد تجاوز الفكر الأخلاقي الغربي الفطرة مرتين: مرة حين تحول الى قضية عقلية باسم المنفعة ومرة أخرى حين تحول الى قضية شعور باسم النسبية وهو في ذلك التجاوز يعارض صلة الأخلاق بالدين، وثبات الأخلاق بارتباطها بالانسان لا بالمجتمع والعصر. ولا يفرق بين الأخلاق ذات القيم الثابتة والعادات والتقاليد التي هي وليدة المجتمع وتتطور بتطوره والتي هي في الاسلام خاضعة لأصول الأخلاق.

(9)

وفي ضوء مفهوم الاسلام نفهم علاقة الوسط وعلاقة الوراثة. فالاسلام حين اعتنقه المسلمون في الصدر الأول انشاء لهم وسطا جديدا ومناخا فكريا جديدا كان قادرا بقيمه على تغيير الموروثات جميعا وتشكيل الشخصية الفردية تشكيلا مختلفا غاية الاختلاف من حيث الاخلاق والسلوك والتكوين النفسي والاجتماعي. وما تزال تعاليم الاسلام قائمة على عدم الخضوع للوراثة إذا فسدت وداعية الى التحرير من التقليد. وكذلك ما زالت دعوته قائمة على إعادة تشكيل الوسط والبيئة من جديد وفق مفاهيم الاسلام كلما غلبت عليها التبعية وداخلتها الزيوف وذلك بإعادة صياغتها وفق المنهج الأصيل واستمدادا من المنبع الأول: القرآن.

وجعل إمام المسلمين نموذجا حيا صادقا كاملا هو حياة رسول الله ﷺ التي هي الأسوة المتجددة، والقدوة القائمة. من حيث حياة الفرد أو حركة المجتمع.

ولذلك فليس المسلمون في حاجة الى ذلك القدر المضطرب الصاخب من الأبحاث الفلسفية حول تأثير الوراثة والوسط وهل الأخلاق مكتسبة أم موروثة.

كذلك لا يقبل الفكر الاسلامي ذلك المفهوم الزائف الذي يقول بأن الانسان ابن غرائزه ويقرر ان الانسان ابن عقيدته. وانه لا يخضع لاهوائه وإنما يتحرى أن يلتمس مفاهيمه من مصادرها الأصلية التي لا يقدمها له إلا الدين الحق المنزل من عند الله المتحرر من كل تفسير خاطئ أو تأويل زائف، والذي ما زال محفوظا في نص موثق هو القرآن.

إن نماذج تبديل الاسلام للناس وطبائعها وأخلاقها ومزاجها النفسي وروحها واضح في عشرات من الصور التي تتمثل واضحة في رجل كعمر ابن الخطاب وفي امرأة كالخنساء تماضر السلمية التي كانت عنيفة في الجاهلية حين قتل أخاها ضرار فلم تدع وسيلة لرثائه إلا اتخذتها حتى لقد وصفته بأنه علم في رأسه نار، فلما أسلمت وتقدم أولادها الأربعة الى الاستشهاد في معركة القادسية استقبلت ذلك في رضى المؤمن وثقة الواثق بقضاء الله دون أن تتزعزع قيد أنملة وهذا أثر العقيدة في تغيير النفوس.

إن الانسان في الإسلام لا يخضع للوسط ولا للوراثة. في عقائده وأخلاقه وشريعته ولكنه يستمدها من وحي السماء ومن الدين الحق ومن الكتاب المبين، ومن هنا فهو لا يقر الزيوف الوافدة التي صنعتها بيئات ومجتمعات أنكرت الدين جملة، أو أن تفسيرات الدّين لم تقدم لها مطمحها النفسي، وزادها الروحي والعقلي الحقيقي فاضطرت الى أن تبحث وتتخبط دون هدى من ضوء رباني كاشف لا تستطيع النفس الانسانية أن تجد حقيقتها إلا في ظله وضيائه. ومن ذلك قولهم: الأخلاق هي استجابة النفس الى الوسط، ولا ريب أن الوسط يختلف باختلاف الزمان والمكان ومن هنا فإن الأخلاق تتمدد وتتجمد، ولا تثيب على حال، فإذا كانت هي أساسا قائمة بنفسها منفصلة عن الإيمان بالله وعن التوحيد فهي ليست أكثر من مفهومنا للعادات والتقاليد والهدف واضح من ذلك كله وهو هدم الأخلاق والقضاء عليها، فدعوها الى ربطها بالمتغير حتى تتعدد وتصبح صورا مختلفة، ولا تلبث أن تصبح استجابة كل فرد خاصة به ومن ثم يقضي على تلك الوحدة الجامعة والرابطة الشاملة للبشرية.

ولا ريب أن هذا التحول الخطير قد وجد في البيئات الغربية استجابة بعد ذلك التطور الطويل المدي الذي جرى خلال أكثر من قرن ونصف قرن، ولكن ذلك الأمر لا يثبت طويلا لأنه مضاد للفطرة معارض للعلم، مخالف للعقل، زتجاوز كل القيم الأساسية التي تشكل على أساسها الانسان وأن «أصالة الفكرة الأخلاقية وربانيتها ووحدتها لن تنزل بها عن عرش سيادتها ما بقيت مثلها العليا قائمة في خاطر البشرية».

(10)

إلى أي حد غيرت مدرسة العلوم الاجتماعية مفهوم الأخلاق:

يجيب الدكتور توفيق الطويل فيقول «انتهت النزعة العلمية في الأخلاق الى قصر الدراسات الأخلاقية على الظواهر الخلقية الجزئية بمناهج تجريبية. ومهمة الدارس أن يصف هذه المثل ويقرر حالتها دون أن يتجاوز الوصف التقريري الى اصدار أحكام تقويمية كأن يقول هذا خير وذاك شر أو حسن ورديء، وقالوا أن هذا مما يخرج الباحص عن نطاق العلم ومناهجه الاستوائية فهم يرفضون البحث فيما ينبغي أن يكون لأنه غير كائن بالفعل كما يرفضون التسليم بالمثل العليا التي تكون من وضع السياسة.

هذا هو مخطط الفيلسوف اليهودي دور كايم فيلسوف المادية الأخلاقية ورأس مدرسة العلوم الاجتماعية.

«ثم جاء ليفي بريل الفيلسوف اليهودي الآخر، وانتهى إلى رفض الأخلاق علما معياريا يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الانساني وأكد الأخلاق علما واقعيا وضعيا على النحو الذي أسلفنا وبهذا ينصرف النظر عن التشريع المثالي الى دراسة الحقائق ودراسة وصفية تقريرية وبهذا تتلاشى الأخلاق النظرية».

هذا هو التحول الخطير الذي قامت به مدرسة العلوم الاجتماعية للأخلاق والذي أخرجها من الفلسفة المثالية التي كانت لها جذورها المتصلة

بالفكر المسيحي الغربي والتي كانت تقوم على أساس الواجب أو المنفعة.

أما الاتجاه الجديد التي قدمته مدرسة اليهوديان (دور كايم وليفي بريل) فانه يهدف استئصال القيم الأخلاقية عامة ودحرها بصفة تامة، ووضع الفرد في جبرية اجتماعية قاسية بحيث يصبح كائنا سلبيا لاعمل له الا [illegible] المجتمع.

ويشير الدكتور توفيق الطويل في بحثه[1] الى مدرسة سيطرة الفرد من توجيه التاريخ التي ظهرت في مطلع القرن العشرين على يد (بندتو كروتشه) وما سبقها من مفهوم الفرد البطل الذي يسير التاريخ ويوجه المجتمع التي دعا اليها توماس كارليل.

أما مفهوم الإسلام فهو أن التأثير متبادل بين الفرد والجماعة وبين الفردية والجماعية، وأن ارادة الفرد الحرة لها أثرها في حركة التاريخ الى جوار عوامل متعددة أخرى. وان الانسان ليس ترسا في آلة، وليس مجبورا أو مقهورا بحيث لا يملك التصرف، وان إرادته الحرة هي مصدر مسؤوليته وجزائه.

ولا ريب أن مفهوم مدرسة العلوم الاجتماعية هذا هو الذي مهد لمفاهيم الفلسفات الوجودية التي أعلنت احتقارها لكل القيم ورفضت الاذعان لأية سلطة.

ويتعارض هذا مع مفهوم الاسلام الذي يقرر حرية الانسان ويجعله مسؤولا عن التصرف، ان قصد الى الخير أو الشر، ولكنه مع ذلك يضع له الضوابط التي تصون حريته بحيث لا يكون عدوانا على حرية الآخرين. ويضع له الزواجر والروادع، وليس الانسان هو الذي يضع هذه الضوابط وانما يضعها له الدين الحق الذي ينظم حياته.

ولقد قررت مفاهيم الإسلام أن كل موروث يمكن تغييره وكل بيئة أو وسط يمكن تغييره، وهذه مهمة الرسالات السماوية والأديان ولا تخضع العقيدة ولا الأخلاق للبيئة ولا للموروثات ولا تتقيد بها لأنها تستمد

---

(1) الدكتور توفيق الطويل.

مقوماتها من مصدر أعلى وليس صحيحا أن الانسان يولد وتولد معه أخلاقه، ولكن الانسان عجينة طيعة بحيث يمكن تشكيله وفق الأصول الصحيحة عن طريق التربية والقدوة وفهم الأصول الأساسية لدين الله وعقيدة التوحيد.

(11)

ما هي وجوه الخلاف بين الأخلاق الاسلامية وما سبقها من حلقات ومناهج: يقول الاستاذ أحمد فؤاد الأهواني.

«الأخلاق نظرية وعملية ولم ينص الاسلام على أخلاق منفصلة يتبعها السلوك العملي ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة وانما يرسم للناس قواعد العمل الصالح الذي ينبغي أن يسيروا عليها ومرجع المسلمين في ذلك القرآن والسنة، والقرآن أصل الأخلاق الإسلامية وهو يتضمن القواعد العلمية التي تتناول أغلب أحوال الناس في معاشهم وفي صلاتهم بغيرهم وفي معاملاتهم بعضهم بعضا ويقوم على الخير للإنسان كافة، والسلام بين المرء ونفسه وبين المرء وغيره.

وتقوم الأخلاق الاسلامية على أساس مسؤولية الانسان عن أعماله وتأكيد حرية إرادته والتوفيق بين إرادة الله وإرادة الانسان والأخلاق الإسلامية أخلاق شخصية وجماعية».

يقول الدكتور الأهواني: إن الأخلاق الاسلامية هي أخلاق تقوى بكل ما يحمل التقوى من معان سلبية وإيجابية أي تجنب الحرام والاقبال على الحلال: «تقوى الاله مدار كل فضيلة» والايثار والتقوى هما لحمة الأخلاق الاسلامية وسداها.

وقد أشار إلى ما لم يفطن اليه المستشرقون الذين ألفوا في الأخلاق الاسلامية حين حاولوا الموازنة بينها وبين الأخلاق اليونانية أو المسيحية ظانين بأن كتاب ابن مسكويه (تهذيب الأخلاق) هو مفهوم الاسلام بينما

لم يزد عن أن يردد النظريات اليونانية؛ وكذلك ما لوحظ على الامام الغزالي من خضوع لبعض النظريات المسيحية في أخلاق الزهاد وعنده أن هذه الكتابات كلها لم تؤثر في حياة المسلمين اذ حجبها كتاب الله ولم تستطع أن تبلغ الى مقامه.

ولقد ظلت الأخلاق الإسلامية ولها ذاتيتها الخاصة والمختلفة عن الأخلاق اليونانية والمسيحية وليست الأخلاق الإسلامية اخلاق سعادة بل اخلاق تقوى وسلوك النبي هو القدوة والتطبيق لاخلاق الاسلام والتطبيق الفعلي لمفهوم الأخلاق في الاسلام.

(12)

ومن وجوه الاختلاف العميق بين الأخلاق الإسلامي والأخلاق اليونانية والعربية: ان مفهوم اليونان والرومان للأخلاق هو الانسجام بين الواقع والرغبات وان ميول الانسان وطبيعته الفردية هي مصدر الخير! ولا ريب ان ذلك المفهوم لا يهدف بناء الإنسان ولا خلق طابع المجاهدة فيه ولا دفعه إلى القوة والعزيمة: وإنما يرمي الى التسليم بأهوائه ورغباته الحسية.

أما الصورة المسيحية فإنها تختلف عن ذلك تماما اذ ترتكز على الاعتقاد بأن الطبيعة البشرية فاسدة أصلا من أثر الخطيئة الأولى: خطيئة آدم عليه السلام ومن هنا فهي تعمل على محاربة الطبيعة الانسانية الفاسدة وقتل الميول الجنسية والشهوات في سبيل ولادة أخلاق جديدة قوامها التقشف والزهد.

وهذه الصورة مخالفة تماما لمفهوم الاسلام، الذي يعترف بطبيعة الانسان ويحقق رغباتها في إطار من الضوابط والحدود.

وهذه الصورة هي التي دفعت أوروبا الى غاية التناقض بين الرهبانية القديمة والاباحية الحديثة.

أما الصورة الاسلامية فهي صورة واقعة ومثالية معا.

فالانسان هو الانسان في مختلف العصور والبيئات: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فالأخلاق منوطة به هو وهي عامل حمايته ودفعه الى الامام وتنظيم حياته وترقية نفسه والارتفاع به، وهي في نفس الوقت منوطة بالقدرة والوضع مقبول فيها الاضطرار والعذر القهري.

فهي لا تذعن للحواس ولا تستسلم لها لأن مهمتها الأساسية هي التوجيه والترويض للحواس وهي في نفس الوقت لا تخرج الانسان عن طبيعته ورغباته بل تقبل الاستجابة لها في اطار واضح وحدود صريحة وضوابط مقررة.

وهي في نفس الوقت تقوم على اطارات رحبة متسعة تضمن الحرية الشخصية وتحقق الجهود الفردية وتكفل للأجيال المتعاقبة اختيار الصورة العصرية المناسبة.

(13)

إن المفهوم الرئيسي للأخلاق في الاسلام يتجلى في فكرة الالتزام وان حرية الفنون والأداب تتحقق داخل اطار الأخلاق.

ويقوم[1] الالتزام الخلقي على أساس أن النفس الانسانية قد عرفت في تكوينها الأول معنى الخير والشر (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وقد هدى الانسان الى طريقي الحق والباطل (وهديناه النجدين) والطبيعة الانسانية قد تندفع نحو الشر ولكن الانسان قادر على أن يردها وأن يكبح جماح شهواته ومن هنا ركز الاسلام على تربية الارادة والمجاهدة والمغالبة والمصابرة وكلها قيم في استطاعة النفس الانسانية تحقيقها.

والنفس الانسانية ليست شريرة في أصلها، وانما تفسدها الغفلة عن استخدام القوى والمواهب التي أودعها الله فيها.

---

(1) من بحث السيد محمد بدوي عن بحث الدكتور محمد عبد الله دراز.

لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل: أولئك هم الغافلون).

والأمر متوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله ايانا وتنمية هذه القوى وتزكيتها (**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**).

وفي النفس قوة كامنة تبذل النصح وتحدد للانسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه: هي العقل وهناك قوة تكشف عن الخير وعن الشر هي الضمير. (الاثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس).

• • •

(14)

وقاعدة الاسلام الأساسية في الأخلاق «الالتزام» إنما يعني التزام الانسان في مواجهة أبناء البشر جميعا. والالتزام في الأخلاق جزء من المسؤولية الفردية التي هي مناط الجزاء الأخروي.

وفي تقدير جميع الباحثين ان الالزام هو العنصر الأساسي أو المحور الذي تدور حوله المشكلة الأخلاقية وان زوال الالزام يقضي على جوهر الحكمة العملية التي تهدف الأخلاق الى تحقيقها. فاذا انعدم الالزام انعدمت المسؤولية وإذا انعدمت المسؤلية ضاع كل أمل في اقرار الحق ووضعه في نصابه وأقامه أسس العدالة[1].

وما دام القانون الأخلاقي عاما فيتعين أن تكون قواعد السلوك التي يفرضها علينا ثابتة لا تتغير، اما اذا كان نسبيا فان هذه القواعد تصبح مما يحتمل التعبير والتبديل تبعا لتغير ظروف الحياة.

---

(1) عن بحث للدكتور: محمد زكريا البرديسي «حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية».

ولقد واجه مفهوم الأخلاق الاسلامي كل التحديات التي حاولت الفلسفات الغربية أن تضع لها حلولا، وقضى فيها بالرأي الأحكم البعيد عن هوى الانسان نفسه والمتحرر من القصور العقلي الذي لا يستطيع أن يحيط بابعاد القضايا.

وخطا النظريات الغربية إنما يرجع الى الدعوة الى أخلاق بلا الزام ولا جزاء، أو احلال مجموعة العادات والتقاليد محل الأخلاق واخضاعها لظروف المجتمع وتغيراته.

وقد حاولت الفلسفات ان تبني قواعد الأخلاق على مبدأ وحيد هو السعادة أو العقل، يقول الدكتور وارز (والحقيقة انه لا تكفي في توجيه ارادتنا أن نرجع الى قاعدة عامة بل اننا نحتاج الى الجمع بين الشرطين: بين أمثال أعلى يأتينا من مصدر علوي وبين الحقيقة الواقعة التي نعش في وسطها. ومهمة الضمير الأخلاقي أن يكون همزة الوصل بين المثالي والواقعي. وبين المنطلق والنسبي، بحيث يتحقق للفعل الأخلاقي الثبات الذي يميز كل قانون عام والتنوع الذي يلازم ظروف الحياة ويشعر الانسان بذاتيته وبحريته في التصرف).

والالزام الخلقي في القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة.

فلنسمع الى القرآن «**فاتقوا الله ما استطعتم**» اعملوا ما يترائى لكم أنه الأحسن بحسب وحي الساعة. ليس في الصيغة صفة الأمر الصارم الذي لا يقبل استثناءا ولا تعديلا فهو لا يحدد تحديدا صارما ولا يترك الحبل على الغارب، ومع ذلك فقد جمعت بين الاتجاهين، من هذه الكلمات الموجزة يدعونا القرآن الى أن توجه أنظارنا نحو الله وأن نطيع أوامره وأن نعمل ما في وسعنا للتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الحقيقة الواقعة.

وبذلك يتحقق:

1 ـ اتصال الحلقات.

2 ـ تحقيق الارتفاع نحو المثال الأعلى مع مراعاة ما تقتضيه الطبيعة الانسانية.

3 ـ تحقيق الخضوع للقانون مع حرية الارادة.

وان ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم بأفعال غير مشروعة الا اذا كان أمام ضرورة لا محيص عنها وفي هذه الحال لا يؤاخذ بما فعل، كما أن الله يصفح عنه إذا أخطأ عن غير عمد: «**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم**» وهناك أشياء لم تفصل تفصيلا كاملا وفي هذه الحالة قد نخطئ في تفسيرها أو تعريفها، وهذا الاحتمال هو نتيجة طبيعية لبشريتنا القاصرة ولحرية الاختيار والتصرف التي منحناها، وواجب المؤمن هو أن يحاول في حال الشك أن يتبين باخلاص ما يتفق مع أوامر الله، فإذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب ما دام قد بذل الجهد الضروري الذي في وسعه.

«على أن الأمور اذا التبست عليه فمن الخير أن نتقي الشبهات وقد أكد الرسول ذلك من الآية الكريمة (**ولا تقف ما ليس لك به علم**) فقال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه وقال: (**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة**).

ولما سئل الرسول عن تعريف الخير والشر قال: استفت قلبك واستفت نفسك. البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب والاثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وان افتاك الناس وأفتوك».

«هذا موقف القرآن من الالزام الخلقي: دعوة الى اتباع القواعد العامة التي أمر الله بها مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء في نطاق التفاصيل التي تعرض لنا تبعا لتغير ظروف الحياة».

«فلا يدعي القانون الأخلاقي في القرآن أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة. وأن هناك طريقة واحدة لتطبيقها، وان هناك طريقة واحدة للتوفيق بينها وبين القواعد الأخرى، فالقاعدة مهما بلغت من الدقة والأحكام تترك أحيانا بعض التفاصيل دون تحديد، وهنا يظهر مجال

الاجتهاد الشخصي والتفكير المستقل الحر والاعتماد على ملكة العقل التي أودعها الله الناس.

«فالمجهود الفردي واجب في نطاق الأخلاق وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو اليه».

«والخلاصة أن «القواعد العامة» للأخلاق ليست من صنعنا بل اننا قد تلقيناها من المشرع الأسمى، ونستطيع أن نستقيها من كتابه العزيز وسنة رسوله، أما «الواجبات الخاصة» فاننا نكيفها تبعا لظروف حياتنا على شرط أن لا نخرج عما رسمه لنا المثل الأعلى وأن نبذل فيها الجهد لتبيين وجه الحق» والفلاسفة الذين يوافقون مفهوم القرآن في أن قوانين الأخلاق عامة لا يتأثر بحدود الزمان والمكان يرون أن الأخلاق أشبه بالمنطق الذي يبحث قوانين الفكر كذلك الأخلاق فأنها تبحث قوانين السلوك الانساني.

ومن هنا تخطئ المدرسة الاجتماعية التي تقول بنسبية الأخلاق، ذلك لان الخير والشر وهما قضية القانون الأخلاقي الكبرى لا تختلف باختلاف الحضارات والمجتمعات.

أما فكرة الضمير فإن القرآن لم يوردها. والضمير يربى على أساس معين فإذا ربي على أي أساس انطلق منه.

«وليس الغرض من جهاد النفس ان نمحو من أنفسنا غريزتي الشهوة والغضب اذ أن هاتين الغريزتين ضروريتان للإنسان تساعدانه على جلب النفع ودرء الضرر.

ولكن حسن توجيهها. فالشهوة هي كلب الصيد والغضب هو كلب الحراسة فلا تعلم كلب الصيد أن يخطف الطير الأليف الذي يملكه جارك ولا تعلم كلب الحراسة أن ينبح في وجه الضيف[1].

---

(1) عن بحث للدكتور السيد محمد بدوي.

(15)

ينكر الإسلام الفصل بين الضمير والدين في مجموعه:

«ان كلمة الضمير من المصطلحات التي استعملها الغرب حين أراد ن يضع للأخلاق أساسا ومقياساً منفص ين عن الدين، وجرت المحاولة في لاستعاضة عن الدين بوحي الضمير وأن يتخذ من وحي الضمير الأساس لذي لا يخطئ. ولا ريب يختلف الضمير باختلاف الأزمنة أو اختلاف لمبادئ أو اختلاف البيئة أو اختلاف المسافات في البيئة الواحدة. ومن لشبه التي جعلت الناس يؤمنون بمنزلة كبرى للضمير أنه قد شاع في بعض لطوائف أن الضمير قوة قدرية معصومة بطبيعتها والضمير قوة فطرية الا نها تكون بحسب ما تتغذى به من ثقافة وبيئة ووراثة وهي تختلف في الفرد لواحد بحسب اختلاف سنه وتنقله من بيئة الى أخرى وبحسب الكتب التي مده بالثقافة العقلية أو التهذيب الروحي. إذن ليس الضمير قوة فطرية معصومة بطبعها بل هو متأرجح متقلب لا يستقر له قرار»[1].

أما ضمير المؤمن[2] «فهو المضاء بتعليم إيجابي تحدد فيه الواجبات وتنتظم بصورة واضحة والصفة الرئيسية لمثل هذا الضمير أن يتمثل في كل حال وأن يراجع دائما شخصية مشروعة ولا يعرف أبدا أن يخدع نفسه ولا ن يستسلم للاعتبارات التي يعرف أنها غير شرعية.

(16)

يقول الدكتور دراز: يتحدد الإلزام الأخلاقي في القرآن بشرطين ساسيين:

أولهما: أن الفعل الذي يهدف اليه يجب أن يكون ممكنا بالنسبة

---

1) عن بحث للدكتور عبد الحليم محمود.

2) عن الدكتور ترابي.

للطبيعة الانسانية بصورة عامة (أي خاضع لإرادة الانسان).

ثانيها: أن يكون سهل المأخذ في الحقيقة المطلقة للحياة (أي قابلا للتطبيق وغير عنيف).

ومفهوم الواجب في الإسلام يقوم على أساس القاعدة:

أولا: أن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولاهلك عليك حقا فاعط كل ذي حق حقه.

ثانيا: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه.

والواجب لا يفرض على الانسان إلا في حدود استطاعته على الا يرتبط بحالاتنا النفسية أو منافعنا الشخصية فليس هناك أي تكليف مع عدم الاستطاعة «**لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ـ لا تكلف نفسا إلا وسعها**» وليس هناك من أمر حتى الايمان نفسه لم ينظر اليه إلا على أنه إلزام نسبي وقد ترك الإسلام للمسلم حرية الخيار بعد أن بين له الطريقين تبيينا واضحا من ناحية خطرهما وأثرهما على حياته وعلى جزائه وترك له أن يختار ما يريد ومنح له سلطة متساوية على الأمرين وهذا غاية عدل الله سبحانه وتعالى. وليس في أوامر الله إعنات بل رحمة وتخفيف وقبول للاضطرار وفي ضوء هذه القواعد من الإلزام تحقق أمران:

الأول ـ أن لا تكون العقائد والأخلاق مجموعة من المبادئ النسبية التي يمكن أن تتطور وتتطور الى ما لا نهاية بل هي حقائق مطلقة ثابتة يأتي الاستمداد فيها من مصدر أعلى.

الثاني ـ ان ذلك التوازن يحول دون الصراع والتمزق والغربة والضياع لانه يجعل العقل والشعور يعملان معا في اتجاه واحد ويجعل الجسم والروح في طريق واحد ويلتقي فيه المثالي والواقعي والهدف الدنيوي والأخروي.

«ولما كان من العسير أن يقام قانون واحد يمكن أن يفرض بالضرورة على كل الضمائر فقد كان لا بد من اللجوء الى سلطة عليا تفصل في النزاع، هذه السلطة لا تعطى للمجتمع لانها تتعلق بالأخلاقية لا بالقانون.

وان أحدا ما لا يعرف ما هية النفس أو قانون تفتحها وتكاملها إلا الذي خلقها[1]».

ولقد هدى الإسلام الإنسان الى طريق واضح.

ليس طريق أماتة النفس وفرض صنوف العذاب باسم الفناء والنرفانا كالبوذية وليس طريق العدمية وعدم المبالأة تجاه فضائل ومساوئ هذا العالم وليس طريق الاستمتاع بكل ملذات الحياة.

وانما طريق التكامل والوسطية والتقوى: الجامع بين الاعتراف بالرغبات والدعوة الى تحقيقها في إطار من الضوابط الاجتماعية وفق قانون المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي الذي هو مصدر الجزاء في الآخرة.

(17)

في ضوء هذه المفاهيم نرى:

أولا: أن أهمية التفرقة الواسعة والعميقة بين الأخلاق والتقاليد لها أبعد الأثر في الفهم الحقيقي للأخلاق الإسلامية، وان الدعوة الى الفصل بين الضمير والأخلاق عن الدين من زيوف الفكر الوافد، وان الآفة التي تدخل الى النفوس فتفسدها هي سيطرة الهوى والخضوع للشهوة والخضوع للإحساس في الحكم على الأمور بأنها مصلحة أو منفعة.

ثانيا: لقد تحدد في الإسلام الهدف من وجود الانسان على هذه الأرض وهو هدف حقيقي ثابت فيه التزام ومسؤولية وليس عارضا ولا صدفة. وإذا كان الفكر المادي قد عجز على اجابة شافية على ةهذا السؤال لمن طلبوا منه ذلك فقد كلفوه فوق طاقته ومهمته ووظيفته، ان الذين يؤمنون بالعمل وحده لن يصلوا الى ضيء، ولقد تنبه الى ذلك ليونارد دارون حين قال:

إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشدا للسلوك وإذا كانت هناك إرادة

---

(1) دكتور محمد عبد الله دراز.

حرة فلا بد أن يكون هناك شيء خارج العلم.

ثالثا : إن الانسان هو الكائن الوحيد الذي ينزع بمحض إرادته الى مجاهدة ميوله ورغباته وضبط دوافعه ونزواته والتحكم في أهوائه والانصراف في كثير من الحالات عما يشتهيه والنفور من واقعه والتطلع الى ما ينبغي أن يكون في ظل مثل اسمى هو [illegible] الأعلى الذي يميز الانسان عن سائر الكائنات[1].

رابعا : إن الإسلام يدعو الى تهذيب النفس من [illegible]

وتهذيب النفس انما يتقرر في الاسلام بتقوية إرادة الانسان لتتحكم في الشهوات فيقوي الجسم والروح معا ويسيران في طريق الخير وكل ما في الاسلام من تكليفات في حدود الطاقة الانسانية وكل تكليف فيه نوع من المشقة ولكنها محتملة وأدنى ما في التكليفات من مشقات: رياضة النفس على ترك الممنوع والأخذ بالمشروع (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) ومصادر العصيان هي في اتباع الهوى والشهوة وأسباب الطاعات في قطم النفس فتكون الشهوات خاضعة لها.

خامسا : أهمية تربية الإرادة في الاسلام تهدف الى أن يصبح الانسان قادرا على القيام بالتكاليف والعزائم وخاصة منذ الطفولة . والضبط رياضة نفسية. ولما كان مناط المسؤولية هو الإرادة. فلا بد من بنائها حتى لا يسقط الانسان ذليلا تحت سنابك الأهواء والإرادة هي الفارق الحاسم بين الانسان والحيوان والعبادات وسيلة لمعاونة الفرد على تربية الإرادة والوازع الخلقي موجود في أعماق النفس الانسانية.

سادسا : حرص الإسلام على ألا يظهر الخبث بل يستر عن الأنظار. لذلك حث ألا تعلن الرذائل بل تخفى. وتعلن الفضائل ولا تخفى (وهذا هو عكس مفهوم القصة والرواية المسرحية) فلا تنكشف استار الجريمة على الناس ولا تظهر إلا ومعها عقوبتها لأن اعلانها مجردة عن العقاب يفسد الجو الاجتماعي، وظهور الشر يغري باتباعه، فإذا أعلنت

(1) من بحث للدكتور توفيق الطويل.

الرذيلة من غير عقوبتها كان ذلك تنبيها وتعليما للأشرار، لذلك كثيرا ما نجد جريمة وقعت وهي محاكية لجريمة أعلنت من قبل. وكثيرا ما يصرح الأغرار بأن ما ارتكبوه تعلموه من صحيفة أو إذاعة. وقد اعتبر الاسلام إعلان الجريمة جريمة مقترنة بها (جريمة الفعل وجريمة الاعلان).

ونها الاسلام عن المجاهرة:

وهي في أمر الذين يعملون عملا بالليل فيسترهم الله فيصبحون فيعلنونه..

سابعا : أكبر الخطأ هو اخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الانسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية وقد قررت الحقيقة العلمية الأصيلة: ان العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين أو الأخلاق في مجالاتها الروحية والاجتماعية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس.

وفي نظام الكون وفي طبيعة النفس البشرية احساسات ومشاعر لا تخضع لذلك.



الباب الثاني

الانسان مع الآخر

أولا : فطرية الأسرة في مواجهة نظرية دور كايم

ثانيا : حقيقة دور المرأة في المجتمع.

ثالثا : الاعتراف بالرغبات في مواجهة الكبت.



لكي يواجه الإنسان المسلم علاقته من الآخر يقوم إطار جديد من العلاقات والضوابط. حيث تبدأ الرابطة الأولى بين الرجل والمرأة ويتشكل بناء الأسرة وإنجاب الأبناء وإقامة المجتمع الصغير وتحقيق الذات من حيث النسل ومن حيث تحقيق الرغبات الغريزية الطبيعية القائمة في كيان الإنسان. وعن طريق المرأة يجد الرجل السكن والطمأنينة والمودة والرحمة. ثم تتسع دائرة الأسرة فتشمل الآباء والأبناء ومنها نصل الى المجتمع. فيكون دعامته ويكون المجتمع عاملا على إقرارها.

هذه العلاقة بين الإنسان والآخر تقوم على أساس الفطرة ويجيء الأديان السماوية المنزلة فتنظم هذه العلاقة وترسم الطريق الطبيعي للعلاقات ولحركة النمو الذي يقوم على أساسها واستمرارها بناء الخليقة نفسها.

ثم جاءت العلوم الاجتماعية بأهدافها ومتطلعاتها فحاولت أن تشيع الشكوك والريب حول نظرية الأسرة. وجاءت نظرية فرويد تبني للجنس مفهوما يقوم على أساس الكبت. ثم جاءت العلوم الاجتماعية لتتحدث عن نظرية تحرير المرأة على نحو يتعارض مع حقيقة دور المرأة في المجتمع ورسالتها الطبيعية.

الفصل الأول

فطرية الأسرة في مواجهة نظرية دور كايم

لا ريب ان نظام الأسرة من الأنظمة الثابتة في المجتمع الإسلامي. ويرجع ذلك إلى أنها الفطرة التي لا يختلف معها العقل وأنها النواة الأولى لتشكيل المجتمع والخلية الأولى فيه ومن هنا فإن تكوين المجتمع ودراسته لا تكون صحيحة إلا على أساس بناء الأسرة ولقد أكدت الشرائع المساوية وفي خاتمها الإسلام أن الأسرة هي الفطرة «**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**».

«**والله جعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة**».

«وقد أرسى الإسلام بناء الأسرة على الدين. أي طاعة الله وتقواه ومراقبته والتقيد بأمره وحلاله وحرامه في كل شيء». ومن أجل ذلك جعل الزواج نظاما أساسيا له ضوابطه وقوانينه. وحدوده وأوضاعه وذلك حتى يتأكد هذا البناء ويقوم على الأحكام ومن هنا فإن الدعوة الى معارضة نظام الأسرة وإثارة الشبهات حوله والقول بأنه مضاد للفطرة هو من المحاولات الخطيرة التي تستهدف هدم هذا الجدار الضخم الذي يقوم عليه بناء المجتمع.

ولا ريب أن أزمة المجتمع الغربي وأزمة الانسان الحديث وحضارته تتصل إلى حد بعيد بالانهيار الذي حدث للأسرة نتيجة عوامل متعددة منها انصراف المرأة عن البيت. وفساد نظام الزواج . وظهور التقاليد

والعادات الخطيرة التي أثرت على هذا النظام ومنها نظام صديق العائلة والخلائل واتساع نطاق البيوت المستحدثة والخاصة خارج عش الحياة الزوجية.

ولقد كانت مدرسة العلوم الاجتماعية من وراء الدعوة الى تحطيم الأسرة بازدراء أنظمة الزواج وضوابطها المشروعة والدعوة الى العلاقات الحرة والحملة القاسية التي تصف الزواج بأنه نظام عتيق ومحاولة القول باجراء التجارب بين الرجل والمرأة قبل الزواج الشرعي وغير ذلك من أساليب ودعوات شجع عليها ومهد لها تيار ضخم من الفلسفة والفكر الاجتماعي المتحلل الذي حمل لواءه الفلاسفة اليهود ووسد لذلك سيل جارف من القصص والروايات التي تدعو الى التحرر من نظام الزوجة والأسرة وتدعو الى الانطلاق والى ظهور المرأة التي يتصارع عليها الرجال والدعوة الى تصوير الحياة الزوجية بأنها تصل الى حالة تقتضي التغير وغير ذلك من المحاولات التوجيهية المسمومة التي تبثها التلمودية الصهيونية من خلال القصة. وقد زاد هذا الاتجاه حدة بتأثير نظرية فرويد في الجنس وسيطرتها على ذلك العالم الروائي الخطير البعيد الأثر في العالم الواقعي.

° ° °

والإسلام لا يعترف بأي نظرية عن تطور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة في عهد البشرية الأولى ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادي، اذ أن القرآن يخبرنا أن الأسرة تكونت في بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الأجيال.

وقد فشلت كل النظم المفتعلة فشلا ذريعا . وكل محاولة منحرفة للقضاء على الأسرة وكل تجربة لشل الأسرة سيكون مصيرها الفشل وان نجحت نجاحا جزئيا.

«ولو لم تكن الأسرة[1] صادرة عن الفطرة الكامنة في الطبيعة

(1) دكتور عثمان خليل عثمان.

البشرية لاستطاعت المحاولات المتكررة على مر التاريخ أن تقضي عليها .
فقد عمدت النظم السياسية على مر التاريخ إلى القضاء عليها بمحاولات مختلفة. ومنها استقطاب ولاء الفرد للدولة. ولم يكن للاسرة دور في جمهورية أفلاطون. كما حاولت كثير من الفلسفات والنظم السياسية أن تجتذب الولاء من نطاق الأسرة كالمزدكية في القديم والنازية والشيوعية في التاريخ الحديث وكان الهدف هو خلق الولاء المطلق للدولة للتقليل من أهمية الأسرة.

وقد استهدفت هذه المحاولات الى تخطي الكيان الأسري والتخلص منه. وإقامة العلاقة بين الفرد وبين المجتمع رأسا. غير أن هذه المحاولات لم تحقق نتائج ذات أهمية وبقيت الأسرة وستبقى صامدة في وجه مختلف هذه التيارات التي تتمثل في المجتمعات الرأسمالية في محاولة اعتبار الزواج مجرد رابطة عقدية مدنية كسائر العقود المدنية وتحريرها من السند الديني والعقائدي. بينما في المجتمعات الشيوعية والماركسية تحاول المذاهب أن تسقط الأسرة عن طريق إعلاء شأن المجتمع حيث يجري تجاهل الأسرة والضغط عليها حتى تزول. ولا تكون فاصلا بين الفرد والدولة «وحتى لا ينال التعلق بها والارتباط بعواطفها من تعلق الفرد بالجماعة الكبرى وولائه لها» ويجري هذا مع نفس الاتجاه الذي رسمه أفلاطون في الجمهورية «من أنه خير للشباب من ولادتهم أن ترعاهم الدولة بدلا من الوالدين»[1].

ولقد كانت هذه المحاولات التي ارتبطت بالعصر الحديث والحضارة في الغرب بعيدة الأثر في الأخطار التي تعرضت لها الأسرة والتفكك الذي أصابها. وكان مصدر ذلك كله هو محاولة القضاء على فطرية الأسرة وتصويرها بأنها كيان يمكن تجاوزه وقد شارك المجتمعان الغربي والماركسي في هذا المفهوم وهذه المحاولة وان اختلفت التفسيرات.

وكان أخطر هذه المحاولات «تغيير» وظيفة المرأة وهدم وظيفتها الأصلية ودفعها الى مجال الحياة الاجتماعية والعملية دون تقدير لاهمية

(1) دكتور عثمان خليل عثمان..

دورها في التربية وبناء الأسرة ودعم هذه الخلية الاجتماعية الهامة.

ومن هنا نجد محاولة دور كايم الواضحة الى هدم الأسرة:

انه لا يعترف أن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية بل العكس في نظره أقرب الى الصواب يقول: ان الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسري بوجود العواطف التي يكنها الآباء للأبناء ويشعر بها الأبناء تجاه الأباء كما يفسرون نشأة المزاج بالمزايا التي يحققها لكل من الزوجين وفروعها والألم بما يحدث من غضب الفرد اذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم، ويصل الى القول بأن بعضهم أراد تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو.

ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الانسان[1].

ويقوم هذا المفهوم على ثلاثة أسس:

أولا : فكرة التطور المطلق الدارونية التي تلغي فكرة الثبات.

ثانيا : فكرة الجبرية التاريخية التي تلغي إرادة الفرد.

ثالثا : تفسير الانسان تفسيرا ماديا بل حيوانيا.

أما ما يورده دور كايم عن أن التاريخ يوقفه على أن هذه النزعات ليست فطرية في الانسان فهو ما لم يتعرض له أو يضرب عليه الأمثلة.

غير أن المفهوم هو أن دور كايم تلميذ للمذهب الماركسي وان المدرسة الاجتماعية تقوم على أساس التفسر المادي للتاريخ وتذهب الى إلغاء الأسرة أو العمل على الغائها من أجل اعلاء شأن المجتمع وهو بذلك يتجاوز الفطرة وسنن المجتمعات الأصيلة. ووفق هذا الفمهوم يمكن تفسير الأزمة التي تمر بها الأسرة الغربية والمجتمعات الغربية بشقيها.

---

(1) عن كتاب التطور والثبات والنص من كتاب دور كايم قواعد المنهج في علم الاجتماع.

(2)

إن مفهوم المدرسة الاجتماعية ليس هو التفسير الوحيد وليس هو التفسير الصحيح، ولكنه هو التفسير الذائع الذي تعمل كل القوى على فرضه ونشره على مختلف مناهج الجامعات والدراسات ومحاولة تصويره بأنه منهج علمي، في حين انه ليس أكثر من مجموعة فروض فلسفية يقوم على أسس فروض امتدت من مذهب دارون، وفروض امتدت من التفسير المادي للتاريخ، وفي مقابل مفهوم المدرسة الاجتماعية أبحاث أخرى أكثر عمقا، وأصالة في ميدانها من حيث أن حملة لوائها أطباء وعلماء بيولوجيا ورجال يخضعون فكرهم للعلم التجريبي، وليسوا فلاسفة أصحاب فرضيات مادية فحسب، ولقد ظهرت هذه الدراسات التي تنقض نظرية المدرسة الاجتماعية في بيئتها ومجالها وعصرها، ومع ذلك فهي لا تحظى بالشهرة والانتشار مثل ما تلقى نظريات دور كايم الفيلسوف اليهودي.

ومع تجاوز نظريات المدرسة الاجتماعية للفطرة، وبروز التطبيقات في المجتمع الفردي بوضوح فان المسلمين والعرب في أفق الفكر الإسلامي لم يحسموا موقفهم.

وأمامنا صور متعددة لا تتوقف مما أصاب الأسرة الغربية من تفكك يهدد بالقضاء على المجتمع بأسره.

تقول مجلة تايم:

ان الأسرة الأمريكية غارقة في شتى ضروب المشاكل الاجتماعية بما أصبح يهدد مستقبل الأمة الأمريكية بأسرها، فقد جرى بحث نحو أربعة آلاف متخصص في شؤون الأسرة والطفولة.

وكانت نتيجة البحث أن الأسرة لم يعد لها الآن وظيفة ولم تعد بالضرورة الوحدة الأساسية في المجتمع وان تحلل الأسرة ينتهي الى تحلل المجتمع بأسره وان هذا هو شبيه بما حدث فعلا في أثينا في القرن الذي أعقب الحرب البولونيزية وفي روما في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد،

وتتساءل مرجريت ميد (من أشهر علماء الانثرولوجيا) هل ستبقى الأسرة ويجيب (ريشرد فارسون) انه لم يعد للأسرة وظيفة.

وهذه هي النتيجة التي يتحقق بها هدف بروتوكولات صهيون وحين ينقل هذا الفكر الواحد الى محيط الفكر الإسلامي ويقدم هذا الزيف كله ليطرح في أفق المجتمع الإسلامي يظهر الهدف واضحا . وهو تقويض الأسرة كمقدمة لتقويض المجتمع ، ، ولا ريب اننا نعرف أن طبيعة المجتمع الاسلامي تختلف عن طبيعة المجتمعات الغربية من حيث تكوينها ومن حيث مفاهيم الزواج والطلاق والعلاقة بين الرجل والمرأة. ومسائل الزي والزينة.

ويؤمن الفكر الإسلامي ان الأسرة هي البؤرة الوحيدة لتشكيل الحياة العاطفية والجنسية والاجتماعية للمتزوجين ، وأن الخلل يأتي من خرق هذا الجدار ومن نشأة علاقات جنسية خارج الأسرة، ومن وراءها وشيوع ذلك سواء بالنسبة الى حياة ما قبل الزواج أو بالنسبة الى فترة الحياة الزوجية وكل هذا ولا ريب اضعاف للأسرة وافساد لتكوينها.

ولا ريب ان نظام الأسرة في أمة ما يرتبط ارتباطا وثيقا بمعتقدات هذه الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقي وتاريخها، وما تسير عليه من نظم في شؤون الاقتصاد والسياسة والتربية والقضاء[1].

(3)

أقام الاسلام الأسرة على مفهومها الصحيح، حين قرر أن الأسرة هي الفطرة وان اللقاء بين الرجل والمرأة سكن ومودة ورحمة، وان طبيعة البشرية قائمة على هذا اللقاء من أجل دوام الاستمرار والعمران ولذلك فقد قرر الاسلام أن الزواج سنّة وان من رغب عن هذه السنة فهو ليس مسلما. ولما كان هذا اللقاء الذي فرضته طبيعة الرجل وطبيعة المرأة لا بد أن يتم وقد

(1) دكتور علي عبد الواحد وافي.

اعترف الاسلام بهذه الرغبة الصحيحة، فإنه قد رسم لتحقيقه وتنفيذه اطارا واسعا محكما أحاطه بكل عوامل القوة والمحافظة وحماه من الأخطار ولذلك فان الخروج عن منهج الزواج في العلاقة بين الرجل والمرأة هو أول المخاطر.

ولم يقف النظام الاسلامي عند الزواج وحده ، بل رسم خريطة كاملة للصلات المختلفة المتعددة بين الرجل والزوجة وبين كل منهما وبين الأبناء وبينهما وبين الآباء وعنى بالطفل وهو جنين في بطن أمه فأقام له نظاما كاملا : شرع للأم الفطر في رمضان إذا خشيت عليه، واذا ولد فيسمى بأحسن الأسماء، ويكرم ويحتفل به، وتقام الأحكام المختلفة لرضاعته وفطامه وحمايته ووقايته حتى يكبر ويأتي دور الوالدين في اعداده والرحمة به وتوجيهه وتربيته وتعليمه وتأديبه على مناهج القرآن وفرض على الوالدين حماية الأبناء ووقايتهم ووقاية الآباء أنفسهم من خطر التقصير في إداء هذه المسؤولية.

وكشف عن ان الطفل يولد على الفطرة وقد نظم الاسلام كل ما يتصل بالشراب والطعام والثياب وحفظ اللسان والبصر والسمع والجوارح والطهور وقضاء الحاجة وغسل اليدين وتدخل في الثوب مادته ونوعه وتفصيله واستعماله وذلك كله من أجل حماية الانسان وصيانته وبناء الأسرة وحمايته من الانهيار والانحراف وأوصى الإسلام بدعوة الأبناء الى الاخشيشان وتعلم الرمي وركوب الخيل.

وكان عمر يقول للابناء: اخشوشنوا وتمعددوا وإياكم ولبس الثوب من الحرير وزي الأعاجم.

وفرض الإسلام على الوالدين معاملة الأبناء بالرحمة والحزم معا حتى لا يقعون في أزمة الاضطهاد أو ازمة التدليل، وذلك في إطار ما كره الإسلام لاهله وما أحب، وبعيدا عن الترف والزينة والاسترخاء والميوعة وأن يتعلم الأولاد الرماية وأن يثبوا على الخيل وثبا وتنشئتهم على مكارم الأخلاق والصدق.

وعمد الإسلام الى دعم روابط الأسرة بين الأب والأم، وبين الأب والأولاد وبين الأولاد بعضهم بعضا، وحمى الشيوخ الكبار من الأباء والأمهات وحافظ على كرامة الأسرة وعرض أبنائها.

وجعل الأب هو القدوة الأولى ، وهو النموذج الحي للأبناء وكذلك الأم بالنسبة للبنات وجعل رقابتهم دائمة وحوارهم دائما في كل الأمور في نطاق المحبة والحرص. كما نظم الإسلام قاعدة الارتباط تشريعا بإيجاب النفقة والبر والوصية والميراث وأقام قاعدة العلاقة بين الرجل والمرأة: على المودة والرحمة وفرض على الأبناء البر والاحسان بالوالدين وقرن العبودية لله وتوحيده بطاعة الوالدين ودعا الى رعاية أخوة ذوي القربى.

وأقام منها كاملا واسعا مرنا لدعم هذه الخلية الأساسية وحمايتها، وقرر أن المجتمع لا يمكن أن يقوم على أساس صحيح إلا إذا صح نظام الأسرة وكانت المجتمعات قبل الإسلام تتزوج المرأة أما لمالها أو لجمالها أو لحسبها فجاء الإسلام فدعا الى زواج المرأة لدينها.

وحرص على هذه العلاقة العميقة بين الزوجين وحماها (علاقة الافضاء بين الرجل والمرأة) ودعا الى التخير في الزواج وجعل هذا من حق الآباء على الأبناء.

ومن هنا كان حذر الإسلام من الزواج بالأجانب.

وقد جعل الإسلام المرأة عماد الأسرة ونقطة الارتكاز فيها ودعا الى ضرورة تعليمها وإشراكها في حياة الأمة ودعا الى بذل عناية مضاعفة في تربيتها حتى تكون فاهمة لدورها مؤمنة بمسؤوليتها وواجبها مفرقة بين الرجولة والأنوثة. وذلك في ضوء مفهوم القرآن حتى لا تقع ضحية التقليد أو أخطار المناهج الوافدة أو عادات وتقاليد المجتمع الضارة.

والإسلام هو أول من أعطى المرأة حقوقها الكاملة التي لم تحصل على بعضها في مجتمعات أوروبا وأمريكا إلا في العصر الحديث.

ولقد عرف الغربيون أخطار الأنظمة التي خرجت عن مفهوم الدين،

والتي أفسدت الأسرة ومنها ظاهرة المخادنة والمصادقة في المجتمعات الأوروبية.

وقد أشار برتراند برسل الى ذلك حين قال: هناك شرط مهم يساعد على دعم الحياة الزوجية هو خلوها من النظم التي تسمح بالمصادقة والمخالطة بين المتزوجين من الرجال والنساء سواء في العمل أو في المناسبات والحفلات.

«إن العلاقات العاطفية بين المتزوجين وغير المتزوجين من رجال ونساء خارج دائرة الحياة الزوجية هي سبب شقاء الأزواج وكثرة حوادث الطلاق وليس عسيرا أن نجمع أمثلة كثيرة عن البيوت التي انهارت بسبب اتصال الأزواج والزوجات بغير شريكاتهم في الحياة الزوجية».

ومن هنا فلا ريب في أصالة نظام الأسرة ومن هنا جاءت صلابته في مواجهة الأحداث وفطرية نظام الأسرة لا تأتي فقط من غرائز الجنس «وانما تأتي من عوامل كثيرة متعددة من عواطف الأمومة والأبوة المتعددة من مودة وحب ورحمة»[1].

ويرى كثير من الباحثين مدى أهمية نظام الميراث الإسلامي في دعم كيان الأسر «فقد حفظ المودة بين الأجيال حيث في الإسلام لا يقتصر الارث على الابن الأكبر (كما في الغرب) بل يمتد الى العصبيات وأصحاب الفروض وذوي الارحام.

ويقرر كثير من الباحثين أن المجتمع مسؤول عن حماية الأسرة وتوفير أسباب الاستقرار ومساعدتها على القيام بدورها واداء وظيفتها».

ولقد كان لتنظيم الاسلام للروابط المتعددة داخل الأسرة أبعد الأثر في حمايتها من الصراع الداخلي ومن التمزق فقد أقام نظاما لكبار السن ولمطالب الشباب ولحاجات الأطفال وللتكافل الاجتماعي وللفقراء والبعداء. أما في الغرب فقد سقطت هناك دعامات من أخطر دعائم الأسرة:

---

(1) دكتور عثمان خليل: بحث عن الأسرة (مجلة الوعي 1972).

أولا : سقطت علاقة الآباء بالأبناء وتوقف الآباء عن تقديم المعونة لابنائهم.

ثانيا : سقطت الغيرة من الرجل لزوجته فأصبح لا يبالي علاقاتها الخاصة.

ثالثا : سقطت علاقة الأبناء بالأسرة وجرت العادة على الانفصال السريع.

رابعا : تشوهت نظرة الاسرة الى الأب ووجهت اليه كثير من سهام النقد.

(4)

إن المحاولات التي ترسمها القصص والمسرحيات الخاضعة للتحليل النفسي الفرويدي والأبحاث التي تسوقها مدرسة العلوم الاجتماعية ونظريات الوجودية وغيرها عن الأدب. إنما تستهدف إسقاط هذا الركن الركين في بناء الأسرة.

والواقع أن هناك حملة قاسية في الغرب على وجود الأب في الأسرة ومحاولات متعددة لسحب مقعده فإذا عرفنا الهدف من ذلك. كنا أكثر يقظة لفهم هذا المحظور.

ذلك أن الهدف الذي ترمي اليه بروتوكولات صهيون بشأن الشباب هو عزلهم عن الآباء والاساتذة وكل ما يتصل بالتجربة أو الخبرة في محاولة لكسر الارتباط الزمني والامتداد الاجتماعي والاتصال الحضاري بين الأجيال.

ومن هنا وصفت هذه التجربة والخبرة بكلمة الوصاية البغيضة. وصورت سيطرة الأب وتوجيهه بأنه من أعمال التخلف والرجعية. ورفعت اعلام الحديث عن حق الأبناء في الحرية الكاملة في الاختيار والعمل

والقبول والرفض بدعوى أن توجيه حياتهم من شأنه أن يحول دون استكمال بناء شخصياتهم.

ولقد حرصت مناهج الإسلام على تكريم الأب ووضعه في مكانه الصحيح من القيادة وحالت دون تعدد مراكز السلطة داخل الاسرة بين الوالدين أو الأخ الأكبر إيمانا بأن ذلك من شأنه أن يحفظ الأسرة من التمزق والحيرة وتشتت العواطف وتبدد الأمن النفسي، الذي يستمد من وجود الأب في مكان القيادة وباعتباره المصدر الأساسي للسلطة ولما كان الأب هو الذي يضع أسرته في المجتمع ويحدد مكانها في النسيج الاجتماعي فانه من المستحيل هدم هذا الدور أو اقصاؤه لا بتزييف خطير.

ولقد يكون مصدر كثير من الخطر على هذه المكانة ما يتجاوز له بعض الآباء مسؤوليتهم ويفرطون في أداء دورهم على الوجه الصحيح مما يفرض نفوذا آخر للأم أو للأخ الأكبر ومما يهدد كيان الأسرة ويزيل أمنها النفسي ويشتت عواطفها.

وكذلك حدد الإسلام مسؤولية الآباء في تنشئة أبنائهم وتبصيرهم بمستقبلهم، والعمل على اكتشاف ميولهم ومواهبهم، وحث على أن يعامل الابن معاملة قائمة على الأمن والخوف معا، وغلى الأبوة والأخوة معا، ولكنها قائمة على الثقة على كل حال مما لا يوجد خلقة مفقودة أو أرضا محروقة بين الأباء والأبناء، ليفئ الابن الى ابيه ويداوم الأب سؤال ابنه ومحاورته في كل قضايا حياته يوما بعد يوم، هذا الجو من الحب الذي ينشأ فيه الأبناء يجعلهم أحسن حظا، وأسعد مستقبلا، ولذلك فان على الآباء والأمهات إلا يظهروا خلافاتهم ولا يكشفوا الخلافات والخصومات التي تقسم الأبناء بين مؤيد أو معارض، فان تكرار ذلك من شأنه أن يخلق روح عدم الثقة ويزعزع الطمأنينة، ويرسم للمستقبل سحبا راكمة، وعلى الأب أن ينمي في ابنه رغائبه ويدفع به الى الأمام بتربية روح الثقة في نفسه واكتشاف ميوله ومواهبه وإرشاده الى الطريق الصحيح.

فإذا أراد الشاب أن يقدم رأيا في مسألة ما تتصل بحياته في البيت أو

المدرسة يسمع له في رفق ويستجاب له بما يعالج المحاذير التي تعرض ولا يواجه بعنف. أو يقال له أنه تدخل في غير ما يعنيه فإن ذلك التصرف من شأنه أن يخلق فيه طابع الانطواء الذي يجعله عاجزا عن المجاهرة برأيه وفكره.

ولقد يفسح للشاب أو للفتاة أفق التفكير الحر والحوار على أن يجرى ذلك كله في اطار المحبة والود والاحترام للآباء.

ولقد دعا الإسلام الآباء الى معاونة الأبناء على اكتشاف ذواتهم وحمايتهم من صدمات الحياة وتأمينهم من الفشل في المستقبل وقد قام كثير من الباحثين في العصر الحديث (ومنهم الدكتور ستانلي كوبر سميث) بدراسة عدد كبير من الرجال والنساء الذين صادفوا نجاحا في حياتهم فظهر أن العنصر الأساسي الذي يشترك فيه هؤلاء هو معونة الآباء لأبنائهم في اكتشاف أنفسهم وتقدير ذواتهم فيما فشل فيه غيرهم.

ولما كان هذا الدور الهام الخطير كله موكول الى الأب. وكان الأب هو مفتاح شخصية الأبناء فان مدرسة العلوم الاجتماعية تحمل عليه حملات عنيفة وتثير عليه أبناءه حتى تفسد وجوده وكيانه. ولقد وصلت هذه الحملات الى قول بعض الفلاسفة الاجتماعيين أن الأب هو أكره الشخصيات في الأسرة وأكثرها شرا.

ولكن شخصية الأب في المجتمع الأوروبي قد عجزت فعلا عن أداء دورها وبذلك استوجبت كثيرا من اللوم. فقد انصرف الآباء الى أهوائهم الخاصة وإقامة علاقات خارج الاسرة. وبذلك أفسدوا إتجاه الأم وشكلوا للأبناء صورة مزرية وبذلك ينخر النموذج ويتلاشى المثل القدوة الذي هو في نظر التربويين أخطر أثرا من المعلم ومن النموذج التاريخي.

نعم. لقد فسد النموذج الأبوي الغربي وكاد النموذج الأبوي الشرقي أن يفسد. وهي نفس الأخطار والمحاذير التي يتعرض لها الآباء في الغرب والتي هي التقصير في أداء المسؤولية الكبرى والانسحاب من قاعدة

المواجهة في الأسرة . ومن الإشراف والرقابة بروح المحبة والحزم في نفس الوقت.

ولا ريب أن لانصراف المرأة الى العمل واخلاءمكانها في الأسرة أبعد الأثر في قيام فراغ رهيب لا يمكن ملؤه بأي عامل آخر أو وسيلة أخرى، ... هو الحنان الأمومي مع الرعاية الأبوية المنسحبة من مكان القيادة.

ومن هنا جاءت تلك الأزمة الخطيرة: أزمة الأبناء الذين لا يرون آباءهم ولا يجرون معهم حوارا واسعا وإنما يلقونهم في أعقاب سهر طويل أو نوم طويل وهم في حالة من حالات الفساد الفكري والاضطراب العصبي وعدم القدرة على اعطاء القدر الكافي من المودة والاستجابة والمراجعة للقضايا النفسية والاجتماعية المثارة يوما بعد يوم.

ولقد حرصت حملات الغزو الفكري على الاستفادة من هذا المفخر بتلك الحملات التي تركز على افساد العلاقة بين الآباء والأبناء والقضاء على الثقة بينهما وخلق روح من الشك واستنقاص الاحترام وخاصة ما تحاول بعض القصص من تصوير الأب بصورة شرسة، ويرجع هذا بالطبع الى تجاوز الآباء لحدود مهمتهم وخطئهم في عدم مصادقة أبنائهم.

ولقد أراد بعض الآباء الذين فسدت علاقتهم الاجتماعية وأقاموا لهم علائق خارجية على أن يبرروا موقفهم هذا بقولهم أنهم يتعاملون مع أبنائهم على أحدث مناهج التربية وهي اطلاق الحريات للأبناء لاختيار الوسائل والطرق التي يرونها دون تدخل.

وهذا زيف كبير وتمويه خطير، فان اطلاق الحريات هو أساس من أسس الإسلام في التربية ولكنه لا يجيء إلا بعد مرحلة بناء القاعدة النفسية والاجتماعية للشخصية وبعد إقامة الركائز المدعمة التي تمكن الشباب من الفهم والحكم والاختيار. إما أن تدفع بالأبناء الى الاختبار في أول الشوط دون أن تعلمهم العلوم في لجج الحياة أو تطلعهم على الأساليب أو تحيطهم علما بالمخاطر أو تحذرهم من الأخطار ، فإن ذلك معناه الوحيد هو جريمة القاء الأبناء في النار التي تحرق واليم الذي لا يعود.

ومهما يكن وراء الآباء من مسؤوليات على أخطر مستوى فانها لا تبرر مطلقا هذا الموقف ولا تمنع من المحاسبة على هذا التجاوز الخطير للمسؤولية الأولى الخاصة ببناء الأبناء ودعم الأسرة.

وإذا كان في الامكان ان تكون الرعاية الأبوية يسيرة في عصور ماضية في ظل عوامل مختلفة تخلق الشخصية وتحميها ، فإن عصرنا هذا بمحاذيره وأخطاره: المدرسة والشارع والصحيفة والسينما والقصة، إنما يستدعي المتابعة والإجابة عن عشرات الأسئلة اليومية التي عندما يعجز الشباب على الحصول على إجابتها من مصدر الثقة وهو الأب يلجأ إلى مصادر أخرى ربما أدت به الى الانحراف ، كذلك فان مهمة الأب أساسا أن يبني زوجته على قيم الاسلام ويشكلها في إطاره، وذلك حتى لا تختلف وجهات النظر فتخلق الحيرة في نفس الشاب الذي يجد إجابة مختلفة للشيء الواحد عند الأب والأم، بل ربما وجد الغمز والسخرية من كل منهما بالآخر، وقد أثبتت التجربة أن الأبناء الذين ينشأون في أسرة ذات عقائد راسخة كانوا ما كانت يكتسبون الكثير من وراء هذه البيئة. كذلك فإنه إذا قامت دعائم الثقة بالحب والاحترام معا بين الأب والأبن فان أي خلاف قد يقع وسيقع خلاف كبير في وجهات النظر فإن ذلك سوف لا ينقص مكانة الأب في نظر ابنه وسيظل معترفا له بالفضل والاحترام.

ولقد دعا الإسلام الى هذا المعنى وطالب بتربية الأبناء ليس على آراء الآباء ولكن على الأهداف الثابتة للاسلام نفسه، فنحن لا نربي جيلا على مفاهيم جيل آخر، فإن من شأن الأجيال التجاوز والخطأ، ولكن على كل جيل أن يعاد به الى الأصول والمنابع الأصيلة، الى القرآن نفسه الذي يعين تشكيل الأجيال فلا يكون الأبناء ممن وجدوا آباءهم على أمه فكانوا على أثارهم مقتدين ولا يخلق ذلك عندهم حقداً أو كراهية.

«وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا».

أي ان تصحح الطريق انما يكون بالرجوع الى الأساس الثابت

الاصيل، دون أن يترك في نفس الأبناء أثره أو خصومة للآباء الذين ربما قد أخطأوا الطريق أو فشلوا في الوصول الى الحقيقة.

إن الإسلام يدعو الآباء الى بناء أبنائهم ليس على مفاهيمهم أو تطبيقاتهم ، ولكن على أهداف وقواعد وشرائع الإسلام الأساسية.

وفي ظل هذا المفهوم يجد الأبناء اليوم الإجابة عن السؤال الحائر: لماذا لم يحقق آباؤهم في هذا الجيل من الأعمال ما يحول دون الأخطار التي وقعت، سوف يجد الأبناء أن آباءهم لم يلتزموا أصول الإسلام وهذا مصدر الخطأ، وإن عليهم أن يعودوا الى هذه الأصول فهي وحدها الضوء الكاشف على طريقهم والمحرر لهم من أخطار الواقع القائم الآن.

إن الإسلام في أصوله وقيمه هو الذي يستطيع أن يبني طموح الأبناء الى إقامة حياة أفضل، وعزائم الإسلام وبناؤه للارادة هو وحده البديل للواقع القائم ولقد يحاول رجال المدرسة الاجتماعية والفرويدية أن يقدموا تحملات خطيرة لتحطيم العلاقة بين الآباء والأبناء.

وتصويرهما بصورة السيطرة والوصاية وغيرها من عبارات لا حقيقة وراءها ولا مصدر علمي لها، بينما تذهب أبحاث علماء الطب والبيولوجيا ، وهي أبحاث تجريبية لا فلسفية الى أن الكثير مما أصاب الأطفال بالعصاب النفسي إنما يرجع الى ضعف السلطة الأبوية لا العكس.

وقال كثير من هؤلاء الباحثين: الواقع ان منشأ الكثير من الاضطرابات النفسية لدى الأطفال انما هو نتيجة الارتياب الذي أصاب الكثير من الآباء حول الطريقة المثلى في التربية مما جعل الكثير من الأبناء ينشأون في كنف أسرات يجهل الوالد فيها كل شيء عن التربية. وأنه لوكان لدى الآباء الثقة في أنفسهم لكانوا أقدر على تربية أبنائهم.

ذلك أن الشك الذي يخيم على عقول الآباء سرعان ما ينعكس على عقول الأبناء فلا يلبث الأطفال أن يقعوا فريسة سهلة لوساوس القلق والشك والخوف والارتياب.

وليس أقدر من الآباء والأمهات على إعادة روح الثقة بالنفس الى الأبناء وما لم يحدث فسيظل عدد الأطفال المصابين باضطرابات نفسية يتزايد يوما بعد يوم..

الفصل الثاني

حقيقة دور المرأة في المجتمع

إن الصيحة الضخمة ذات الدوي الشديد في العالم كله في العصر الحديث باسم تحرير المرأة لم تكن وجهتها خالصة لدفع المرأة الى الامام أو تحقيق رسالتها أو تأكيد شخصيتها بقدر ما كانت دفعا لها الى الاتجاه الذي رسمته الحضارة : الأهواء والرغبات والقوى الكبرى.

ويمكن أن يقال بأن المرأة من وجهة كونها انسانا ، كانت ضحية من ضحايا هذا الاضطراب الاجتماعي الذي ساد المجتمع العالمي والغربي على وجه الخصوص. فقد كان الهدف ليس اخراج المرأة من قيودها ، بل إخراجها من فطرتها ودفعها الى العمل ، حيث لا تجد من قواها ما يمكنها ، وإلى التعليم على مناهج لا تصلح لها ، ومن التخلي عن مكان السيادة والعمل الحقيقي والمسؤولية في داخل البيت من أجل الأبناء والزوج ومن أجل كرامة المرأة وأصالتها.

ومن خلال فهم بناء الإنسان نجد أن المرأة أخرجت عن فطرتها ورسالتها وزينت لها الطريق المؤدية الى تدمير كيانها والى تمزيق الأسرة ، وتمزيق نفسها وإلى التأثير الخطير على المعطيات التي يتطلع اليها الزوج من حيث أن الزوجة سكن ورحمة وعطاء.

ولربما كانت حركة تحرير المرأة في الغرب تستهدف حقيقة تحريرها ولكن العوامل المختلفة والقوى الخفية حوّلت هذه الحركة الى النحو الذي أخرجها من طريقها الأصيل ودفعها الى مجال التمزق والاضطراب.

لقد كان من نتيجتها أن تفككت جميع روابط الأخلاق وانحلت عرى حوافظها المعنوية، وبدت هذه الكارثة الخلقية التي حلت بالبيوت، لم يكن الذين يدعون لتحرير المرأة والمطالبة باستقلالها يرمون أن يقضوا عليها بأن تعيش على هامش الجماعة كما هي اليوم، خارج دائرة الزوجية وأن تقتصر على أن تكون أداة شهوانية ، فإذا لم تعد تصلح لذلك نبذت الى عالم الحرمان مع أولادها الطبيعيين وأن تتبع هذه الإباحة انتشار العزوبة وإقفار البيوت وذيوع الأمراض السرية وقيام نوادي العرى التي يجتمع فيها الرجال والنساء عرايا على حالة تأباها الكرامة الإنسانية.

وحيث كان ينتظر أن يرتفع مستوى الأداب ورواج سوق الزواج وتوافر أسباب السعادة في البيوتات، فإن الذي حدث هو تدهور مروع في الأداب العامة وانتشار مفزع لمبدأ العزوبية وصار من الأمور المألوفة هروب الشابات من دور أهلهين.

وطمت هذه الأحوال وتفاقمت وأصبحت جزءا من التدهور الأوروبي العام الذي أصاب الانسانية في هذا العهد الأخير، فإذا اعتبرها الاجتماعيون من العلاقات المنذرة بقرب انهيار صرح المدينة الراهنة فلم يعدمهم الصواب لانه لا يعقل أن تنقلب الحياة الإنسانية الكريمة إلى مثل هذا الحظيظ من الدنس والاسفاف.

وقرّ في النفس أنه من الخير للانسان أن يعيش حرا بعيدا عن جميع التبعات، للتحصيل على أكبر قدر من المتاع المادي بأيسر الوسائل وأهونها عليه. فأول ما فكر فيه من الأحاييل لجذب النساء إلى هذا المستوى، أن نصّب نفسه مدافعا عن حقوقهن فأخذ ينشر في ذلك أقاصيص وكتبا، وأكثر من ذلك حين اتخذه بعض الكاتبين ديدنا لهم. ومن ناحية أخرى الى جذب المرأة خارج بيتها، وقصر سلطانها، فأكبر من شأن الملهيات والملاعب الى حد أنه عدها من أركان الرقي البشري، واستهتر في التنويه بالراقصات والممثلات والخارجات عن التقاليد، فجعل منهن نجوما وكواكب، ونشط من حركة خروج المرأة من حدودها إلى حد أنه أقام

مباريات لتوزيع ألقاب ملكات الجمال على اعلاهم كعبا في تناسب الأعضاء. ورضي كل رجل لبناته أن يخرجن عاريات الصدور والسيقان والظهور، وأن يخاصرن الشباب في دور معدة لذلك، وأخذ يشجع ذلك بحضوره اليها وتوزيع الجوائز والألقاب على المتباريات فيها. وزاد فأسس المدارس لتخريج الراقصات والممثلات والمغنيات ، وأظهر في سبيل ذلك كرما حاتميا حتى قدّمه على الضروريات من ضروب التعليم الأخرى، فعل الرجل كل هذا وهو دائب ليتم احداث انقلاب يرجو من ورائه أن يفلت من قيود الأسرة وتكاليفها بما يجده معروضا أمامه مما يقوم مقامها. والمرأة تنقاد له في كل هذه الانحرافات خاضعة شأنها في كل ما قادها اليه من المواقف حتى تم له ما أراد.

وإن من الذين يعملون لاحداث هذا الانقلاب رجال لا يدركون خطورة نتائجه على المجتمع ، فهم مسوقون بعوامل ليس في امكانهم أن يدرسوها دراسة تحليلية ، ومنهم مخدوعون فيه يتوهمونه اصلاحا وتجديدا ولا يطيعون من يجادلهم فيه، فيعدونه رجعيا ، وهؤلاء يغدرون شأن كل المسخرين في كل حركة قوية»[1].

ويعني هذا في أقل قدر من التعبير أن هناك قوى خطيرة كانت وراء حركة تحرير المرأة تريد أن تضعها في المكان المناسب للأهداف التي رسمتها نظريات العلوم الاجتماعية.

الهدف هو تغيير قوانين العلاقات الطبيعية والاجتماعية بين الرجل والمرأة وسوقها في طريق جديد يخالف ما رسمته لها الشرائع والأديان السماوية، وإعادة الطوابع الوثنية والإباحية القديمة في صور لامعة براقة ومن هنا كانت صيحات التبشير بالجنس، والمساواة وحق المرأة في المخادنة والزواج من غير عقد، وما تبع ذلك من دعوات الى اجراء التجارب بين الرجل والمرأة قبل الزواج، وانكار البكارة، والاستهانة بمسألة العرض وغير ذلك من قضايا خطيرة، قُصِدت أساسا الى هدم الأسر. وتغيير قوانين

(1) من نص للعلامة محمد فريد وجدي عن حركة تحرير المرأة.

العلاقات بين الرجل والمرأة وتبرير ذلك التغيير بنتائج الحياة الحديثة واشتغال المرأة وتطورات المجتمعات في ظل الحضارة.

ولكن الاستقراء الحقيقي للدعوة المبثوثة والآثار المترتبة ، يكشف عن أن هدفها هو افساد الفطرة وتحطيم ذلك الكيان الرئيسي الخطير القائم كقاعدة أولى في النظام الاجتماعي وهو الأسرة.

(2)

أول هذه القضايا هي محاولة القول بأن الرجل والمرأة متساويان في الخلقة والتركيب البيولوجي والعقل، ومن هنا فهي مساوية له في جميع الحقوق.

ولقد سيقت هذه الفرضيات في صورة الحقائق المسلم بها غير القابلة الى مراجعة، أو الباحثة عن دليل علمي، وقد ساقها نظريات الفلاسفة الاجتماعيين الذين أقاموا مناهجهم على المادية، بينما ان أول محاولة للنظر في علاقات الرجل والمرأة يمكن أن ينظر اليها في احترام، هو ما يعرضه عالم طبيب وباحث بيولوجي تجريبي مثل الدكتور اليكس كاريل حين يقول:

«إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم، إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك: انها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض. ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا وان يمنحا سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها. وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي، فليس في

الإمكان احلال الرغبات الانسانية محلها، ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هي، فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يجادلن تقليد الذكور. فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجل، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة. أن وجود الجنين الذي تختلف أنسجته اختلافا كبيرا عن أنسجة الأم، بسبب صغرها ولأنها – جزئيا – من أنسجة زوجها يحدث أثرا كبيرا في المرأة. إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية. مع ان هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة. ومن ثم فمن سخف الرأي أن تجعل المرأة تتنكر للأمومة، ولذا يجب أن لا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي ولا أن تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم. يجب أن يبذل المربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى، كذا وظائفها الطبيعية. فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الخلافات في انشاء عالم متمدين.

«أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية. يجب أن يعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط، بل أيضا على رعاية صغارها».

من هذا نفهم أن ما قررته الأديان وما أقامه الإسلام عن الفوارق العميقة بين الرجل والمرأة وعن الدور الخطير الذي تقوم به المرأة من خلال الأسرة والطفولة والزوجية انما هو الأصالة الحقيقية والفطرية الطبيعية التي كشف عنها العلم بعد أربعة عشر قرنا، وأن هذا التحول الخطير في العلاقات بين المرأة والرجل لم يكن إلا معارضة لهذه الفطرة ولهذه الأصالة، وقد دفع المرأة الى طريق مجهول مليء بالأشواك والأخطار.

كان ثمرة هذا التحول هو هدم شرعية الأسرة وقانون بنائها وإقامة العلاقات الجنسية الحرة التي ترفض الأسرة والعقد انطلاقا الى دعوة خطيرة علت نبرتها تقول بتحطيم قوامة الرجل وجاءت نظريات فرويد وماركس

ودوركايم وليفي بريل كلها تستهدف تعميق هذا الاتجاه واعلاء العلاقات التي تقوم خارج الأسرة.

والحضارة الغربية بهذا التحول وهذه المفاهيم انما تستعيد نفس الطريق الذي سارت فيه الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية وكل الحضارات القديمة.

ودفع المرأة إلى خارج البيت. وتغيير قوانين العلاقات والروابط بين الرجل والمرأة ، واقامتها على غير عقد مشروع، باعتبار العرض مسألة لا أهمية لها، الاعتراف بالزنا، الاندفاع وراء تيار العري والفاحشة وجموح الشهوات عن طريق المسارح والأزياء والتبرج وانتشار صحف العري وصوره الملونة، وانتقاص قدر المرأة المقيمة في بيتها، اندفاع الرجال الى إقامة علاقات خارج الأسرة، اذاعة المكشوف ، القصة الإباحية.

وفي هذا الخضم الذي رسمته الايدلوجية التلمودية خطت العلاقات بين المرأة والرجل خطوات خارج الفطرة والدين وعملت الفلسفات والعلوم الاجتماعية مع القصة والمسرح على بث هذه المفاهيم وترديدها حتى اقتنع الناس بها كأنما هي حقائق مقررة.

وعملت الايدلوجية التلمودية في مجالين: مجال الفكر ومجال العمل والحضارة وكان الفكر بفلسفاته مبررا للواقع المنحرف.

وكانت المؤسسات القادرة على العمل هي السينما والصحافة وبيوت الأزياء والزينة وكلها تعمل على وضع المرأة في مجال الفتنة والاغراء.

ومن هنا وفي سبيل تحقيق هذا الاتجاه ظهر التفسير الجنسي للتاريخ الذي يقوم على تصور الانسان كله ووجهته الجنس.

وفي هذا قالت بروتوكولات صهيون: يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا: أن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر في ارواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه».

ولقد كان التركيز على علاقات الرجل والمرأة أخطر اهتمامات المؤامرة

الجبري، وكان الهدف هو تدمير الاسرة، وتبرير إقامة علاقات أخرى معارضة تماما للفطرة ولما وضعته الأديان أمام الإنسان كمنهاج صالح وأصيل لإقامة حياته الخاصة ورغم هذه اللبنة الكبرى والركيزة الضخمة في بناء المجتمع كله.

ومن خلال مناهج التعليم لا تعطى للمرأة ذاتيتها، ومن خلال تشغيل المرأة من أجل ضمان لقمة العيش، واحساس المرأة العاملة بشيء من الحرية وتلقينها انها تكسب مثل الرجل ومن حقها أن تكون حرة في التصرف مثله؛ كل هذا خلق جوا من تهديم الأسرة وافسادها وأعان على ذلك ما حققته فعلا موانع الحمل.

يقول ول ديورانت: ان اختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغيير أخلاقنا فقد كان القانون الأخلاقي قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج لان النكاح يؤدي الى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما. ولم يكن الوالد مسؤولا عن ولده إلا بطريق الزواج، أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن أباؤنا يتوقعونه لان جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة لهذا العامل».

كما أشار ولت ديورانت الى أخطر ما فرضته ظروف الحضارة من تأخير الزواج تقريبا الى سن الثلاثين والى أثر ذلك في الانسان حيث «لا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة، وان تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعا للسخرية ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالا ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال[1].

تلك هي الصورة في قتامتها بعد ذلك التحول الخطير الذي فرضته مفاهيم فرويد ومدرسة العلوم الاجتماعية.

---

(1) من كتابه مباهج الفلسفة.

(3)

كانت محاولة الغزو الثقافي في محاولة تدمير الانسان المسلم أن تطرح هذه الأفكار والقضايا في أفق الفكر الإسلامي وأن تنقل القضية كلها الى المجتمع الإسلامي دون أن تكون لها خلفيات المجتمع الغربي ولا تحدياته التي فرضت عليه هذا التحول الخطير.

لقد دخلت المسيحية الى المجتمع الغربي وهو مشكل فعلا وقائم في إطار الحضارة الرومانية وقيمها ومناهجها وقوانينها فكان تأثيرها مختلفا عن مجتمع قام أساسا على الإسلام منذ اللبنة الأولى والفرد الأول. ذلك أن عالم الغرب ظل مضطرما بالصراع بين فلسفات اليونان وقوانين الرومان ولاهوت المسيحية. وفي نفس الوقت الذي كان الإسلام يقدم أعظم برنامج انساني لتحرير المرأة كانت أوروبا تضطرع حول ما إذا كان للمرأة روح.

ولقد ظلت المرأة الغربية إلى قريب من الزمان لا تملك من الحقوق التي قررها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا إلا الشيء القليل.

ولكن القوى التي سايرت الحضارة الغربية الحديثة ونقلتها الى الانحراف والتمزق ومعارضة الفطرة والعقل وطبيعة الانسان قد حوّلت قضية تحرير المرأة الى اتجاهات أخرى مغايرة لتحرير المرأة. معيدة إياها الى مفاهيم الوثنية الهلينية القديمة. وهي مفاهيم استعباد المرأة في عقلها وروحها وجسدها ، غير أن هذا كله وضع في العصر الحديث في صورة زاهية براقة لها طابع التحرير، بمعنى خروج المرأة من البيت وثورتها على الأسرة ومعارضتها لعملها الطبيعي وكان ذلك يعني تحريرها من كل القيم والمقومات التي رفعت شأنها ووضعتها في مكان الكرامة والآباء.

لقد استهدفت مفاهيم الفكر الغربي الوافد القائم على دعائم تلمودية ووثنية وأباحية، إلى خلق عقلية للمرأة تصورها بصورة القادرة على الحياة في المجتمع بدون سلطة الأب أو الأسرة أو الزوج، من حيث هي قادرة

مادي على أن تجد موردها الذي تعيش به. ومن هنا فان هذا القدر يعطيها الحق في أن تختار الطريق الذي ترضاه في الحياة الاجتماعية. وكذلك فقد كانت اختيار موانع الحمل ووسائل الاجهاض كفيلة بأن تفتح لها الطريق أمام كل الرغبات ومن ثم فقد أتيح للفتاة قبل الزواج وبعده أن تكون قادرة على ممارسة كل رغباتها في ظل مناعة طبية مقررة تعيد دم البكارة الأحمر الى مكانه أو تحول دون حدوث الحمل. وفي هذا الاطلاق ما فيه من آثار على ظاهرة انصراف الرجل عن الزواج أو تراخيه عن تكوين الأسرة أو استمرارها.

ولا ريب أن هذه الصورة كلها تعطي التصور الزائف لمفهوم تحرر المرأة. وتكشف عن جوهر العلاقة بين الرجل والمرأة. كما تريدها القوى الراغبة في تدمير المجتمعات البشرية. والمجتمع الإسلامي على وجه خاص. وهي كلها مع الأسف على حساب كرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأسرة والبيت والأجيال القادمة. وان كانت تحجب هذه الحقائق تحت صورة براقة لامعة تخلب الألباب هي: كسر قيود المرأة وتحطيم الضوابط التي تضعها في مسؤوليتها ورسالتها ومكانها الحق.

ولقد مهدت النظريات التي قدمتها العلوم الاجتماعية وفرويد وماركس كثيرا لهذه المفاهيم . ذلك أن محاولة تصوير الانسان بصورة الحيوان وافتراض أن دوافعه الأولى هي الجنس على النحو الذي طرحه فرويد. كانت عاملا خطيرا في فلسفة المرأة التي صورتها مذاهب الفكر الغربي ونظرياته الاجتماعية المطروحة من خلال التحليل النفسي والوجودية والهيبية: انها ليست المرأة المكرمة التي تعلو قدرا إزاء الرجل بل هي الأداة المبذولة على نحو ما.

لقد أخرجت اليهودية التلمودية المرأة لتحقيق هدفها كله، وعقدة هذا الهدف إقامة (عالمية الربا) ودولة المجد الذهبي. وفي هذا الاتجاه معارضة لمفاهيم المسيحية الغربية نفسها ولكنها استطاعت ذلك بعد أن خطت خطوات كبيرة في سبيل استيعاب المسيحية واحتوائها من الداخل

فقد استطاعت أن تخرج المرأة الى الرقص والمسرح والسينما ثم عمدت الى قتل الحد الفاصل بين الحرة والأمة، وبين الغانية وسيدة البيت، وسيطرت على نظم الأزياء والزينة وشحنت عقلية المرأة بمفاهيم جعلتها غير مستعدة لفهم الحقائق، أو تقبل المفاهيم الصحيحة فقد أدخلت الفساد الى عقلية المرأة وثقافتها ومفاهيمها عن الحب والجنس والزواج والخليلة وصديق الأسرة، عن طريق القصة والرواية والأغنية ، فاستهانت بالبكارة والغيرة والعقد الشرعي.

وكان أخطر ما تجاوزته هذه الثقافة الزائفة (عن طريق القصة ومفاهيم الوجودية، والفرويدية، والعلوم الاجتماعية) محاولة للقضاء على:

الاختلاف في الخصائص بين الرجل والمرأة، اختلاف التركيب العضوي، اختلاف التشكيل النفسي، العجز عن فهم مهمة البيت والأسرة والزوج وتربية الأبناء.

ولقد كانت عمليات التغريب والغزو الثقافي قد خاضت معركة ضخمة في سبيل تدمير قيم المجتمعات الإسلامية ومفاهيم الإسلام وذلك بالسيطرة في مجال تربية المرأة وتعليمها.

ولقد أشار الدكتوران عمر فروخ ومصطفى خالدي الى هذا المعنى حيث قالا: [1].

يهتم المبشرون خاصة بالمرأة، ان المرأة مدار الحياة الاجتماعية، والوصول بالتبشير اليها وصول الى الأسرة كلها، من أجل ذلك كانت جمعية الشابات المسيحيات بفروعها ومن أجل ذلك كانت المنازل والمعاهد التي يعدها المبشرون للفتيات خاصة، ويصفق المبشرون باليدين لان المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها ، لقد خرجت الى الهواء الطلق، لقد نزعت عنها حجابها، ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك. بل لان فعلها هذا يتيح للمبشرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية، ولهذا السبب خاصة أخذ المبشرون منذ

(1) كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية.

أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون: لقد سنحت لنا فرصة جديدة وللمرأة عند المبشرين أهمية عظمى ، قال نفر منهم:

«بما أن الأثر الذي تحدثه الأم في أطفالها ـ ذكورا وأناثا ـ حتى السنة العاشرة من العمر، بالغ في الأهمية، وبما أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فاننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الإسلامية».

من أجل هذا اهتم التبشير والاستشراق والاستعمار بمسألة المرأة وركز جهودا كثيرة من أجل دفعها الى الأمام على النحو الذي يحقق هدفها.

ولقد أشار المبشرون في أبحاثهم الى أهمية المدرسة الداخلية للبنات فقالوا: إن التبشير يكون أتم حبكا في مدارس البنات الداخلية لما يكون فيها من الأحوال المؤاتية والفرص السانحة «ان المدرسة الداخلية تفضل المدرسة الخارجية لأنها تجعل للصلة الشخصية بالطالبات أوثق، ولانها تنزعهن من نفوذ حياء بيئة غير مسيحية ويفرح المبشرون اذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيئتهن أعظم. وتتكلم المبشرة آنا ميلجان فتقول: ليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة[1].

ولقد كان المسلمون بتعاليم الإسلام في مأمن من خطر التبشير والتغريب والغزو الثقافي في مجال المرأة، لو أنهم فهموا الإسلام فهما عميقا وطبقوه ولكنهم حين فرطوا في هذه الحقيقة الغالية انتهشتهم الأحداث من كل جانب وتعرضت الأسرة والمرأة والمجتمع كله لهزات عنيفة.

---

(1) كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية.

(4)

قبل أن يقرر الدكتور اليكسي كاريل وعلماء الطب والبيولوجيا أن بين الرجل والمرأة فروقا عميقة ليست في الجسد وحده بل في الجهاز العصبي والنفسي. لها أثرها في تشكيل [illegible]قليتهما ومزا[illegible] [illegible] بصفة عامة. كان الإسلام قد قرر ذلك منذ أربعة عشر [illegible] [illegible] كله الذي يتهدد حياة الرجل والمرأة. وحياة الأسرة كأكبر ر[illegible] [illegible] وحياة المجتمع كله بالاضطراب والتمزق انما تكمن في معرفة حقيقة الفوارق بين الجنسين أوانكارها. وإقامة بناء الفكر والحياة على أساس أنها حقيقة واقعة لها أثرها في التعليم والتربية والعمل والأسرة والزواج.

ولقد كان خطاب التكليف في شريعة الإسلام موجها الى الرجل والمرأة معا فقضى بذلك على تاريخ طويل من المهانة والاحتقار. والتفرقة في القيم الإنسانية المشتركة كما قضى على الفوارق فيما يتصل بموقفهما أمام القانون وفي الحقوق العامة وجعل المرأة مساوية للرجل في هذه الشؤون. غير ان الإسلام فرق بين الرجل والمرأة في الأعباء الاقتصادية والميراث والقوامة على الأسرة والشهادة وحق الطلاق وفي مفهوم الإسلام «ان الرجل والمرأة متكافئان ولكنهما ليسا متشابهين» ساوى الإسلام بين المرأة والرجل في الحقوق الانسانية العامة وحافظ لكل منهما على اختصاصه الذي يتناسب مع وظيفته ودوره وجعلهما في مقام واحد ليس لاحدهما فضل على الآخر في الجزاء والعقاب.

«واعتراف الإسلام بانجاب المرأة وأمر بالتفاؤل لقدومها شأنها في ذلك شأن الرجل لا فرق بينها وبينه إلا بالتقوى والعمل الصالح وحارب التشاؤم منها والحزن على ولادتها.

واعطاها كيانا اقتصاديا مستقلا فصارت تملك وتتصرف بشؤونها المالية مباشرة وبلا وكالة «**للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن**» ولم يحرم المرأة هذا الحق إلا اذا ثبت أنه يلحق ضررا بالمجتمع

وسوّى الإسلام بينها وبين الرجل في التصرفات المالية.

ولقد كان الفرق لا يحي

ولقد كان الغرب لا يجيز للمرأة الى عهد قريب أن تتصرف بشيء من أموالها إلا بإذن زوجها وكان القانون الفرنسي قبل الحرب العالمية الثانية يقضي بعدم أهلية المرأة المتزوجة وتقييدها في تصرفاتها بضرورة الحصول على اذن الزوج.

والقانون الفرنسي وان اعترف بأهلية المرأة المتزوجة إلا أنه أبقى للزوج حق الاعتراض على بعض تصرفاتها المالية.

(5)

نظّم الإسلام علاقة الرجل بالمرأة في نطاق الأسرة على نحو يحفظ للمرأة كرامتها وشخصيتها فأعطاها حق اختيار الزوج وجعل لها مطلق الحرية في أن تقبل من تشاء وترفضه ما دامت بالغة عاقلة رشيدة. كما أعطى لها حق مباشرة عقد زواجها بنفسها فقد جعل الإسلام رضا البنت عند بلوغها سن الرشد شرطا لصحة العقد عليها.

وكذلك قرر عدم كفاءة الرجل الفاسق للزواج بالمرأة العفيفة وقضى على نظام الخليلات ، ذلك النظام الفاسد الذي نشر الفواحش والأمراض، وكان في نظر المرأة أقسى من التعدد وجعل أساس الأسرة: الزواج الشرعي المرتبط بالدين حلا وتحريما، ليس مجرد رابطة مدنية كسائر العقود. وحتم ذلك حتى يكون بالنسبة للزوجة حماية وأمانا من عواصف الزمن ومخاطر الانحلال.

وقد شرع الاسلام الخطبة قبل الزواج حتى تبنى الحياة الزوجية على أساس التفاهم والرضا.

وكذلك كرّم الإسلام المرأة بأن جعل على الرجل أن يقدم للمرأة مهرا، هو منحة وهدية وتعبيرا عن طلبه إياها ورغبته في الزواج بها.

وفي نفس الوقت وقبل أن يتم الزواج أوجب للبنت النفقة شرعية في حياة أبيها حتى تتزوج وليس له أن يلزمها طلب رزق كالابن وإذا تزوجت وطلقت فعادت الى بيت أبيها عادت نفقتها عليه حتى بعد انتهاء مدة نفقتها الزوجية وقد كفل لها الإسلام حياة طيبة «**فامساك بمعروف أو تسريح باحسان**» وحال دون الزوج وأن يمسك زوجته كرها.

وأقام العلاقة بين الرجل والمرأة حقا مشتركا وواجبا متعادلا:

«**إلا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا**».

«**أما حقكم على نسائكم: فأن لا يوطئن فراشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ولا يأتين بفاحشة فان فعلن ، الله قد أذن لكم في أن تعضلوهن وتضربوهن في المضاجع**».

وحق الرجل على الزوجة أن يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يضرب الوجه ولا يقبح ولا يهجر إلا في البيت. عليكم باللطف والرفق بنسائكم. لا تظلموهن ولا تضيقوا عليهن فإن الله يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم».

2 ـ وإقام العلاقة الزوجية على أساس الطاعة والمودة ومعنى الطاعة أن تمتثل الزوجة بأمر الزوج الا فيما نهى الله عنه إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومعنى قوامة الرجل (**الرجال قوّامون على النساء**) هو إقامة حق الطاعة من الزوجات لأزواجهن في غير ما يخالف حدود الله.

من حقها أن يعدلها المسكن المستكمل لحاجات معيشتها الذي تأمن فيه على نفسها ومالها وتقيم معه فيه فلا تخرج من غير أذنه الا لضرورة ولا تبيت عند أحد من أهلها إلا بأذنه ولا تسمح بدخول أحد في بيته الا بأذنه.

ولها أن تذهب لعيادة أبيها المريض الذي لا يقوم أحد بخدمته، بغير اذن الزوج ولا يعد هذا خروجا على الطاعة لأن حق الوالد مقدم على حق الزوج عند التعارض.

غير أن قوامة الرجل لا تفرض له أي نفوذ في مالها أو فيا تملكه فهو خالص لها.

وقد جعل الإسلام الطلاق: أبغض الحلال إلى الله ودعا الى المصالحة والتحكيم في حالة الشقاق **(وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها)** ورسم القرآن موقف الطلاق في دقة ووضوح.

(وإذا طلقتم النساء فبلغن أهلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه).

وفي الطلاق قرر الإسلام: عدم تطويل العدة عنادا ورغبة في حبس المرأة عن الزواج. (وكان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته حتى اذا قاربت الانتهاء من عدتها راجعها وطلقها وهكذا مائة طلقة أو أكثر لا يقصد من وراء ذلك الا الكيد لها والاضرار بها. فلما جاء الإسلام عالج هذه المشكلة على نحو مسماح ورفع الحيف عن المرأة فقصر الطلاق على ثلاث.

(الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان).

(فان طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره).

وشرع حق افتداء نفسها بالمال تدفعه الى الزواج لتنقذ نفسها.

3 ـ ومن تكريم الاسلام للمرأة ورفع شأنها أنه جعلها كالرجال **(إنما النساء شقائق الرجال)** فأزال عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرزول وبين أن الخطيئة لم ينفرد بها بل الشيطان وسوس لحواء وآدم فهما في الخطيئة سواء:

(فازلها الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه)

(فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما)

وحدد المسؤولية للرجل والمرأة على السواء: كل نفس بما كسبت رهين وليس أبلغ من هذه المساواة من قوله تعالى:

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا).

وهكذا حرر الإسلام المرأة من كثير مما نسب اليها ظلما وبهتانا في الحضارات السابقة وتفسيرات الأديان الماضية. فقد حرم المجتمع اليوناني المرأة من الميراث كما حرمها المجتمع اليهودي: والحكم المنصوص عليه في غير موضع من التوراة أن تحرم البنات من الميراث ما لم ينقطع نسل الذكور وأن البنت التي يئول اليها الميراث لا يجوز لها أن تتزوج من سبط آخر[1].

وفي المجتمع الهندي والبابلي والروماني: أنكر عليها حقها في الحياة المستقلة عن حياة الزوج وكانت العادة الى أبعد عصور الحضارة البرهمية في الهند وحتى القرن السابع عشر تقضي بأن تموت المرأة يوم موت زوجها وأن تحرق معه في موقد واحد.

وكانت شريعة حمورابي تعتبر المرأة في عداد الماشية المملوكة.

ومذهب الرومان القديم مثيل لمذهب الهنود الأقدمين في الحكم على المرأة بالقصور. فقد كان الشعار المتداول ابان حضارتهم ان قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع. ولم تتحرر المرأة الرومانية من هذه القيود الا يوم أن تحرر منها الرقيق على اثر التمرد ثورة بعد ثورة.

«وقد أهدر اليونان شخصية المرأة القانونية فلم يعتبروها أهلا للتملك. ولا أهلا لتحمل المسؤوليات وتلقي التبعات فهي تظل طوال حياتها خاضعة لسلطة أبيها.ما دام فيه عرقة ينبض أن نفس يتردد حتى إذا ما تزوجت فسلطة أبيها لا تزول إلى غير رجعة بل تزول ما بقيت زوجه فإذا فارقها زوجها أو مات عنها رجعت ولاية الأب وسلطته عليها حتى يلفظ

---

(1) أشار معجم الفلسفة الفرنسي الى هذا المعنى حين قال: ان القرآن يختلف عن التوراة في أنه لا يجعل ضعف المرأة عقابا الهيا. كما ورد في سفر التكوين (3: 16) ومن الخلط أن ينسب الى شارع عظيم كمحمد ﷺ مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء والقرآن يقول: «**فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**».

نفسه الأخير وحينئذ تنتقل الولاية الى قريبها حتى تتزوج فيكون زوجها هو وليها وهو صاحب التصرف فيها».

وهكذا كانت المرأة متاعا مملوكا للأب أو الزوج يتصرف فيها بكل أنواع التصرفات من بيع وإعارة ورهن. ثم جاء الإسلام فتغير كل شيء: أبعد عن المرأة شبهة الخطيئة والدنس، تمت مساواتها بالرجل وقرر حقها الكامل في الحياة كالرجل، قضى على كل ما كان متبعا من وأد البنات وتلقي ولادتهن بالعبوس أو اذلالهن دون أي حق في اختيار الرجل.

وأعلن الإسلام تحريم وراثة النساء كرها:

(لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها).

أي لا تأخذوهن على سبيل الارث كما يؤخذ المال الموروث.

وحين ألغى الإسلام وراثة المرأة مع المتاع، وحرمانها من الارث والمهر حرم «العضل **(ولا تعضلوهن)** وهو الظلم يقع على اليتيمة تكون عند الرجل. فقد حرم الاسلام السبي وحرّم الوأد فلم تكن سبية أو مؤودة منذ انتشار الاسلام الى يومنا هذا.

وانتهى الامتهان حيث سوى الاسلام بين دم الرجل ودم المرأة وصار يقتل قاتلها.

وكان الاستئثار دونهن بالمهور، فجعلها الإسلام حقا خالصا لهن، وكان تعدد الزوجات غير محدود ولا مقيدا، فجاء الإسلام محددا له مقيدا إياه بقيود كفيلة بالقضاء عليه كما فعل بالرق.

وكان اكراه الفتيات على البغاء ليكتسبن لأسيادهن مالا فجاء الإسلام معلنا **(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا)** وكان قتل الأولاد من الفقر أو من خشية فجاء الإسلام حاميا.

وكان حرمان ميراث فقرر لهن الإسلام حقوقهن **(وللذكر مثل حظ الانثيين)** فريضة من الله نافذة.

وكان عضل لهن عند الأزواج طمعا في أن يفتدين أنفسهن بمال أو يمين فيرثوهن فنهى الاسلام عن ذلك.

وكان إساءة عشرة فأمر الإسلام بحسن المعاشرة.

وكان الولد يرث زوجات أبيه في جملة المتاع فجاء الإسلام رادعا أشد الردع **(ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم)**.

وجعل المهر حقا خالصا للمرأة ونهى عن مسه بأي سبيل كان: **(وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا)**.

وجعل احسان العشرة الزوجية من أهم ما يجب على الرجل التزامه، وكره الشارع الطلاق الى الناس وبغضه وشدد فيه.

وأحل أجلا للمطلقات: مدة طويلة يبقين فيها في بيوتهن ليرجع الرجل الى نفسه فيتلافى ما فرّط منها. حتى إذا عزم الطلاق فتسريح باحسان.

وبين للمرأة حقوقها في الارث (زوجا، وأما، وبنتا، وأختا) فصارت كالرجل ذات حقوق أصيلة»[1].

وسوّى الإسلام بين الرجل والمرأة في الخطاب وسوى بينهما في الثواب والعقاب **(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)**.

واعترف للمرأة بعقلية لا تقل عن عقلية الرجل فجعلها حق الخطاب بالتكاليف في اطار واحد بما يدل على تساويهما في مناط التكليف وهو العقل.

(3)

وحرم الاسلام على الرجل أن يتزوج أمه وبنته وأخته وعمته وخالته وبنت الأخ وبنت الأخت وحرم الجمع بين الأختين وأن يتزوج الابن زوجة أبيه.

وكان يجوز للرجل قبل الإسلام أن يتزوج ما يشاء من النساء .

(1) عن بحث لعلامة كبير.

فحصرت الشريعة الإسلامية هذا العدد ومنعت الجمع بين أكثر من أربعة من النساء على شرط العدالة بينهن فإذا لم تتيسر العدالة فواحدة.

قال ابن القيم ان للزوجة حق على الزوج اقتضاء عقد النكاح يجب على الزوج القيام به فان شاركها غيرها وجب العدل بينهما فقصر الأزواج على عدد يكون العدد فيه أقرب مما زاد عليه ومع هذا لا يستطيعون العدل ولو حرصوا عليه (**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم**).

ومعنى هذا ان الاسلام حد من غلواء التعدد الذي لم يكن مقيد العدد. وشرط من العدل المستطاع بين الزوجات فأبيح التعدد بقدر الحاجة متى أمن العدل المستطاع (لا العدل المطلق) والمقدرة على الانفاق.

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة).

وتعدد الزوجات في ذاته تشريع للطوارئ. وأهمها حالات الحروب حيث يقل الرجال وعندئذ يكون التعدد ضرورة لإنقاذ الفساد الخلقي والفوضى الاجتماعية التي تنشأ لا محالة عن وجود نساء بلا رجل.

يقول أحد الباحثين:

«إن تعدد الزوجات هو الحل الشريف الحكيم لما يعقب الحروب المدمرة من أزمات خلقية واجتماعية واقتصادية ففي أعقاب الحروب يهبط عدد الرجال من عدد النساء هبوطا مفزعا قد تصل النسبة معه في بعض الأحيان من واحد الى عشرة. فأباح الإسلام التعدد وجعله رخصة ورحمة وحماية: رخصة تنظم بواسطتها حياة الزوج المضطرب وتنسقها.

والتعدد في حالة الخوف من ظلم اليتامى عندما يجد الوصي نفسه محرجا من مداخلة اليتامى ومجالستهم في بيوتهم التي لا تخلو من يتيمات أو أرامل. فيهن بقية من شباب أو جمال لم يذو بعد وحرجا من الابتعاد عنهم فيكون مقصرا في حقهن غير قائم بالعدل والقسط فيهم فالتعدد انما شرع حلا لمشكلة من كشاكل المجتمع: هي مشكلة اليتامى أنفسهم وليس مشروعا لارضاء النفس وتحقيق الرغبة في النساء.

وقد جاء التعدد صيانة للأسرة حيث وضع الاسلام حكما قاسيا لجريمة الزنا التي تخلط النسب وتسلم بنيان الأسرة الى النقوض والمجتمع الى الانهيار».

وقد عرض (سيد أمير علي) لمفهوم تعدد الزوجات قبل الإسلام فأشار (كيف كانت المرأة من أهل أثينا وهم أكثر الأمم القديمة مدنية وعلما تعتبر من سقط المتاع حيث كانت تباع وتشترى في السوق كما كانت منزلتها في الدرك الأسفل وانما كانت تعتبر كأنها رجس من عمل الشيطان لا شأن لها وكان مصرحا للواحد من أهل أثينا أن يتزوج بأي عدد يشاء من النساء وكان (دموشنيش) يفاخر بأنه يوجد في أمته ثلاث طبقات من النساء كانت طبقتان منهما تعتبران الزوجات الشرعيات والشبيهة بالشرعيات أما في اسبارطة فقد كان مصرحا للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل وكانت جميع النساء تقريبا يمارسن هذه العادة. وكانت عادة تعدد الزوجات موجودة في البدان المجاورة لدولة الرومان وكان من أسر الفتوحات التي قام بها الرومان مضافا اليها الرفاهية التي تمسكوا بأذيالها اذ نالوا ذلك المجد الباذخ ـ كل هذه الأسباب جعلت عقدة الزواج المقدسة مجرد كلمة من قبيل لغو الكلام عند الرومان، غير أن كبراء روما أرادوا أن يتمتعوا بمزايا الحرية وترفعها فانغمسوا في شهوات الحب والهوى فأفضى ذلك الى أن أصبح الزواج أشبه بالفسق العادي ثم أن الحكومة اعترفت بالزنا في قوانينها فصار هذا نظام مرعي الجانب وقد أفضت حرية النساء وانفصام عرى الرابطة التي كانت تربطهن بالرجل وتنقل المرأة بين أحضان الرجال كل ذلك أفضى إلى عادة تعدد الزوجات ثم ان اتخاذ الخليلات لم يكن قاصرا على الطبقات اليروستقراطية حتى ان رجال الأكليروس أنفسهم كانوا يتخذون لهم أكثر من زوجة شرعية أو غير شرعية بالرغم مما كانت تقضي به قداستهم» ثم يشير (سيد أمير علي) الى موقف الاسلام فيقول: ان أعظم خطأ يقترفه كتاب النصارى هو أن يظنوا أن محمدا عليه الصلاة والسلام أباح تعدد الزوجات وعمل به، ان محمدا لم يجد تعدد الزوجات منتشرا في قومه فقط. بل كان منتشرا أيضا بين الأمم المجاورة لها حيث كانت هذه

العادة شر آفات الهيئة الاجتماعية. نعم ان قوانين الدولةالمسيحية حاولت ملاشاة ذلك الشر ولكنها لم تنجح في ذلك وظل تعدد الزوجات معمولا به بدون واق منه فكانت النساء التعسات اللاتي كان من سوء حظهن في أن لم توجد قاعدة مرعية في قوانينهم المقدسة تحدد تعدد الزوجات اللاتي يحق الرجال التمتع بهن فقد كانوا ينغمسون في حماة أتخاذ الخليلات وعلاوة شيوع عادة تعدد الزوجات عند العرب واليهود الأقدمين فقد جرت فيهم عادة أخرى هي الزواج المؤقت فأفضت الى الفوضى الاخلاقية وانتشار الزنا.

«ان الشريعة الإسلامية رفعت شأن المرأة الى مرتبة عالية بعد أن انحدر مقامها الى الدرك الأسفل عند اليهود وعرس الحاضرة اذ كانت الفتاة بمثابة الخادمة حتى في دار أبيها عند الموسويين وكان لأبيها الحق في بيعها اذا كانت قاصرة فإذا توفي يحق لاخوتها الصبيان أن يفعلوا بها ما يشاءون ولم تترك لترث شيئا إلا اذا لم يكن للوالد ذرية من البنين.

أما عرب الجاهلية فقد كانت المرأة تعتبر من سقط المتاع وكانت جزءا لا يتجزأ من ثروة أبيها أو زوجها، وكانت أرامل الرجل يصرن ارثا لأبنه أو بناته كأي جزء آخر من التركة ، لذلك حرم الإسلام بتاتا (نكاح المقت) وهو اقتران المرأة بابن بعلها ونحو ذلك.

وقد وصل احطاط شان المرأة عند عرب الجاهلية الى وأدهم بناتهم وهن على قيد الحياة، فحرم الإسلام هذه العادة وكانت منتشرة بين عرب قريش وقبائل كثيرة واعتبرها من قبيل الظلم والاعتساف وكان العرب يعملون بها اذ يقدمون بناتهم قربانا للآلهة اقتداء ببعض الأمم وجاء في القرآن:

(وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت)

وكان مقام المرأة منحطا في الهيئة الاجتماعية في دولتي الفرس والبيزنطيين، وقد حمل المتعصبون المتحمسون على المرأة حملة شعواء وهم الذين صاروا القديسين معلنا بعد لدى العالم المسيحي فقالوا انها مثار

الشرور وانسوا أن الشرور التي نسبوها الى المرأة ليست إلا نتيجة تضلل أفكارهم.

وفي ذلك الحين سقطت الهيئة الاجتماعية في حماة الرذائل من جميع الجهات وارتفعت الأصوات مستغيثة بأن التجارب التي برهنت على فساد كل النظامات والشرائع القديمة، ظهر محمد ﷺ بتعاليمه للملأ داعيا للخير وهو يقول **(ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة)**.

وقد كرّم الله مقام المرأ بصفتها طاهرة تقية. وزوجة صالحة وقد حرمت القوانين الإسلامية بتاتا عادة الزواج المشروط وخوّل للمرأة حقوقا لم تكن لها من قبل وأكسبها مزايا لا تعرف قيمتها حق المعرفة إلا بعد زمن طويل فقد ساوت الشريعة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية والأعمال ونهت عن تعدد الزوجات اذ حددت عددهن وقضت على الرجل بالمساواة التامة بينهن.

«هذه الشريعة السمحاء إنما نبتت لتعمل بها أرقى الأمم مدنية وأشدها همجية على السواء، فكما انها لم تترك حاجات أرقى درجات الهيئة الاجتماعية كذلك لم تنس أن تلبي رغبات الشعوب والقبائل».

(4)

أما وقد جعل الإسلام للمرأة المسلمة شخصية مميز فقد جعل عليها مسؤوليات وأعطاها دورا هاما في بناء الأسرة وأقامة كيان المجتمع وتنشئة الأبناء ورعاية الزوج وأقام لها ضوابط تحميها من أن تستغل كأداة للأهواء والشهوات أو تفرض عليها أن تصبح رقيقا أو تكره على غير ما تريد أو غير ما يحفظ لها الإسلام من غرض وشرف.

لقد حقق الإسلام للمرأة إرادتها الحرة فيما تملك وفيمن تختار، ليكون أهلا لها وجعل هذه الاستجابة لطبيعتها في إطار علاقة شرعية ظاهرة باعلان الزواج، وحرم العلاقة السرية التي تمتهن فيها المرأة، وقد

تحوط الإسلام لانوثة المرأة كما تحوط لرجولة الرجل، وأقام الدعائم والقواعد التي تحول دون أن تتحول المرأة الى رجل أو يتحول الرجل الى امرأة أو يتداخل المفاهيم ، يتخنث الرجل أو ترجل المرأة دون أن يعرف كل منهما دوره الحقيقي ودور صاحبه.

ومن هنا فقد حرّم الإسلام على المرأة أن تكشف عن بدنها وأن تخلو بغيرها وأن تخالط سواها وينكر عليها أن تحمل قوسا شبيهة في ذلك بالرجال وحبب اليها الصلاة في بيتها فإذا خرجت ففي احتشام ووقار وايما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي آثمة.

ولعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهين من النساء بالرجال ولعن رسول الله الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ولقد عارض الإسلام كل تغيير لخلق الله بالإضافة أو الحذف من وصل الشعور أو تغيير أوضاع الوجه أو تلوينها.

وقرر الإسلام إنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا يكون ثلاثة أيام فصاعدا إلا ومعها أبوها أو خوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها.

وأشار الرسول إلى أن من أهل النار كل من اتسمت بأنها من الكاسيات العاريات أو المميلات المائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، وقد طبق ذلك رسول الله على أهله فما قاله لاسماء:

إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها الا هذا وهذا وأشار الى وجهه وكفه.

وكذلك شرط الإسلام للمرأة شروطا شديدة في البعد عن إبراز المحاسن أو إبراز الجسد من داخل الملابس، وفرض في ملابسها أن لا تصف ولا تشف وحرم عليها الخلوة بالأجنبي مهما كانت الظروف.

وأعلن رسول الله ان من أكبر الكبائر في الإسلام أن يخلو الرجل بامرأة ليست بذات محرم، «وقد أخذ الإسلام السبيل على الجنسين في هذا الاختلاط أخذا محكما قويا فالستر في الملابس أدب من أدابه وتحريم الخلوة

بالأجنبي حكم من أحكامه، وغض الطرف واجب من واجباته والعكوف في المنازل للمرأة حتى في الصلاة شعيرة من شعائره والبعد عن الاغراء بالقول والإشارة وزينة الخروج حد من حدوده».

وقد استهدف ذلك أن يسلم الرجل من فتنة المرأة وأن تسلم المرأة من فتنة الرجل».

ومن ذلك قول الرسول في الحديث القدسي عن رب العزة: النظرة سهم مسموم من سهام ابليس من تركها من مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه.

وقول الرسول ﷺ لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكسفن الله وجوهكم وكان انذار الرسول في هذا واضحا صريحا: ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجل ومن هنا تعرف الى أي مدى ذهبت محاولة المؤامرة التلمودية اليهودية في هدم مفهوم الإسلام عن المرأة لتدمير شخصيتها ووضع القيود في أيديها وسوقها الى سوق الرقيق مرة أخرى تحت الأضواء والطبول.

ومن هنا فقد دعا الإسلام إلى توجيه المرأة الى حقيقة دورها وإلى شخصيتها الأصيلة التي قدمها لها الإسلام.

مع دوام تصحيح وضعها وتحرير مفهومها حتى لا تسقط في الأفخاخ المنصوبة.

وتذكيرها مسؤوليتها. كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها.

ولذلك يرى الإسلام ضرورة بناء ذلك منذ الطفولة وإعداد المرأة: فتاة وأما وزوجة وكشف الأبعاد الحقيقية لدورها وشخصيتها والأسلحة التي يجب أن تتسلح بها لتستطيع اداء دورها من الفضائل والمكالات النفسية.

وقد وجه أنظار الآباء الى هذا: [قوا أنفسكم وأهليكم نارا] ومما

دعيت المرأة الى فهمه حقيقتان كبريان:

أولا : حقيقة التفاوت والاختلاف في بناء الانسان داخل الرجل وداخل المرأة على النحو الذي يمكن كل منهما من أداء دوره الخاص.

ثانيا : قيام المجتمع الإسلامي أساسا على الفصل بين الرجل والمرأة في المجتمعات فللرجال مجتمعاتهم وللنساء مجتمعاتهن.

(5)

أما حقيقة التفاوت الطبيعي بين الرجل والمرأة فقد كشفت عنه أبحاث العلم الحديث ودراسات الطب والبيولوجيا بما يطابق ما قرره الإسلام وجاء به القرآن، وهو تفاوت طبيعي في التكوين الجسماني والنفسي للرجل والمرأة يتبعه تغاير وظيفي بينهما. ذلك أن الفطرة قد أكسبت كلا منهما أوضاعا خاصة ويسرت لكل منهما سبيله بحسب الوظيفة والرسالة. والمساواة بينهما لا تقتضي انكار حكم الطبيعة أو نسيان الفوارق الخلقية وما بينهما من الاختصاص.

«وقد[1] اثبتت بحوث العلم وتحقيقاته ان المرأة تختلف عن الرجل في كل شيء من الصورة والسمت والأعضاء الخارجة إلى ذرات الجسم والجواهر الهيولونية (البروتينية) لخلايا النسجية، ومع بلوغها سن الشباب يعروها المحيص التي تتأثر به أفعال كل أعضائها وجوارحها وتدل مشاهدات أساطين التشريح على أن المرأة تطرأ عليها في مدة حيضها.

أولا : تقل في جسمها القوة وتنخفض حرارتها.

ثانيا : يبطء النبض وينقص ضغط الدم وتقل عدد خلاياه، وتصاب الغدد الصماء واللوزتان والغدد اللمفاوية بالتغيير ويختل الهضم وتضعف قوة التنفس.

---

(1) عن بحث للعلامة المودودي.

ثالثا : تبلد الحس وتكاسل الأعضاء وتتخلف الفطنة وقوة تركيز الفكر.

رابعا : أما في زمن الحمل فلا تستطيع قوى المرأة ابان حملها أن تتحمل من مشقة الجهد البدني أو العقلي ما تتحمله في عامة الأحوال، مما يختل به نظام جسمها كله ويستغرق بضعة أسابيع. وبذلك تبقى المرأة مريضة أو شبه مريضة مدة كاملة بعد قرار الحمل وتعود قوة عملها نصف ما تكون في عامة الأحوال.

وتبدو هذه الفوارق واضحة من حيث النظرة العامة بما لا يقلل من مساواتها للرجل في المسؤولية الشرعية أو المقدرة العقلية العامة. ولكنه يتكشف عن فوارق في الدرجة وليست في النوع. من ذلك أن خصائص الأنوثة ومواهبها كقانون الزوجية والأمومة وذكاء العاطفة هي ميزة خاصة تستخدم لبناء الأسرة، ولكنها لا تصلح للعمل الخارجي.

وأن حظها في العقل العام يجعلها مسؤولة شرعا ويجعلها تقوم بواجبها في حدود طبيعتها في الحياة ولكنه لا يجعل لها تفوقا معينا على الرجل أو يجعلها مساوية له في أعظم أعمال المرأة نفسها: إعداد الطعام وصناعة التطريز وهما من أبرز أعمالها ولكن الرجل يتميز عليها فيهما ويتفوق.

حتى لقد قيل انه ما من عمل زاولته المرأة من غير وظائفها الأصلية في البيت وخارجه الا كان الرجل متفوقا عليها.

وبالجملة فان اختلاف الجنسين يلزم اختلاف الوظيفة «على أساس نهوض الرجل بمطالب الحياة العامة ونهوض المرأة بمطالب البيت وتدبير الرجل للجيل الحاضر وتدبير المرأة للجيل المقبل.

2 ـ أما في الاختلاط «فان الإسلام يرى في الاختلاط بين المرأة والرجل خطرا محققا فهو يباعد بينهما إلا بالزواج. ولهذا فالمجتمع الاسلامي مجتمع انفرادي لا مجتمع مشترك، ولقد كشف الاسلام عما يؤدي اليه الاختلاط من ضياع الأعراض وخبث الطوايا وفساد النفوس وتهدم البيوت وشقاء الاسر وبلاء الجريمة وما يستلزمه هذا الاختلاط من طراوة

في الأخلاق ولين في الرجولة لا يقف عند حد الرقة بل يتجاوز ذلك الى حد الخنوثة والرخاوة.

كذلك فان «الاختلاط يزيد قوة الميل وقيل قديما أن الطعام يقوي شهوة النهم. والرجل يعيش مع امرأته دهرا ويجد الميل إليها يتجدد في نفسه فما باله لا تكون صلته بها مذهبة لميله اياها والمرأة التي تخالط الرجال تفتن في ابداء ضروب زينتها ولا يرضيها إلا ما يثير في نفوسهم الاعجاب» كل هذا مما يجب أن يكون واضحا في نفس المرأة المسلمة.

وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه على وجوب احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب كما قال أصحاب الإمام أحمد بتحريم النظر إلى الأجنبية وذكر الامام ابن تيمية (في المنهاج) اتفاق المسلمين على منع خروج النساء سافرات الوجوه لان النظر مظنة الفتنة.

ولقد تنبه المفكرون الغربيون الى هذه المخاطر فقد أشار (برتراند رسل) إلى ذلك في كتابه (الأخلاق والزواج) فقال:

هناك شرط مهم يساعد على دعم الحياة الزوجية. ذلك هو خلو الحياة الاجتماعية من النظم التي تسمح بالمصادقة والمخالطة بين المتزوجين من الرجال والنساء سواء في العمل أو في المناسبات والحفلات وما شاكلها. ذلك أن العلاقات العاطفية بين المتزوجين وغير المتزوجين من رجال ونساء خارج دائرة الحياة الزوجية هي سبب شقاء الأزواج وكثرة حوادث الطلاق.

في هذا نذكر دعوة الإسلام للمؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم وإلى المؤمنات أن يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن.

وفي ضوء الإسلام فإن دقة النظم والروابط التي تقوم من المرأة والرجل تكون عاملا هاما في سلام بناء الأسرة وقيام كيان المجتمع وتنشئة الأطفال والأبناء وهي المهمة الخطيرة التي ألقى على المرأة دور كبير فيها فالطفل يولد وهو عبارة عن كتلة من الغرائز والاستعدادات والأم هي التي تشكله على النحو الذي يجعله عضوا نافعا في أمته ومجتمعه. وهي أن تعلمه اللغة والتاريخ والعادات ومفاهيم الأخلاق والأداب العامة ومظاهر السلوك العام والخاص حتى تخلق منه كائنا اجتماعيا إيجابيا وان أي تقصير في أداء هذه الرسالة الخطيرة التي يجب موالاتها يوما بعديوم وساعة بعدساعة تؤثر في الطفل فتحول بينه وبين الأسلوب السوي وقد تنحرف به في حياته كلها. وللمرأة دور في حياة الطفل والشاب وللأب دور مكمل ولكن دور الأم أشد خطورة، ولا يمكن أن تؤدي المدرسة دورها الحقيقي في حياة الأبناء إلا إذا كانت الركائز الأساسية التي قدمتها الأم سليمة وثابتة وعلى مستوى الأصالة والفهم الحقيقي لابعاد التنشئة الدينية والاجتماعية والأخلاقية في بناء العقل والروح والجسم جميعا. ولا بد أن يجد الطفل في الأم والأب مثلا عاليا في الخلق وحسن التصرف.

ومن هنا كان استقرار المرأة في المنزل أعظم أثرا وأبعد مدى من خروجها للعمل إذا لم تدع الحاجة المادية اليه. فإن فيض الحنان الذي يفقده الطفل من شأنه أن يشكل خطرا على كيانه كله. كذلك فان نقص التوجيه النفسي والاجتماعي في غيبة الأم سيكون بعيد الأثر في بناء شخصيته. واذا ذهبنا نقيس مدى النتائج التي تحصل عليه الأسرة من استقار الأم أو عملها في خارج البيت وجدنا خسارة لا تعوض. فإن العمل بطبيعته يستهلك الأم جسميا ونفسيا حتى إذا عادت الى البيت فانها تكون في حاجة الى الراحة. ولا تكون أهلا لأي عطاء نفسي بل ربما كان تصرفها سلبيا قائما على الحدة واضطراب الأعصاب مما يؤدي الى أثر أكثر سوءا في تنشئة الأبناء.

وهكذا نجد أن اخراج المرأة من وظيفتها الأساسية من شأنه أن يفسد البناء الأسري كله ويضعها في مكان المناقضة للفطرة وينقص من شأن المسؤولية الاجتماعية إزاء الأطفال في نظرها ومن ثم فان مجتمعاتنا تكاد تفقد ما كنا نطلق عليه الأم الرؤوم والزوجة الصالحة.

والحق ان الأسرة في نظر المرأة المسلمة ليست لهوا ولا متاعا خاصا (لها وللرجل).

وليست ألعوبة أو أمرا هينا بل هي مسؤولية وتبعة ودور خطير يتطلب تكريس كل الوقت والجهد له والتضحية من أجله بكل أنواع المتع واللذائذ.

ولقد أعطى الإسلام المرأة تلك القدرة على حمل المسؤولية بالإيمان والصلاة. والعفة الصحيحة والحياء وحرصها أشد الحرص على دينها وعلى بناء أبنائها وأهم ما أعطاها الصبر على مكاره البيت.

ومن هنا كانت القوانين المدنية كلها تنص على أن المرأة مكلفة بتدبير البيت (والبيت هو كل ما يتعلق بالحياة العائلية والأسرة) وليست تربية الصغار فقط بل رعاية الكبار.

ومن هنا كانت ضرورة أن يكون تعليم المرأة من نوع خاص يكفل لها معرفة تدبير المنزل وعلم الاقتصاد المنزلي ومعرفة علوم التطريز والخياطة والطبخ ومعرفة مسؤوليتها الإسلامية أخلاقية واجتماعية ازاء الاسرة كلها.

وإذا كانت الأسرة هي عماد المجتمع حقيقة فان المرأة هي قاعدة الأسرة. وإذا كان من الضروري أن يلتمس المجتمع الاسلامي مفهوم المرأة الصحيح والأسرة على حقيقتها فانما يطلب ذلك بعد أن أضيفت الى معتقداتنا الفكرية والعقلية مفاهيم حديثة وطرحت في أفق الفكر الإسلامي نظريات وافدة حول حرية المرأة وحول ملابس المرأة وحول مفهوم الجمال وحول علاقة البيت والصالون والنادي والكازينو غيرت كثيرا من الأصول الأساسية، وحولت نظرة الرجل الى امرأته فأصبح هو الذي يعمل على اخراجها وتزيينها للشارع ويفخر بذلك ويقدمها في النادي والكازينوا الى

زملائه ويسمح لها باستقبال أصدقائه في بيته في عينيه.

ومن هنا كان لا بد من إعادة تقدير المسؤولية العرض والشرف والبيت، وتحرير المجتمع الإسلامي من هذا الانحراف الذي أصاب الكثيرين كرجال في عجزهم عن حمل مسؤولياتهم ازاء زوجاتهم وبالتالي ازاء أبنائهم.

ويأخذ ذلك صورة مظلمة قاسية في محاولة الرجل الهرب من المنزل، والاستمتاع بوقته خارجه، والعجز عن مواجهة مسؤولياته والتفاهم مع أبنائه.

ومن خلال هذه المفاهيم الوافدة، والتقاليد الجديدة المخالفة للقيم الأخلاقية الإسلامية الأساسية يتحقق لاصحاب الأغراض هدم الأسرة، وهم يعلمون أن تحويل عقلية المرأة هو العامل الاول في تدميرها وذلك بالقاء مفاهيم تجعل المرأة منتقضة على قوامة الرجل وعلى مسؤوليتها في البيت بالإضافة الى احساسها بأنها تكسب ماديا مما يحول دون ترتيب الحياة الاجتماعية على أساس سليم.

ومن الحق أن الأسرة نظام عميق الجذور ، ولكن هذه المحاذير من شأنها أن تؤثر فيه، ولقد أشاد الباحثون الاجتماعيون قديما وحديثا بالأسرة باعتبارها النظام الإنساني الأولى وان من وضائفها استمرار النوع والمحافظةو.

وان الأسرة ليست مجرد وسيلة للتناسل وتربية الأبناء وإعدادهم للقيام بدورهم في الحيٰاة الاجتماعية وانما هي مصنع الرجال؛ ومنطلق الوجدان والعاطفة، بين الزوجين والأباء. ومن الأطفال والكبار على السواء.

ومن الذي يستطيع أن يوزع العاطفة والحب والحنان على الأسرة كلها غير المرأة. وفي تقدير كثير من الباحثين ان تربية المرأة أوسع من تربية الرجل وأرق وأبين وأكثر اختلافا وان المرأة حين تساق الى تربية مماثلة فان ذلك يكون عاملا هاما في تعجيزها عن أداء رسالتها الحقة: «وإذا كانت

أعباء الحياة المادية ملقاة أكثرها على الرجل فإن المرأة تتحمل أعباء أخرى أكثر دقة وهي المسؤولية الأدبية» وتقوم وظيفة المرأة المربية على اعداد الأطفال للتغذي بالمعاني الروحية التي تضع للحياة غاية وتدخل عليها الانشراح» ولهذا فجدير بالمرأة أن تطالب باصلاح جميع مناهج التعليم التي وضعت على أساس نظري محض وبطريقة ميكانيكية وعلى أن تنادي بتوجيه العناية الأولى في التعليم الى تهذيب الأخلاق والارادة وأنا نرى أن تعلم الدين ودراسة اللغة من أقوى ما يساعد على تحقيق هذا الغرض [1]

(7)

كشفت الأبحاث العلمية التجريبية والاحصائية في المجتمعات الغربية عن مدى الأخطار التي تواجه الأطفال في البيئات الصناعية وكون الأم تعهد بهم الى الخدم ودور الحضانة فذكرت هذه الأبحاث أن ذلك يعرضهم الى المعاناة العاطفية نتيجة نقص الحنان الفطري الذي جبلت عليه قلوب الأمهات وتعدد مراكز السلطة داخل الأسرة بين الوالدين مما يوقع الأولاد في حيرة نفسية ويشتت عواطفهم ويفقدهم أمنهم النفسي الذي كانوا يستمدونه من الأب باعتباره المصدر الأساسي للأسرة.

كما أشارت التقارير إلى أهمية دور الأم في بناء الأبناء وعادوا عليها باللوم فيما يختص برخاوة المراهق الذكر.

وقد أشار الدكتور اليكسي كارليل الى هذا الخطر حين قال: لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما، ولهذا ترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى ينصرفن لاعمالهن ومطامعهن الاجتماعية أو مباذلهن أو ارتياد دور السينما. إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهن أموراً كثيرة لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي

---

(1) من بحث للدكتورة سهير القلماوي.

والعقلي والعاطفي طبقا للقوالب الموجودة في محيطه اذ انه لا يتعلم الا قليلا من الأطفال الذين في مثل سنه وعندما تكون مجردا وحده في المدرسة فانه يظل غير مكتمل».

وقد تبين حاجة الطفل الى أمه كاملة كما أكد علماء الاجتماع والنفس ان المحاضن تمد الطفل بالرعاية الجسدية ولكنها لا تقوى أن تقدم العنصر الأساسي لتكوين شخصية الطفل وهي الأمومة والرحمة والحنان.

كذلك تأتي ضرورة تربية الأبناء على الرجولة وتربية البنات على الأنوثة ومن الضروري تحديد الفوارق وتعميقها فيكون الفرد اما ذكرا أما أنثى، فمن الخطر البالغ أن يتقمص أحدهما شخصية الآخر حتى لا يغلب عليه تقمص عقليته وميوله الجنسية.

(8)

ان المراجعة الدقيقة للشريعة الإسلامية في بناء شخصية المرأة يكشف بوضوح عن اعدادها الحقيقي لها لتكون زوجة وأما على نحو يكفل لها الكرامة والسلامة ويحميها من عوارض الأخطار المتعددة التي تنوشها، ومن أهمها «صيانة المرأة من جوار العرف والمواصفات وتقلباتها في المستقبل، فقد حفظ لها مقامها الاجتماعي من الابتذال المحاط بالمجاملة والرياء على نحو ما ترى في المجتمعات الغربية حيث يوجد احترام ظاهر لها ثم ابتذال غير رحيم إما الاسلام فقد جعل الصيانة هي المحور الذي تدور حوله أكثر الأحكام.

أما الطلاق والتعدد فإن الشريعة لا تشير بهما إلا عند الضرورة القصوى والحاجة الملحة وبشروط مقررة، وشرط تعدد الزوجية من الصعوبة بمكان مما حمل بعض الفرق على تحريمه لاستحالة تحقيق العدل بينهن، أما الطلاق فلم يستحسنه الإسلام إلا حيث تستحيل معيشة الزوجين معا وبعد اخفاق كل الجهود.

وليس الزواج في الإسلام نوع من المتعة بل هو نظام اجتماعي يهيئ للمجتمع مقومات العفة والفضيلة على أساس أن الأسرة هي نواة المجتمع الفاضل.

وقد حتم الإسلام التزام المرأة بأمور ثلاثة: ان تطيع زوجها في الفراش كلما دعاها اليها وإلا توطئ فراشه من يكره وأن تحفظ غيبته.

وقد فهم الاسلام أن الزواج ليس تلبية الحاجات الجنسية وحدها ولكنه جامع بين ذلك وبين تلبية المعاني الروحية والنفسية والاجتماعية كذلك لا يقر الإسلام خروج المرأة للعمل في غير الأعمال الضرورية التي تقتضيها حاجة المجتمع من ناحية أو حاجة امرأ بعينها من ناحية أخرى.

وتتحدد حاجة المرأة الى العمل في حالة عدم وجود عائل أو عدم كفاية ما يعولها به عائلها وأعظم مجالاتها (تعليم البنات والتمريض وطب النساء).

فالمرأة بتكوينها الجسماني والفكري والوجداني ليست مهيأة لوظيفة معينة هي الأمومة ما عدا الضرورة الملحة.

ولا ريب ان فهم مكانة المرأة في الشريعة على وجه صحيح ودقيق يحول دون تفسيرات عصور الانحطاط حيث اختلط مفهوم الاسلام بالعادات الاجتماعية السيئة والخرافات.

(9)

عندما انطلقت حركة تحرير المرأة في العالم الإسلامي لم تنطلق من داخل إطار الأصالة، وسرعان ما تلقفتها الأيدي التي حرصت على أن تدفعها الى الطريق المضلل الذي لا يحقق (الهدف) وإنما يحقق (الخطر).

ولم تلبث إلا قليلا حتى تكشف الخطأ في التصور وفي الحركة عن أزمة خطيرة اجتاحت الأسرة وكان لها أثرها البعيد في كيان المجتمع فقد خرجت عن الإطار الصحيح وتجاوزت الضوابط في مسائل اللباس

ومفاهيم العمل وشؤون التربية وواجبات الأسرة.

وغلب طابع التقليد والتبعية فأفسد الهدف الصحيح من تعليم المرأة وتحريرها من القيود والأوضاع الضارة التي كانت تعيش فيها.

ولم تستطع المرأة في ظل الأوضاع الجديدة أن تقدم نموذجا سليما يرضي الرجل المسلم ويحقق له مطامحه ويقيم الأسرة وينشئ الأجيال الجديدة، فقد كانت أضواء الحضارة الغربية بصورها المختلفة في محلات الأزياء والزينة وفي الصالونات والأندية وفي دور السينما والمسارح وغيرها تبهر نظرها وتفتنها وتدفعها بعيدا عن فهم رسالتها الحقة وسرعان ما طغى الأثر الاجتماعي فأفسد حياة الأسرة وحال بينها وبين الطابع الإسلامي كلية.

وكان للثقافات الغربية ومفاهيم النظريات والمذاهب الوافدة أثرها في عقلية المرأة التي غلب عليها حب التحرر من مسؤولية البيت والأطفال والاستمتاع بالمظاهر الخلابة في الملابس والسهرات وبدأ مفهومها للجرل متغيرا ومفهومها للعلاقة بين الرجل والمرأة مختلفا وتشكل في نفس المرأة مزاج جديد لا يقيم للعلاقة الزوجية اهتماما كبيرا، فضلا عن النظرة الى الرجل التي أصبحت لا تحمل طابع الحب والاحترام على النحو الذي رسمته شريعة الإسلام.

ولا ريب ان للرجل دخل كبير في هذا الفهم الخاطئ المنحرف، ولا بد ان للزوج أثر كبير في تشكيل زوجته واختبارها وبناء شخصيتها على النحو الذي يرتفع بها عن الأهواء الخاصة والرغبات الشخصية الى مستور المسؤولية الخطيرة مسؤولية المنزل ومسؤولية تربية الأبناء.

ولقد كان ذلك محققا لهدف من أكبر أهداف اليهودية التلمودية الصهيونية وهو تقويض الأسرة فعن أكثر من طريق: التعلم والثقافة والقصة والأوضاع الحضارية الوافرة من أزياء وزينة كل هذا بالإضافة الى عدم بناء المرأة على أساس مهمتها تربويا، واندفاعها الى العمل كل هذا «هاجم هيكل المنزل وقوض أركان الأسرة وفرق الروابط الاجتماعية ولا

ريب ان هذا الاتجاه هو بمثابة تيار مضاد للمثل الأعلى الإسلامي وقد ساعد على نشوء سبع علل اجتماعية:

1 ـ عدم التوازن الاقتصادي والانتهاء إلى أزمة شديدة الخطر تدفع الجياع لقبول المذاهب المتطرفة.

2 ـ هدم الحياة البيتية وافساد العلاقات الزوجية.

3 ـ انتشار العزوبة بسبب افساد تلك العلاقات الزوجية.

4 ـ ذيوع آفة البغاء بين الجنسين وتطرف النساء في التهتك والتبرج.

5 ـ اعمال تربية الأبناء.

6 ـ وقوع الجنس النسوي في الفاقة متى توقف العمل الخارجي.

7 ـ اغراق النساء في عرض أنفسهن الى حد افساد الأخلاق وإشاعة الفحشاء[1].

(10)

في دراسة واسعة عميقة عن الأخطار الاجتماعية في حياة المرأة المسلمة للكاتبة الباحثة العربية نازك الملائكة تقول: ان المرأة لا تزال تعيش تحت اسم (الجارية) بطلة ألف ليلة وليلة لا يهمها إلا لباسها ولا ترى في نفسها أكثر من متعة للرجل، تعيش بغرائزها وعليها أن تكون جميلة وأن تسلي الرجل وتطهو له الطعام السائغ وما زالت المرأة تحيا بعواطفها وغرائزها وحدها.

وأشارت الى فساد النظرة التي تجعل اكتمال جمال المرأة انما يكون بالملابس الكثيرة مع الفارق البعيد بين الجمال والأناقة.

أما الجمال فهو ينبع من الروح ويتمثل في الخلق الكريم والعذوبة والخشوع لله والنزاهة وهذا الجمال لا علاقة له بالملابس والحلاق.

وهذا الجمال تعريفه: أنه البساطة الانسانية والفطرة كما خلقها الله أما

(1) من بحث للعلامة محمد فريد وجدي.

التأنق فإنه من أخطر الأشياء على روح الانسان وما أشد اذلاله لها، لأنه يمثل الوسائل المصطنعة أو الجمال الزائف المصنوع بالوسائل الآلية وسواها.

وعندها ان الأناقة ضد المعرفة والعلم، وان المرأة التي تشغل نفسها بالملابس التي تبرز أعضاء الجسم، والتصنع في تصفيف الشعر كل هذا يؤدي بالمرأة ان تكون أشبه بالجواري في سوق النحاسين.

وأشارت الى مدى الفساد الذي أصاب المرأة التي تكتفي بهذا المظهر الزائف دون أن تكون عقلها وفكرها وتوسع أبعاد ثقافتها، بحيث تذل لتجلس تحت يد الحلاق ساعتين للشعر ومثلها للأهداب والأظفار ان كل هذا يأكل وقت المرأة وعقلها، ولا ريب أن الوقت الثمين الذي يضيع عند الخياطة يمكن أن ينفق في اسباغ الحب على أب شيخ مريض أو زوج مرهق أو طفل يحتاج الى التوجيه.

وقالت: ان دور الأزياء تحمل سيفا بتارا وترفع سبابتها آمرة ناهية فتصبح بالمرأة: البسي هذا واخلعي هذا فلا تزيد المرأة على الرضوخ الخانع دون أن تفكر لحظة واحدة في رفض هذه الأوامر.

وفي أحيان كثيرة تأمر دور الأزياء بما هو مضر أشد الضرر، ومن عجب ان المرأة تقبل وتسكت فتظنها منومة لا قدرة لها على انقاذ نفسها ومن أبرز الأمور المتعسفة التي قضت بها دور الأزياء لبس الكعوب العالية وهي بدعة ظالمة لم يعد الناس يلاحظون ما فيها من هوان وشر لطول ما ألفوها، والكعب العالي يقتل الروح ويذلها لأنه يفرض علينا أن ندوس طبيعة أجسامنا دون سبب وجيه.

وأشارت إلى ضرورة احياء ملابس الجدات الطويلة التي تصون العفة وتحفظ الجسم من الحر والبرد أجمل حفظ وفي وسعنا أن نطور هذه الملابس بما يلائم العصر على أن نضع الأنماط في بلادنا دون أن نستوردها من الخارج.

وتقول: ان وضع المرأة الحالي لا يعطها من الفرص أكثر من أن تذهب الى الحلاق وتتغنج وتحاول الاغراء على كل أسلوب. ثم غرتنا

الملابس القصيرة وكنا نأمل أن تردعنا عنها تقاليدنا الكريمة وحرمة الشرف عندنا، فإذا المرأة تنهار أمام هذا الغزو الفاضح ولا لوم عليها إذا هي انهارت فلست أرى الصحافة والاذاعات إلا مشجعة لها على الانهيار.

«إن أغلب معامل الأقمشة ومصانع العطور والمساحيق انما يملكها اليهود في الغرب واليهود كما ثبت في هذا العصر تسعون الى أن يسيطروا على العالم ويحكموه بعد القضاء على الحكومات العالمية جميعا.

وأسلوبهم في السيطرة ذو شقين: أولها الاستيلاء على المال في كل بلد ينزلونه وهذا قد يحقق لهم حينما وجدوا لأنهم قوم يقيمون تعاملهم على ابتزاز الأموال بوسائل غير مستقيمة مثل الربا، وثانيها: هدم الأخلاق والمثل والقيم والمعتقدات واليهود يعلمون حق العلم أنهم إذا هدموا الأخلاق تهدمت الشعوب وانهارت أمامهم.

وقد عمل اليهود على السيطرة على معامل الملابس والمساحيق والعطور وسواها من مستلزمات الموضة.

وهم بذلك يتوسلون الى تحقيق الغرضين فيسيطرون على المال ويفسدون الدين والأخلاق انهم يعملون على بيع أكبر مقدار ممكن من الملابس ومنتجات الأزياء إلى نساء العالم فكلما غيروا الأنماط ازدادت النساء شراء وانفاقا وتسربت الأموال الى جيوب اليهود وهم يتعمدون أيضا قتل الأخلاق القومية للشعوب فيشيعون التفسخ وينشرون الشهوات، وإنما الملابس القصيرة ابتكار يهودي فقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة ليزول الحياء وتنتشر الرذيلة ويشيع الاختلاط غير البريء وتضيع طهارة الفتاة وتنهدم الأسرة وتنتشر الأمراض الجنسية ويبتلى الأطفال الأبرياء وينشأ جيل ضائع موبوء مريض.

وبالجملة فإن فتاتنا العربية متخلفة تعيش بغرائزها دون عقلها وتمت للأزياء لا للحقيقة. إنما يتزين المرأة للرجل، فلو كانت كل فتاة تجد رجلا تعزه ويلومها على تبرجها ويعلن ازدراءه لها لتركت المرأة التبرج[1].

---

(1) من محاضرة للسيدة نازك الملائكة.

الفصل الثالث

الاعتراف بالرغبات في مواجهة نظريات الكبت

إن أعظم معطيات الإسلام في العلاقة بين الرجل والمرأة هو الاعتراف بالرابطة القائمة بينهما في مجال الغريزة والأحاسيس والجنس والإيمان بحقها في الممارسة في إطار الشريعة وعلى أساس الضوابط التي تحمي شخصيتها وحياتها من الاضطراب والتصدع . وقد جاء الإسلام في ذلك متسقا مع الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية بحيث حمى المجتمع الإسلامي من آثار التعرض لاخطار كراهية المرأة واحتقارها جسديا واستنكار العلاقة الطبيعية معها كما كانت تقرر ذلك بعض الأديان والنحل أو عبادة الجسد والأغراق في الجنس والإباحة كما تدعو الى ذلك بعض المذاهب والدعوات.

ومن هنا فان الإسلام في أفقه الفكري ومحيطه الاجتماعي لا يعرف قضية من قضايا الجنس أو أزمة من أزمات الكبت ولم ينظر الى العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها علاقة رغبة بل نظر الى هذه العلاقة على أنها مودة ورحمة، على أن متاع الحس والنفس بعض أجزائها. فهو لم «يحتقر ذلك النداء الطبيعي ولم يترفع عن الفطرة الانسانية».

لقد ثارت قضية الجنس واتسعت أفكارها ودعواها في ظل مفاهيم قضت باحتقار الرغبة وكبتها ودعت الى التخلص منها واعتبرتها رجس من عمل الشيطان ودعت الى مقاومتها بالرهبنة والرياضيات القاسية، أما حيث قرر الإسلام أن هذه العلاقة هي فطرة الله التي فطر الناس عليها وانها

واحدة من غرائز عدة شكلت النفس الانسانية على أساسها فقد تحرر المجتمع الإسلامي من مثل هذه التحديات.

ولقد قرر الإسلام مع اعترافه بهذه الرغبة والغريزة والإرادة امكان اعلائها وتأجيل ممارستها حتى تتيسر الوسائل المادية المحققة لبناء الأسرة دون أن يكون لذلك أدنى أثر في أجهزة الانسان النفسية والبيولوجية.

وقد شرط الإسلام لذلك أن يحمي المجتمع أبنائه من الآثار والأخطار التي تثيركوامن الغريزة. أو تدفعهم الى مواجهة أخطار الأهواء سواء من حيث ظهور المرأة في المجتمعات على نحو مثير. أو وجود عوامل أخرى سمعية وبصرية وثقافية من شأنها أن تثير هذه الرغبات وتضعف القدرة على مقاومتها.

ومن هنا كانت تلك الحملات الصاخبة التي تقذف بها القوى الخارجية في أفق المجتمع الإسلامي سواء من قصص جنسية أو أفلام مثيرة أو صحف عارية أو نظريات تبرر الكشف والإباحة.

ففي سبيل تيسير الاعلاء والتأجيل للشباب غير القادر على الزواج ألزمت الشريعة الإسلامية المسلمين حمايته والمحافظة عليه من أخطار الإثارة. وفي مقدمة ذلك شجب جماعات الرجال والنساء أو الخلوة بالنساء، وكذلك نهت عن سفر المرأة مع غير ذي محرم لها ووضعت عقوبات محددة للبغاء والقوادة، تصل هذه العقوبات في بعض الأحيان الى هدم المنزل الذي تمارس فيه البغايا البغاء وحرقها بعد الاستيلاء على ما بها.

وكذلك حرص الإسلام «على تحريم العلاقات الجنسية غير المشروعة بهدف المحافظة على الصحة العامة ومنع الأضرار التي تنتج غالبا من الاتصال الجنسي غير المشروع من أمراض تناسلية تضر ضررا مباشرا بالناتج البشري وما يحدثه من ضعف ووهن في النسل مما يلحق الضرر بالمجتمع والأمة كما يؤثر في الانتاج الاقتصادي» ولا ريب «أن تحريم صور الاتصال الجنسي غير المشروع كالزنا أمر تقتضيه ضرورة المحافظة على كيان الأسرة

واحاطتها بسياج من الأمان والاستقرار وتدعيمها كنواة أولى وأساسية للمجتمع».

كذلك يسر الإسلام سبيل التعاقد والزواج وخفض تكاليفه الى أبعد حد حتى ييسر الزواج وإقامة العلاقات الصحيحة بين الرجل والمرأة ودعا الى زواج الفقيرات المؤمنات والحيلولة دون التعقيدات التي تراكمت في العصر الحديث حتى تفسح المجال لاخطار الفتنة والانحراف.

(2)

لما كان الجنس عملا طبيعيا لحفظ النوع فقد كان الزواج عاملا طبيعيا للقضاء على أزمة الجنس، ولقد كانت الغريزة الجنسية سجية خلقية توجه الإنسان للالتفات الى الجنس الآخر وتدفعه للسلوك نحوه سلوكا خاصا وتحفز عواطفه بما يولد من اعجاب وعاطفة كان لا بد من إقامة اطار سليم مرن للتحرك من داخله حتى لا تضرب الحركة أو تفسد العلاقة أو تحدث أثرا سيئا في بناء الأجيال والدماء والأعراق.

وهذه العاطفة من شأنها أن ترقى الى الزواج وهو ارتقاء مدني وارتقاء عقائدي، ولا سبيل لهذه العاطفة أن تنمو إلا في اطارها الخاص وفي افقها الطبيعي:

حيث تولد منها الأمومة والبنوة وعطاء الرجل والمرأة المتبادل في إطار الأسرة.

ولما كان هذا المنطلق الفطري الطبيعي في الاتجاه بالعلاقة بين الرجل والمرأة الى الزواج هو بناء الأسرة فقد كانت الحملة عنيفة عليه من مدرسة العلوم الاجتماعية التي تتحرك في إطار المخططات التلمودية الصهيونية الهادفة الى هدم الأسرة، وتصويرها بأنها علاقة غير فطرية وتصور الزواج بأنه نظام عتيق. وإقامة أنظمة لا تقرها الفطرة الإنسانية كحرية الصداقة وحرية الزواج بغير عقد شرعي، وهي أوضاع تكون منها المرأة في مكان

المهانة الشديدة وفي موضع الإماء والبغاء المتجدد من الجاهلية الأولى في صور براقة باسم الحضارة.

ومن هنا كان خطر استقلال الغريزة الجنسية في الصحف والمجلات والكتب ودور التمثيل والأفلام السينمائية والأغاني في محاولة خلق مفاهيم فكرية وعقلية تخرج الأجيال الجديدة من المفاهيم الأساسية القائمة على العفة والبكارة والطهارة وحماية العرض وشرعية الزوا [illegible] ذلك بصورة ساخرة وكأنها من مخلفات التخلف.

(3)

ولا ريب أن من أخطر الدعوات التي تثيرها التلمودية الصهيونية قصة المحرمات الجنسية تحت اسم ما يدعى بالثورة الجنسية العالمية في سبيل تدمير القيم التي قررتها الأديان ووصف الزواج بأنه الصلة المؤبدة التي لا تحتمل النقض، ووصف الغيرة على الزوجة بأنها غيرة عمياء، ووصف العفة والطهر بأنهما سذاجة وإثارة الشبهات حول كل هذه القيم من أجل الهدف الواضح المعروف : تدمير الأسرة: النواة الأساسية للمجتمع.

وإذا كان كتاب الغرب الذين جندتهم الماسونية العالمية لهذا الغرض قد استطاعوا أن يدمروا فكرهم ومجتمعهم فان ذلك لن يخرجنا على مقومات الدين الحق، لقد تصدع البناء في الغرب بعد أن انسحب الأوروبيون من الدين عامة والأخلاق بصفة خاصة ثم توالت محاولات الاحتواء التلمودي الصهيوني للمجتمع الغربي.

والمسلمون يؤمنون بأن دينهم الحق عندما وضع لهم الضوابط والحدود إنما أراد بها تمكينهم من الحياة الكريمة وحماية شخصياتهم من أخطار التجاوز وعمل على بناء أجسامهم وأرواحهم في اهاب القوة والمنعة والقدوة على مقاومة الأخطار وأن هذه المحرمات ليست الا شيئا يسيرا بجوار ما أحل من الطيبات وما منع الدين شيئا الا وله حكمة كبرى في هذا

المنع، وأن مفهوم الثورة الجنسية في ضوء الإسلام ليس الا مفهوم انطلاق الغرائز والحيوان وتمزق القيم والحدود التي تفصل بين حريات الناس وحقوقهم وإنما هي دعوة الى حياة الغابة حيث ينزو كل على الآخر وتلك صورة منكرة جاءت الأديان ترفع من قدر الانسان عنها وترده الى انسانية كريمة، ولقد حفظ التاريخ صورة هذا التحرر الجنسي وهذا الانحراف الغريزي وهذا الانطلاق الاباحي في حضارات فارس واليونان والرومان وغيرها وعرف كيف قوض هذه الحضارات وأباد تلك الأمم وأصابها بالأمراض والأخطار التي أعجزتها عن أن تقوم بدورها في دورة الحياة ونهضة الأمم فصرعت ودمرت.

ولقد كان المسلمون بطبيعة تركيبهم النفسي والاجتماعي ومزاجهم الروحي أمة جامعة بين الروح والمادة معتدلة في مواجهة أمور الجنس، تنفر من عبادة الأجساد ومن الانحراف الذي يعرفه الغرب والذي تخلده آثاره الوثنية القديمة فضلا عن شعره وقصصه الحديث الداعر الماجن الفاسق.

ونحن نعرف أن من وراء هذه الدعوات قوى التلمودية التي تحمل لواء الالحاح على استدراج الأمم الى تدمير نفسها بالدعوة المسمومة الى الحصول على أكبر قسط من اللذة القول بأن "(اللذة هي غاية المرء من الحياة) وان من وراء هذه الدعوى القول بأن تحقيق ذلك القدر من اللذة غير متيسر في ظل نظام الزواج الحاضر، على نحو ما تدعو ماري دنكان وسيمون دي بوفوار.

ولقد ينظر هؤلاء إلى مثل هذه المحرمات على أنها من تقاليد الأمم ومن عاداتها وهي نظرة تختلف عن نظرتنا التي تقوم على أساس احلال ما أحل الله وتحريم ما حرم الله.

ومع ذلك فإن هناك صيحات تتساءل: هل يمكن أن نطرح اختبار البشرية وزيدة تجاربها آلاف السنين وهل العقل والاحتكام اليه يستطيع أن يهدي في هذه الظلمات دون نور القلب.

وهل يمكن أن يصلح نظام آخر غير نظام الزواج الذي سنته الأديان

في إقامة العلاقات بين الرجل والمرأة وينكشف أيضا ومرة أخرى الهدف. وهو هدم الأسرة. هذه الخلية العتيدة ولقد يذهب البعض أو تذهب أمم بحالها في عصر من العصور وراء هذه الأهواء المضلة ولكنها لن تستطيع أن تخرج البشرية من فطرتها ومن سننها ومن طبيعتها الأصيلة وسيظل نظام الأسرة كما فطر الله الناس عليه قائما.

(4)

إن مسألة الجنس في أفق المجتمع الإسلامي وفي الأدب العربي مسألة أكبر من حجمها الطبيعي أما في المجتمع الغربي والأدب الأوروبي فإن لها أسبابها وخلفياتها المرتبطة بمفهوم الكبت في المسيحية وهو عدم اعتراف الانسان داخل نفسه بأنه يحق له أن يفكر في اتيان هذا العمل بينما ليس كذلك في الإسلام، فضلا عن عدم إباحة الطلاق مما يؤدي الى الانتقال من الحلائل الى البدائل.

وقد كان ذلك وذلك كله مما دعا الى انتشار البغاء في أوروبا انتشارا واسعا بل ان هذا البغاء قد جاوز المدن والحضر الى أن اقتحم بعض دور العبادة وكان له وللخمر فيها تاريخ طويل فقد عرفت أثينا وروما والهند والصين وافريقيا واستراليا والبلاد العربية قبل الإسلام ما أطلق عليه البغاء المقدس، وهو ظاهرة ارتبطت بالوثنية فحيث كانت الأصنام كان بغاء مقدس، حيث يفرض على الفتاة الى أي فئة انتمت أن تقدم عذراتها الى الآلهة وأن تبقى مدة هناك لتجمع مبلغا من المال تتقدم الى الهيكل ثم تخرج وقد حدثنا هيردوت أن الجميلات لم يكن يطلن الإقامة ولكن الفتاة الكئيبة المنظر كانت مضطرة للبغاء سنوات لجمع المال.

ولقد كانت هذه البلاد تقيم الشعائر الدينية لأصنامها ممزوجة بجميع ضروب الخلاعة والفساد، وكانت عبادة ايزيس ومولك والبعل وعشتروت ومليتة وغير هذه من أخطر ضروب الخلاعة وأقبحها بل ان

المعابد الخاصة بتلك الالهة لم تكن سوى مسارح لاحط ضروب الشعائر الشهوانية التي كان القوم يمارسونها باسم الدين».

ولقد عرفت أوروبا هذا النوع من البغاء في كافة عصورها القديمة والحديثة، ولم تستطع الديانة المسيحية أن تحول بينها وبين هذا الوباء الخطير، وقد ورثت أوروبا الحديثة عن اليونان تقاليد عجيبة ومفاهيم خطيرة في تبرير هذا الاتجاه، فقد أصبح لامراء البغاء نفوذا خطيرا على رجال السياسة لا يقاوم أما الرومان فهم أول من ابتدع تسجيل بيوت البغاء فلما جاءت المسيحية كان موقفها إزاء محترفات المهنة أدعى إلى الرأفة بهن والشفقة عليهن.

ثم لم تلبث أن أعادت الحقوق المدنية والاجتماعية لمحترفات البغاء ومساعدتهن على التوبة حتى تزوج الامبراطور يوستناتوس بالباغية (تيودورا) ثم جاء ولاة الرومان الذين اضطهدوا المسيحية فعذبوا المتنصرين بارغام فتياتهم على البغاء وقد اعترف اباء الكنيسة وفي مقدمتهم القديس (اغسطينوس) بأن البغاء شر لا بد منه وبإن إزالته بتاتا قد يقضى الى انتشار الرذيلة على وجه أشد ضررا بالإجماع.

وفي العصر الحديث رأت دول الغرب في البغاء موردا ماليا لا يستهان به فنظمته تنظيما دقيقا وسنت له القوانين وكان لليهود دور كبير في نشره وتوسيع نطاقه وجعله مصدرا من مصادر دعوتهم التلمودية الى هدم القيم والمجتمعات الى جوار نظام الربا الذي فرض على الاقتصاد الغربي، ومن الحق ان الربا والبغاء هو وجهان لعملة واحدة هي المجتمع الإباحي الوثني الذي عاش اليهود لإقامته في كل زمان ومكان في العالم.

وقد عقدت مؤتمرات متعددة في أوروبا لمواجهة تجارة البغاء التي أشرف عليها وأدارها سماسرة اليهود تحت اسم تجارة الرقيق الأبيض من نساء وأولاد.

ولا ريب أن هذه الصورة التاريخية هي الخلفية الأساسية للعقلية الغربية في مواجهة مسألة المرأة خارج نطاق الزواج الشرعي. لقد كانت

أوروبا في عصرها السابق للمسيحية تدين بعبادة الأجساد وترى المرأة أداة لذة، فلما جاءت المسيحية عجزت عن أن تحرر أوروبا والغرب أو تصحح مفاهيمه ذلك لأنها حملت لواء الدعوة الى الرهبانية المطلقة وانكار الرغبة الحسية ومحاربتها ومحاولة تطهير النفس البشرية من أي شعور بالاستجابة للدافع الطبيعي الأصيل في الانسان، ومن هنا كان ذلك الاضطراب الذي تحول به المجتمع الغربي مرة أخرى الى الإباحية وكانت هذه الردة المعاصرة أشد عنفا من الصورة القديمة في عصور الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية.

(5)

ولقد جرت المحاولات لتصور الفكر اليوناني على نحو لا يكشف أعماق مفهومة للمرأة والجنس، غير أن هناك وثيقتين خطيرتين في هذا الصدد ترسمان الصورة الحقيقية لمفهوم المرأة والجنس في الحضارة اليونانية.

الأولى : مفهوم الفيلسوف اليوناني سقراط بالنسبة للجنس والمرأة وهو مفهوم خطير عمد كل الذين كتبوا عنه أن يحاوروا ويداوروا في تصويره خوفا من الكشف على حقيقة مما يبعث على الصد عنه واحتقاره.

ولقد تناول ذلك أحد تلاميذ هذا الفكر وأبتاعه حين قال: «ان سقراط هو الذي استطاع أن يلقي بظله العميق العنيف على كل الحضارة الغربية فقد كان سقراط رجلا دميا، ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقي، وقد كان مصدراً لاستيلاء الشذوذ الجنسي على الحضارة الاغريقية كلها مئات السنين، ولم يكن يستنكره أحد واستطاع سقراط بذكاء وخبث أن يفرض احتقار الجسد الانساني سواء جسد الرجل أم جسد المرأة، واحتقار كل ما هو جنسي ولان سقراط كان يرى أن المرأة هي حسن فقط وجنس فقط، فقد استبعدها من دنيا الحياة العقلية. ورأى ان المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منه الانسان ووراء سقراط وتحت تأثيره الهائل

سارت الفلسفة والأدب والمسيحية أيضا حتى يودنيا هذا»[1].

وهذه النظرة هي التي ظهرت بوضوح في (جمهورية أفلاطون) الذي دعا الى شيوعية النساء.

الثاني : الصورة التي رسمها الأدب اليوناني الهليني الاغريقي للمرأة هي صورة كريهة مريرة، فحرب طروادة الضروس التي طالت عشر سنوات اشتعلت نارها لأن هيلينة زوجة منيلاس وهو من سادة القوم عشقت باريس أمير طروادة وهربت معه الى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهدا وهكذا دارت الحرب المدمرة في سبيل امرأة غادرة لا تستحق غير الازدراء واصطلت الشعوب بسعرها دون أن يكون لها فيها مصلحة أو يحفزها اليها حافز».

«والمرأة الاغريقية تتصف بالغدر في أغلب مآسي الإغريق وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط النزوات».

وإلى جانب (هلينة) التي خانت زوجها دون أي تردد أو شعور بتأنيب الضمير هناك قصة (الكترا) التي تعبث فيها (كلتيمنسترا) بقدسية الروابط الزوجية وتتخذ لها عشيقا في غيبة زوجها (اخمنن) الذي رحل على رأس الجيوش الاغريقية ليغزو (طروادة) وينتقم من أميرها، ولم تكتف بارتكاب هذه المعصية ولكنها أقدمت على جريمة أشد نكرا مدفوعة بشهوتها البهيمية فقتلت زوجها البطل غدرا بالاشتراك مع عشيقها (ايجيست)[2].

وهاتان هما الحقيقتان اللتان تشكل عليهما من بعد العقل الغربي والأدب الأوروبي في فهم المرأة، وهما فيما يرى الكثير وفي الأصول العميقة لمفاهيم فرويد في الجنس والمرأة.

---

(1) من بحث للاستاذ

(2) النصوص من كتاب رحلة الأدب العربي الى أوروبا ـ محمد مفيد الشوباشي».

(6)

أما المفهوم العربي للمرأة قبل الإسلام (وهو مفهوم مستمد من الحنفية التي جاء بها ابراهيم عليه السلام ثم تحرر بالإسلام في صورته الانسانية) فإن المرأة العربية والمسلمة فيه «تتصف بالوفاء وتتولد محنتها عادة من رقة احساسها».

أما المرأة الإغريقية فانها تتصف بالغدر في أغلب مآسي الإغريق وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط النزوات».

وهكذا كان مفهوم الجنس منذ وقت بعيد في الفكر الغربي والمجتمع الغربي خاضعا لأشد ضروب الإباحة في الرجل والمرأة على السواء، ومن ثم فان مفهوم الحب الذي يتردد إنما يعني في حقيقته مفهوم الفعل الجنسي، بينما يقف الأدب العربي من الحب موقفا ساميا رفيعا، عجبت أوروبا له حين انتقل إليها من الأندلس فأنشأ ذلك الفن الذي وصف بأنه شعر التروبادور، فقد أهدى العرب والمسلمون الى أوروبا نموذجا انقى للحب العفيف بعد أن عاشت أوروبا لا تفهم إلا حب الشهوات والجنس والغريزة في أقسى صوره.

والحقيقة كما يقول الاستاذ مفيد الشوباشي ان الناس لم تكن تعرف الحب الطاهر قبل الإسلام وان الشعر الجاهلي العربي لم يصور لنا الحب الا لهفة على تلك المرأة والاستمتاع الحسي بها، فلما جاء الإسلام تغير مفهوم المرأة ومفهوم الجنس ومفهوم الحب.

ونزهت المرأة عن أن تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة، وظهر الحب العذري وتخطى حدود نجد، وذاع في أنحاء البلاد العربية وانتقل الى أوروبا وكان كما يقول بعض نقاد الغرب الشرفاء: أهم عامل في تهذيب النفوس وتهيئة السبيل لانتقال البشرية من العصر الوسيط الى العصر الحديث.

«ان العرب منذ فجر الاسلام لم يعرفوا نظام الحريم ولم تحجب المرأة وجهها بالنقاب الا نادرا».

يقول سبيرونكس في كتابه القصة في سبعة قرون: لقد غفلت المرأة الأوروبية عن حقيقة لو فطنت اليها لنهنهت من كبريائها فهي لم تبتدع أسباب رقيها ولكنها ورثته عن المرأة العربية.

«ومن الأخطاء الشائعة نسبة الحب الطاهر المنزه عن النزوات الجسدية إلى افلاطون وتسميته الحب الافلاطوني فهذا الفيلسوف الاغريقي لم يبشر قط بالحب المذكور ولم يشر اليه أية إشارة عابرة ومرجع هذا الخلط الى اشتهار افلاطون بازدراء ماديات الحياة وحقائقها الواقعية».

«وقد يخطر بالبال في بعث الحب الطاهر الذي عبر عنه شعراء التروبادور يرجع الى المسيحية ولكن تعاليم الدين المسيحي لم تغير في وقائع الأمر شيئا من القواعد الهمجية والأخلاق البربرية الوثنية التي سيطرت على أمراء أوروبا وسراتها قبل اتصالهم بالعرب، فقد اضطرت الكنيسة الى التغاضي عن ذلك، والكنيسة كانت واقعة تحت سيطرة الفكر الاغريقي ومن المعروف ان فريقا من قساوستها كان يتعصب لافلاطون وفريقا آخر لارسطو، فطغت معتقدات هذين الفيلسوفين وتعاليمهم على معتقدات الكنيسة وتعاليمها وكان أغلب المشتغلين بالأدب من رجال الكنيسة ولكنهم ظلوا متأثرين بالفكر الاغريقي».

ومعنى هذا أن أروبا والأدب الغربي لم يعرفا هذا اللون من الحب القائم على الوجدان والحنان الا عن طريق العرب.

يقول روبير بريفو: «ان فلسفة الفضيلة، فلسفة الحب التي طال ارتباطها بالشعر العاطفي المقتبس من الأندلس والتي سادت دوائر الحب في بروفانس، استمدت من الإسلام أصولها والشعراء التروبادور المتتلمذون على الشعراء العرب لم يحيدوا عن استغلال الفلسفة الصوفية، إذ لم يكن في وسعهم أن يستعينوا بمذاهب الطهر والعفة، ولذلك حرصوا على أن

يستمدوا العواطف التي يصفها العرب بالطهر من الشعر الأندلسي القادر على تزويد فنهم باناقة خاصة».

وقالت سجريد هونكة: ان تعبيرات احترام المرأة دخلت اللغات الأوروبية على يد العرب.

ويشير انجلز: ان الحب الذي تصوره لنا ملاحم الاغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدي العنيف المنتقم الذي تراق في سبيل ملذاته الدماء وتزهق الأرواح.

أما الحب الانساني: العفيف الوفي، الذي يبعث المروءة والنبل والنخوة والنجدة، الحب الذي عرفه الانسان لأول مرة في ربوع نجد فلم تعرفه أوروبا الا بعد اتصالها بالعرب ولم يعبر عنه الشعر الأوروبي والقصة الأوروبية إلا منذ ذلك الحين ولكن المثقفين من الأوروبيين ينكرون هذه الحقيقة».

وكهذا قام الحب في الأدب العربي على أساس العفاف والإيمان بالعفاف على حد يعتبر الدكتور مصطفى عبد الواحد: فالعفاف ضرورة للحب وبدونه يصبح رذيلة من الرذائل لا ترتبط بقيمة خلقية ولا ينتسب الى معنى كريم، والإيمان بالعفاف مستمد من الإسلام أصلا، «حفاظا على العاطفة ونأيا بها عن الدنايا» ومقياسه «الالتزام بمبادئ العذرية والبعد عن التعلق بالحس والاعجاب بالصورة».

وقد صور هذا المعنى العلامة ابن حزم حين كشف عن أصالة الحب في الفكر الإسلامي القائم على فضل العفاف وتقبيح المعصية وسلوك كل السبل في الاقناع والتحذير بما يعود بالعفاف إلى مصدره الأصيل وهو خوف الله وحذر سخطه وبالرغم من أنه يؤمن بقوة الغرائز وحتمية قوانينها إلا أنه يرى ان بامكان الانسان (المسلم) أن يطيع عقله ويبصر رشده ويجانب ما حرم الله).

وقد أشارت الدراسات المتعددة التي أجراها الباحثون على مفهوم الحب في الإسلام:

إن الحب ليس بحرام في ذاته ما دام صاحبه يرعى حدود الدين وأدابه ويحذر من المعاصي ويقف عند حد العفاف[1] وأن هناك رابطة حقيقية بين الحب وبين الزواج على أساس الشرع.

ومعنى هذا ان النفس الإسلامية بطبيعة تركيبها وابعادها التاريخية والعقائدية لا تقبل ذلك المفهوم الغربي الذي يجعل الحب هو ذلك المفهوم الحسي الخالص، ولا يقر مفهوم الجنس على تلك الصورة المكشوفة ويرى ان ذلك كله يجرد المفاهيم الحية من أبعادها الحقيقية وجوهرها الصافي ويجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة مادية حسية محضة بينما أن هذه العلاقة في حقيقتها وجوهرها رابطة وسكن وعاطفة ووجدان والرغبة الحسية جزء منها ولكنها ليست كل شيء.

ومن هنا فان مفهوم فرويد وما يتصل به هو مفهوم غريب على النفس المسلمة وغير قابل للالتقاء بالمفهوم الإسلامي الأصيل.

(7)

إن مفهوم الجنس الذي تطرحه النظريات الاجتماعية الغربية، هو مفهوم زائف ليس بالنسبة للمجتمع الإسلامي وحده بل بالنسبة للبشرية كلها، لأنه اخراج لها عن فطرتها ومباعدة بينها وبين طبيعة الانسان نفسه.

فإن هذه المكاشفة الفاضحة، وهذا الاندفاع نحو الشذوذ، والاسراف والانحراف ليس هو السبيل الطبيعي لبناء الانسان أيا كان، وليس تحقيق الذات بالجنس في غير اطاره الطبيعي والمشروع إلا عاملا من عوامل هدم البناء الانساني وتدميره.

إن الاتصال بين الرجل والمرأة شيء طبيعي ولكن الأخلاق تنظمه وتضع قواعده حتى يتم في إطار الفطرة: دون عدوان أو اغتصاب أو افساد للسلائل أو تدمير لكيان الانسان.

---

(1) عن مبحث الحب في الأدب العربي للدكتور مصطفى عبد الواحد.

ولقد تنبه (جون كارل فلوجل) إلى هذا المعنى حين قال: ان مكتشفات التحليل النفسي ونظرياته في ميدان الغريزة الجنسية قد صدمت شعور كثير من الناس، ومن هنا فهو يدعو الى «الحذر من نتائج هذه النظريات وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد القديمة المقدسة» وقال ان علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين بهذه العقد التي يحلو لهم الحديث عنها لذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبة بالهوى قائمة على معرفة مبتسرة.

ولقد كشف علماء الطب والبيولوجيا على مدى خطر الافراط الجنسي وأثره في عرقلة النشاط العقلي وأشاروا إلى أنه لا سبيل إلى ري العاطفة الجنسية فإنها لا تشبع أبدا ولا ترتوي مها مورست.

وإن ذلك من شأنه أن يؤدي الى اخطار في العقل والجسم دونها أخطار الامتناع والحرمان.

بل لقد أكد العلماء والأطباء ــ من غير رجال الفلسفة ــ ان الأقوياء يصيرون أكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد أو الامتناع.

وأشار الدوس هكسلي في كتابه الوسائل والغايات نقلا عن اخصائي كبير قام بأبحاث هامة واحصائيات دقيقة عن وجود علاقة عكسية بين النشاط الفكري والاجتماعي والفني من جهة وبين الإباحية الجنسية من جهة أخرى وبأنه لا يمكن تلازمها أكثر من جيل وان العفة والاحصان شرط ضروري يسبق كل نوع من الحياة الخلقية التي تسمو على الحياة الحيوانية.

ويرى كثير من العلماء والباحثين أن العلم ما زال قاصرا في ميادين كثيرة ومنها ما يتعلق بالنفس الإنسانية وبتركيب الانسان وخاصة في مجال الغرائز والعلاقات الجنسية.

يقول دكتور الكسيس كاريل: ان أغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لان هناك

مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة فنحن لا نعرف الإجابة على أسئلة كثيرة مثل:

كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟ كيف تقرر (ناقلات الوراثة) الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة، كيف تنظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها، مثل الأنسجة، والأعضاء فهي كالنحل والنحل تعرف مقدما الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموعة، وما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي. اننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا، «اننا ما زلنا بحاجة الى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية: أي إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم،كيف يتأثرالعقل بحالة الأعضاء، على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والفعلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة، والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية» ويعلق على هذا بعض الباحثين المسلمين فيقول «هذا التعقيد في تركيب الكائن الانساني وفي وظائفه وفي أوجه نشاطه هو الذي يتسق مع ضخامة وتشعب وظيفته الأساسية في خلافة هذه الأرض، وهو تعقيد ما زال مستعصيا على العقل البشري لانه فوقه وأكبر منه.

(هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم).

هذا التركيب العجيب في وظائف الأعضاء وفي أعمال الغرائز وفي شأن التركيب الخاص بالجسم في الرجل والمرأة تجعل كل ما يقوله فلاسفة النفس والعلوم الاجتماعية في حاجة الى أن يتلقى بحرص شديد وتوق شديد لانه ليس إلا جملة فروض يحكمها الهوى وتدفعها الرغبة وتتحرك من خلال غرض مرسوم، فهي ليست خالصة للعلم وحده. لإن العلم نفسه في هذه الأمور قاصر وليس أمامنا من حقائق الا ما قدمه لنا الدين الحق، في مفهوم الفطرة وقوانينها والسنن الثابتة التي لا تتغير:

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾.

ولقد كشفت الفطرة عن حقائق كثيرة في علاقات الرجل والمرأة، جاءت بها الأديان، وفصلها الإسلام وهو الصورة الأخيرة للدين الحق، ثم جاءت نظرات علماء الطب والبيولوجيا (وهم ليسوا من الفلاسفة والمتصدرين في مفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق) فأكدوا هذه الحقائق.

ولقد حاولت دعوات العلوم الاجتماعية وفرويد ومن وراء أفلام الجنس، وصحافة الجنس، وكتب الجنس، أن تغري البشرية بالدعوة الى الانطلاق بغير حساب بينما قال الطب غير ذلك تماما، وأكد ما قاله الإسلام:

يقول دكتور كاريل «من المعروف ان الافراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي. ويبدو أن العقل يحتاج الى وجود غدد جنسية حسنة النمو وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته».

وأشار كاريل الى أن نظرة فرويد في هذا الصدد محدودة ولا تمثل الحقيقة كلها، فقال ان ملاحظات فرويد تتعلق بالمرضى على الأخص، ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا، وسيطرة على أنفسهم، وبينما يصبح الضعفاء المعتلو الأعصاب غير المتزنين، أكثر شذوذا عندما تكبت شهواتهم الجنسية، فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة».

(8)

إن الفرضية التي طرحها (فرويد) في أفق الفكر البشري كله والتي تسربت إلى الفكر الإسلامي واستطاعت أن تكون مادة تدرس في الجامعات والمعاهد يعتريها النقص من كل جانب، وتحيط بها وبوجهتها الشبهات من كل جانب.

هذا الغرض الذي يقول ان نوازع الانسان ودوافعه كلها تنطلق من الجنس وان الغريزة الجنسية هي مصدر كل تصرفاته. هذا الغرض الذي افترضه فرويد انما استمده من تجارب على المرضى زوار عيادته ولم يستمده من الأصحاء، وهو قد خالف به زملاءه في التحليل النفسي:

(أدلر ويونج) فهما لم يقبلا به، وهو عندهما مضاد للتجربة وللعلم وللفطرة وللطبيعة البشرية، ولكنه الافتراض الغريب هو وحده الوحيد الذي أصبح من المسلمات والذي وجد من القوى ذات النفوذ تأييدا ساحقا حتى استطاع أن يسيطر على آفاق الفكر الغربي ويؤثر في نظريات الأدب والقصة والفن ومفاهيم الأخلاق والنفس والاجتماع وفي تفسير التاريخ.

إن فرويد لا يقرر بذلك حيوانية الانسان فحسب، لكنه يرى أن القهر والدين والأخلاق والقيم العليا في حياة البشرية تنشأ من الجنس، وان الانسان تحكمه غرائزه وتسيطر على نشاطه، وان الروح لا وجود لها على الاطلاق، وأن القيم خرافة وهي نفاق العقل للنفس والمجتمع.

ولم يقف فرويد عن حد هذا التصور المادي فحسب بل انه وضعه في اطار الجبرية المطلقة ، فالغرائز عنده لا يمكن قمعها ومن العبث محاولة كبتها.

وهو بذلك يلغي الارادة الفردية والمسؤولية والالتزام الأخلاقي ويدفع البشرية كلها الى أتون الشهوات والأهواء ويحطم كل الضوابط والحدود والقيود التي تحفظ للانسان بناءه الجسمي والنفسي وتحفظ للمجتمع كيانه الأخلاقي وروابطه الفردية وعلاقات الرجل والمرأة.

ولكن ليست العبرة بالنظريات أو الفروض المطروحة في أفق الفكر البشري وهي كثيرة متعددة متضاربة، وقد قصد بها الى تبديد الأمن النفسي واذابة الأفراد والجماعات في أتون الحيرة والقلق والتمزق، ولكن العبرة بالقدرة على إذاعة هذه النظرية ودعمها وإحاطتها بقداسة العلم وبراية العرض:

تقول بروتوكولات صهيون التي ترسم السياسة اليهودية:

«يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا، ان فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر ارواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه».

ويقول لوكهارت في كتابه اليهود المعاصرون: إن الأدب العالمي قد يكون مدينا لبعض كتاب اليهود ولكن شرهم أكثر من نفعهم، وإثمهم أكثر من خيرهم، فإن هيته أفسد أخلاق باريس وتواردو حلل المبادئ والنظم التي تدعم المدينة وأظهر كسادها وتعفنها، أما فرويد فقد خلق الإباحية الحديثة على نمط الوثنية الاغريقية ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاءا».

وفي ضوء نظرية فرويد بدأت حركة ضخمة في المجتمعات والقصة والأداب وتدافعت القوى الخطيرة لإقامة أندية العراء، وحملت اليهودية التلمودية أخطر دعوات الاجتماع، والفكر في هذا العصر: الدعوة الى العري والجنس والكشف والإباحة: وهي دعوة خطط لها علماء وباحثون واجتماعيون وسيطرت على دور السينما والنشر والازياء والزينة جميعا: دعوة الى أن يصبح الناس لا يخجلون من أعضائهم التناسلية بل ويقدسونها وقد أزاحوا كل من وقف في سبيل معارضة دعوتهم.

وأخرجوا المدرسة الغربية من نفوذ الدين حتي يبيحوا لها تقبل كل توجيهاتهم وسخروا بكل القيم والأديان وجرى أتباعهم على نفس الطريق يبحثون عن المحرمات ويسخرون بالأخلاق ويدعون الى التحرر من كل القيم.

إن أكبر الدلائل على ضعف نظرية فرويد هي أنها لا تعارض القيم الأخلاقية التي جاءت بها الأديان والتي صاغها الإسلام كخاتم لهذه الأديان في صورتها الانسانية والعالمية فحسب ولكنها تعارض المنهج العلمي الحديث في المعرفة ولا تجد تسليما بها في أي مجال من مجالات هذا العلم حتى في مجال التحليل النفسي الذي يعد فرويد مؤسسه وواضع قواعده.

وذلك لسبب يسير جدا، هو أنها تحتقر الانسان وتصوره كأنه مجموعة من الغرائز والشهوات ، لا ترتفع عن واقع الأرض المادي ولا تنطلق من قيد الغريزة لحظة في فن رفيع أو فكرة عليا» مع أن شخصية الانسان فسيحة لها أبعاد واسعة وعميقة تشمل عشرات من الرغائب والأهواء والمطامع والمطامح فإذا جاء فرويد ليحصرها في الجنس وحده، أو يجعل الجنس منطلقها الى كل رغائبها وغاياتها كان واضح الاعتساف والابتعاد عن المنهج العلمي الحقيقي والنظرة الأصيلة.

لقد اعتمد فرويد على المدرسة الاجتماعية التي اتخذت من دارون منطلقا لها في اقرار حيوانية الانسان وماديته ونفي جوانبه الأخرى النفسية والروحية وطوابعه الاجتماعية والانسانية وذهب في ذلك إلى أبعد مما ذهب تلاميذ دارون من أمثال سبنسر وغيره.

فالانسان ليس مخلوقا أرضيا وليس له جانبه المادي وحده، ولكنه متميز عن سائر المخلوقات بالسر الذي أعطاه الله تبارك وتعالى له عن طريق العقل والنفس والإرادة والمسؤولية وجعله أهلا لحياة أخرى أعظم من هذه الحياة.

وهو ليس مقطوع الصلة بعالم الغيب ولا بالنبوات ورسالات السماء ولكنه موصول بها أعمق صلة وعمله في الدنيا مسؤولية ورسالة لها تبعتها ولها اتصالها بعالم الآخرة الذي هو الحلقة الأخيرة المرتبطة بالدنيا ارتباطا

عضويا وثيقا، ارتباط التكامل وارتباط التتابع وارتباط الشرط وجواب الشرط.

إن مظهر حيوانية الإنسان من شهوة طعام وشهوة جنس وشهوة امتلاك ليست الا وسائل لقيام واستمرار عمران هذه الأرض ودوام حركتها الى أجلها المسمى عند خالقها، فهي ليست الا مظاهر الحياة فيه ولكنها ليست جوهرها، إنها الوسائل الطبيعية التي تمكنه من أداء دوره وتحقيق ذاته ولكنها تحمل في الأعماق فكرة عالية ورسالة كبرى هي تحقيق إرادة الله في الأرض بالاستخلاف وبإداء هذه الرسالة في حدود ضوابطها وفي نطاق مسؤوليتها ، بالإرادة الفردية العاملة المسؤولة عما استخلفت فيه.

ولا ريب ان ذلك كله يغيب عن أصحاب النظرية المادية فلا تبدو الحياة لهم إلا في أحد صورتين:

اما أنها أداة الجنس أو أداة الطعام (فرويد وماركس).

(10)

جمعت نظرية التحليل النفسي بين فرويد، وادلر، ويونج ثم فرقت بينهم فكرة الغريزة الجنسية ، فكانت نقطة الخلاف: يرى فرويد أن الجنس هو الأساس في كل الدوافع الإنسانية.

أما أدلر فقد رفض هذا الافتراض، وقد نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله، وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية الى مجرد الرغبة في القوة، وحاجة الانسان الى التعويض عن نقص ما في كيانه، وعنده أن المحرك الأول للانسان هو حب السيادة والسيطرة. أما يونج فيقول ان الجنس ليس الا دافعا واحدا من دوافع عدة.

النزوع وتحقيق كبريائه وتركيز الضوء على شخصيته، وأن حافز توكيد الذات وليس الواقع الجنسي، هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة. ويرى

أن الدافع الجنسي ليس له تلك الأهمية الشاملة التي ينسبها فرويد اليه في حياة الطفل.

ولم يؤمن يونج بقاعدة واحدة تصلح للتطبيق في جميع الحالات النفسية. وقال: ان لكل نفس بشرية قاعدتها التي تصلح لمعالجتها ، فلا سبيل لإيجاد حل واحد لنفسيتين مريضتين، وان ظهر للنظرة الأولى ان الأعراض بينها مكررة، والأقوال متماثلة.

وعلى الرغم من أن هذه كلها فروض تثبت أو تخفق أمام التجارب المختلفة ، فإنها في مجموعها قد هزت فرضية فرويد هزا عنيفا وحاولت أن تكشف عن فسادها.

وقد قال يونج: ان اراء فرويد ذات جانب واحد وانها غير ناضجة تمام النضوج.

وقال: ان الدافع الجنسي لا يميز نفسه عند الطفل، وينكر أن اللبيد جنسيا بكليته وأن مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء هو اللبيد، ولكن يجب ألا يوصف بأنه جنسي أبدا وذلك على اعتبار ان الدافع الجنسي لم يميز نفسه بعد عن الميل الابتدائي للحياة.

ولقد رفض شركاء فرويد مفهوم (اللبيد) أي الطاقة الجنسية، وأطلقوا على هذه الطاقة أسماء مختلفة. منها قوة الحياة أو الدافع الحيوي كما سماها برجسون.

وكشفوا كذلك عن أن في الانسان ثلاث غرائز أخرى أقوى من الغريزة الجنسية، وهي البغض والتعدي والتحدي ، وهي تسبب بتوترها جميع الاضطرابات العقلية في العالم.

ويرى ادلر، أن اسلوب الحياة لا يفرض على الانسان فرضا بالوراثة، بل يحدده مركز الأسرة، وأن تكوين الأنماط البشرية يبدأ في هذه الفترة المبكرة وان الطفل قبل سن الخامسة لا يعرف القيم والمعايير الخلقية، بل يكسب أسلوب الحياة بالقدوة والمثال من البيئة التي يعيش فيها.

ويذهب أدلر إلى نقض نظرية الدافع الجنسي لفرويد من أساسها، حين يقرر أن الحب أصل والحياة الجنسية فرع، وان الحياة الجنسية لا تظهر في الفرد إلا عند البلوغ.

ويرد أدلر الاضطرابات التي تعتري حياة الأطفال النفسية في مطلع حياتهم، إلى عدم شعورهم بالعطف والحب، وان الأطفال الذين يفقدون حب ابائهم يصبحون مصدر مشكلات كثيرة، لأن الطفل الذي يلتمس الحب فلا يجده، يركبه الحسد والغيرة، ويميل الى سلوك يحاول به لفت الأنظار وإثبات سيطرته، وقد يدعي المرض أحيانا التماسا للعطف.

ولا ريب أن هذه الآراء جميعا، تختلف مع أسس نظرية فرويد وتنقضها من أساسها.

وقد أثبت يونج، ومكدوجل أن العقل الباطن ما هو الا خرافة ونوقش فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة فرويد فأنكرهما أخيرا.

وقد أجمع العلماء على أن نقطة الضعف في فرويد كعالم، انه أتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعليم والوصول الى قوانين عامة، وانه كان يتخذ من نماذجه المرضى والمنحرفين أساساً لنظرياته، وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته، ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه كيهودي في النمسا المتعصبة ضد اليهود قاعدة كل تصمياته.

ويذهب كثير من الباحثين الى أن فرويد أقرب الى المتنبئين منه الى العلماء، وانه يرمي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم البرهان العلمي والسند الواقعي، اي أنه يفترض ثم يصدق ما يفترضه ويبني عليه وكأنه حقيقة لا يأتيها الباطل.

(11)

أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل، أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة تالية من كثير من الدوافع الأخرى (كالدافع الى الشراب أو الطعام أو الهواء)، ثم ان الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى اننا نستطيع تربية الانسان على العفة، بحيث يضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه، وبذلك تكون العفة أمرا ليس ممكنا فحسب، بل ضروريا.

وتأتي مسألة الكبت من أهم الأمور التي وجه اليها فرويد تحذيرا شديدا، وهي بمفهوم الفكر الغربي قد تكون كذلك ، ولكن المجتمع الإسلامي الذي يعترف بالغريزة الجنسية وبالرغبات البشرية وينظمها ويدعو إلى ممارستها وتحقيقها في إطار من الاعتدال والضبط، يمتنع معه وجود الكبت أو ما يتوقع أن ينشأ من الكبت من أمراض نفسية أو عصبية.

ذلك لان الفكر الغربي المسيحي في أعماقه، يحمل أمرين خطيرين أحدهما مسألة الخطيئة الأولى المفروضة على النفس البشرية الى آخر المدى، ومسألة انكار الدافع الحيوي واحتقاره والدعوة الى الاستغناء عنه بالرياضيات المرهقة.

ومن هنا فان المجتمع الإسلامي الذي يعترف بالدافع الحيوي ويدعو الى ممارسته إذا ما تيسرت أسبابه الاجتماعية والاقتصادية، أو اعلائه وتأجيله إذا لم تتيسر هذه الممارسة مع الاعتراف به وتأكيد وجوده، هذا المجتمع لا يصاب مطلقا بأزمة الكبت التي هدد بها فرويد المجتمعات في سبيل الإباحة وإطلاق الجنس.

ومن أخطاء فرويد التي كشف عنها العلم، دعواه بأن معارضة رغبات الطفل في صغره تؤثر في تصرفاته في الكبر ، وقد روج هذه النظرية علماء التربية من أتباع ديوي، وخاصة في بلادنا العربية والإسلامية، وقد تبين من بعد فشلها وزيفها. فقد أجرى عدد من العلماء الأمريكيين

دراسات تجريبية بيئية عن طريق الاحصاء، تبين منها ان استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل ضرورة، وانها لا تؤثر مطلقا على مستقبل الطفل ، وقال هؤلاء الباحثون ان مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل، منها البيئة والوسط والحالة الاجتماعية.

ونصحوا الآباء بأن لا يستسلموا لهذه الفروض الوهمية ولا يتركوا أبنائهم دون توجيه ، وبناء، فإن ذلك من مسؤوليتهم الأساسية.

وخرجت دراسات متعددة تكشف زيف فروض كثيرة مما طرحه فرويد واستسلم الفكر الغربي له، من ذلك ما ذكره الدكتور ناتان كلاين من أن نظرية فرويد في العلاج النفسي والعقلي (وهي النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية الى أسس جنسية بحتة)، هذه النظرية ليست سوى معول هدّام لعقول الشباب ومخدر مميت للنفوس ورجح الدكتور كلاين البيئة كمسؤول أول عما يصيب الانسان من انحراف نفسي وعقلي.

وكذلك أجرى الدكتور اسكندر توماسي عددا من البحوث بواسطة فريق من الأطباء النفسيين انتهى منها إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة، وان اقبال رجال التربية على لوم الآباء بشأن توجيه أبنائهم كان من أكبر الأخطاء. ويقول العلماء في تقريرهم، أنهم درسوا حياة 158 طفلا غير منحرفين ، بينهم الفقراء والأغنياء، فوجدوا أن الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من قيود النظم القاسية في تربيتهم، وذلك يدل على أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل.

وأن هذا من الأوهام التي شهرها سيف فرويد على اعناق الآباء.

(12)

من أجل كرامة الله يعادي الإسلام الفكر المعادي للزواج، ومحاولات اخراج العلاقة بين الرجل والمرأة من إطارها الكريم وضوابطها الرفيعة وجعلها سائبة لا حدود لها، ويربط الإسلام بين الرجل والمرأة

بعلاقات كبرى: ليس الجنس الا أحدها وأقلها، فهي علاقة مودة وعاطفة ووجدان وصداقة عقل ونفس ، ومنها جانب الغريزة وقضاء الوطر ونيل اللذة.

ويختلف هذا الفهم الجامع المانع عن مفاهيم الغرب القديمة والحديثة

القديمة التي يرى ترتوليان: ان الجنس ثمرة الخطيئة: خطيئة حواء وآدم، فالفلسفات السابقة على الإسلام تحاول حصر الزواج في أضيق نطاق ، وتحرمه على القادة الروحيين أو تقلل فرصته بمنع زواج الأرملة والمطلق [1].

أما الفكر الحديث فانه يطلق العلاقة اطلاقا تاما من كل القيود، ويدفعها إلى محاولة واضحة للقضاء على الأسرة، ويقصرها على هذا الأداء الجنسي السريع ثم ينتهي كل شيء من هذه العلاقة.

ومن هنا كان تشديد الإسلام في عقوبة الزنا فهي جزء من خطته في تقدير المرأة واعلاء شأنها.

«ان تحريم الزنا في الإسلام لا ينبعث عن كراهية الجنس بل من احترام الجنس وتنزيهه عن العبث ومن احترام المرأة وتنزيهها عن أن تكون أداة لمتعة الرجل وحتى لا ينسب الطفل، لغير المصدر الحقيقي الذي أنجبه فإذا علمت أن الزنا لا يجوز إثباته بالتجسس أو الشبهة، وأن عقوبة الرجم لم تطبق في التاريخ الإسلامي إلا على معترف أو معترفة وان هذا الزاني المعترف لو انكسر بعد أن أصابته الأحجار، بل لو فرّ هاربا من الأحجار لاوقف تنفيذ الحد».

ومن هنا ومن حيث يعترف الإسلام أساسا بالرغبة، ويدعو إلى ممارستها ووضعها في حلال، فإن مجتمع الإسلام لا يعرف هذا الشعار الذي يتحدث عنه كتاب وكاتبات الغرب، أن قضية تحقيق الرغبة في الإسلام يسيرة جدا فهي لا تحتاج الى أكثر من كتابة عقد الزواج.

---

(1)و (2) عن بحث للاستاذ محمد جلال كشك.

أما تحقيق الجنس بالبغاء فانه ليس أسلوبا أصيلا لتحقيق رغبة الانسان بالكراهية والاحتقار، ان البغاء هو احتقار للمرأة وهو ليس حبا ولا جنسا، ومن هنا يشجب الإسلام فكرة مشاغبة النساء ويركز على الأبوة ويجعلها الأساس الأول للأسرة (**أدعوهم لاباءهم هو أقسط عند الله**).

إن هذه المحاولة كلها المحفوفة ببريق الشهوات وزخرف النظريات الاجتماعية، إنما هي محاولة من الرجل للخروج على الأسرة وهدمها وتحطيم أصولها:

إنها محاولة الرجل الغربي لجعل المرأة أداة لذة ومتعة دون مسؤولية عليه، ودون بناء أسرة ، ودون تحمله تبعة الأبناء، ومن ثم تظل المرأة جارية وغانية ولا تصل إلى مكانها الكريم الحق الذي قررته لها الأديان.

إن الجنس الذي احتقره رجال المذاهب والديانات في الماضي بالشجب والتجريم هو نفسه الجنس الذي يحتقره اليهود التلمود اليوم بالإباحة والإطلاق والمرأة في كلا الحالين هي المجني عليها، وهي موضع الكراهية والامتهان: أما ما جاء به الإسلام **فهو فطرة الله التي فطر الناس عليها**.

إن أخطر ما تقول به علوم النفس والاجتماع الحديثة هو دعوتها الى الاطلاق العام والإباحة المطلقة، والدعوة الى إرضاء النزعات والرغبات والشهوات عن غير الطريق الصحيح. الطريق المضبوط الذي يحفظ الذات ويحمي الكيان الإنساني وتحفظ كرامة المرأة ويدعم كيان الأسرة ويحمي الأجيال الجديدة.

إن وراء هذه الرغبة القائمة بين الرجل والمرأة ، غاية هي بناء الخلايا الأسرية المتتابعة، وبناء أفرادها وحمايتهم ، وليست هي غاية في ذاتها، أنها غاية للاشباع النفسي ووسيلة الى مسؤولية هامة بعدها.

ومن هنا فإن محاولة وصف الإطلاق بمعنى الحرية ووصف الحرية بأنها تعني التقدم، فيه خطأ كبير وتمويه كثير. الحرية ليست بمعنى الانطلاق ولكنها بمعنى الحركة في داخل الإطار وفي حدود الضوابط التي لا تحقق

عدوانا على حرية الآخرين. والتقدم لا يعني عودة الانسان الى حياة الغاب بالعري أو الممارسة المكشوفة، ولكنه ارتفاع بالإنسان الى قيم الكرامة والإيمان والتصون والعفاف.

فإذا ذهبنا نبحث عن أسلوب التعلم والتلقين، وجدناه في نتاج علوم الطب والبيولوجيا مصاغا في أسلوب التقوى الإسلامية، لن يكون هؤلاء الفلاسفة من المشتغلين بعلوم النفس، والعلوم الاجتماعية قادة في ميدان التعليم والتربية بحال، لأنهم لا يملكون علما صحيحا ولا يملكون إيمانا بالإنسان نفسه، فضلا عن إيمان بالله والقيم.

ليس رأي فرويد ولا دوركايم ولا غيره هو العلم ولكنه الفلسفة، إنما العلم من شأن رجال التجريب على النحو الذي كتب بد الدكتور اليكسي كاريل وغيره من العلماء معروضا في إطار إسلامي سليم.

ليس العلم الذي يمكن أن يقدم هو نظريات الفلسفات التلمودية اليهودية التي تدعو الى تقديس الأعضاء التناسلية والتي تدعو الى العري والكشف، فإن هذه الدعوات لم تقم أساسا على مفهوم أخلاقي أو في إطار دين، بل على القاضي تعاليم الأديان ومن أجل هدم مقومات الأمم.

أما كتاب القصة فهو أفسد رأيا وأشد خطرا من رجال العلوم الاجتماعية، ولا يجوز أن يكون كتّاب الفقه حكما في مثل هذه المسائل ولا يكون لهم رأي، لأنهم إنما يقيمون القصة على الخيال والهوى والإغراء.

لقد تناول فقهاء المسلمين موضوعات الجنس تناولا واضحا سليما في حدود الحلال والحرام، وفي إطار الضوابط النفسية، وغاية ما يفهم الإسلام من الجنس أنه صلة بين الرجل والمرأة تقوم في إطار الزواج وتشمل ميادين كثيرة غير الرغبة الحسية.

وقد وضع الإسلام توجيها خاصا للتربية الجنسية في القرآن والسنة وجعل الأم الصالحة عماد الأمر كله وقرر أنه إذا بلغ الأطفال منكم الحلم أن يستأذنوا في ثلاث أوقات هي الفجر والظهيرة والمساء، ومن حقه في غيرهم أن يدخل استئذان، كما حرم الإسلام عدم إظهار زينة المرأة للطفل

الذي يفهم ويفعل، ودعا الى فصل الأبناء في المضاجع، وتوجيهم الى فهم العلاقات مرحلة بعد مرحلة عن طريق الحاجة ومن خلال السؤال، فإذا سأل الشاب أو الفتاة يجاب إجابة تقوى وعلم لا إجابة هوى وغرض بحيث لا يتركا ليسألا الآخرين الذين سيجيبون إجابات مضللة مفسدة.

أما الصلاة فيأمر بها الأطفال لسبع ويضرب من أجل التقصير منها لعشر، مع التفريق في المضاجع، وهذه هي التربية الوقائية.

فإذا تفتح الشاب للقراءة وجد أمامه كتبا كريمة بعيدة عن القصص الجنسية والمجلات ذات الصور العارية. ثم يعلم أولا بأول ما يكشف له عن حقائق الأوضاع وعن مسؤولية الفرد الخاصة أمام الله ويربي على الامتياز والعفة والكرامة حتى لا يسلك سلوك المنحرفين.

(علّمنا النبي أن لا نسمح لمن يبلغ سبع سنوات أن ينام في غرفة أخته أو أقاربه) هذا هو سلوك الإسلام: صراحة في عفه، وكشف للحقائق في إطار الإيمان، أما معالجات الأدباء والقصاصين وكتاب الجنس فهذه ليست معالجات علمية أولا، وليست في مفاهيمها وكتاباتها أصيلة الاستمداد من المفاهيم الاسلامية وهي تفتح الباب أمام أخطار كثيرة وليست العبرة بالصراحة والمواربة، ولكن العبرة بالأيدي التي تقدم والاحترام التي تكتب.

ولقد أصاب الأجيال الماضية خطر كبير مما أسلمت له من الروايات والقصص المترجم الفاسد، ومن كتب رخيصة مبثوثة عن الجنس ومجلات وصور لم يرد بها الخير لنفوس الشباب وعقوله. ولقد كانت من نتائج ذلك أحداث هوت بكثير من هذه النفوس الساذجة الى مهادي الخطر.

إن معطيات تفسير الجنس وشؤون العلاقات بين الرجل والمرأة لن تكون أبدا من شأن رجال القصص والأدب أو من شأن أتباع مذاهب فرويد والعلوم الاجتماعية فهؤلاء جميعا من وراءهم هدف خطير وغاية بعيدة المدى ولا بد من حسن الاختبار والثقة بمن نقرأ عنهم قبل أن نقرأ لهم.

الباب الثالث

الانسان مع الحيــاة

أولا : الانسان مع الجماعة
ثانيا : الانسان مع الحضارة
ثالثا : الانسان والزينة
رابعا : الانسان والموت
خامسا : الانسان والعالم المواجه
سادسا : الانسان والمسرح
سابعا : الانسان والسينما
ثامنا : الانسان والفن

الفصل الأول

الانسان مع الجماعة

بينما تصطرع المذاهب في الغرب حول الفردية المؤلهة للفرد وبين الجماعية التي لا ترى الفرد إلا ترسا في آلة، يقف الإسلام موقف التوازن والتكامل الجامع حيث لا يغني الفرد في المجتمع ولا يغني المجتمع في الفرد.

فالفرد والمجتمع متكاملان معا، متفاعلان معا «المسلم فرديا في الفكر اجتماعي في العلم» الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد كلاهما يأخذ ويعطي، المجتمع يبرز مرة والفرد يبرز مرة أخرى، والتفاعل موجود في جميع الحالات» والإسلام ليس نظاما فرديا خالصا، ولا نظاما جماعيا خالصا، الإسلام يختلف عن النظامين الفردي والجماعي، هو نظام فردي جمعي أن صح التعبير فهو يركز على الفرد بغير تدليل ولا إفساد بل بالتربية والصقل والتكاليف بحسبان ان المجتمع ما هو الا هؤلاء الأفراد كجتمعون ، فإن صلحت تربية الفرد صلح المجتمع.

يقول المؤرخ أرنولد تويبني: لقد ضحت الماركسية بالحرية من أجل العدالة، بينما ضحت الماركسية

يقول المؤرخ أرنولد تويبني: لقد ضحت الماركسية بالحرية من أجل العدالة، بينما ضحت الرأسمالية بالعدالة في سبيل الفردية، إن كلا منهما يؤيد جانبا على حساب الجانب الآخر، وكلتا النظرتين مادية، ولما كان الانسان لا يستطيع أن يحيا بالخيز وحده، فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان. ولن يستطيع أحدهما أن يتغلب نهائيا

على الآخر والاثنان في صراع مع الوطنية أو القومية» تقول: اما الإسلام فهو يوازن ويجمع في تكامل ووسطية رائعة بين الجماعية والفردية.

والإسلام يركز على بناء الفرد كنواة صالحة للجماعة من خلال الأسرة، بناء الفرد بوصفه عاملا أساسيا في تكوين الأسر التي تمثل وحدات المجتمع، والانسان عنده كائن جسدي وروحي معا وهو في هذا يختلف عن الفكر الغربي الذي ينظر اليه على أنه كائن جسدي فحسب فالإنسان هو أعظم الأحياء وهو سيد الكون تحت حكم الله ولذلك فهو موضع الأعداد الكريم السليم ليكون نموذجا حيا: رجلا أو امرأة لتكوين أول وحدة من وحدات المجتمع، وهي الأسرة فبناء الانسان شخصية سليمة ويكون في نفس الوقت لبنة في بناء المجتمع ويتحقق هذا البناء في مجالات ثلاث: هي الجسم والعقل والروح.

ويقوم ذلك أساسا على مبدأ التوافق بين الفردية والجماعية، فالمجتمع في خدمة الفرد والفرد في خدمة المجتمع وكلاهما يتكاملان.

وقد جاء الإسلام بأروع عقيدة توازن موازنة سوية بين الفرد والجماعة، إذا قام التكافل الاجتماعي على أساس الأخوة الإسلامية، وهو طراز فذ من التعاطف الانساني استطاع أن يجنب العنصرية ويقضي على التفرقة الطبقية، ويحرر العقيدة من التعصب المقيت كما كفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك عالج توزيع الثروة معالجة عادلة تحول دون تكديسها في يد فرد أو أفراد قلائل، وهو نظام لا يقضي على نشاط الفرد وميله الغريزي للمبادرة والعمل والكسب، كما يقيم التنافس على أساس القدرة والعدالة معا وقد أثبت تجربة الحكم الإسلامي في صدر الإسلام نجاحها الباهر في خلق مجتمع متوازن تتكيف فيه إرادة الفرد مع صالح الجماعة، فتكفل الجماعة للفرد حقوقه وتفرض عليهما معا واجبا يقوم في الدرجة الأولى على نقاة الضمير والقانون الأخلاقي الذين تحتمها عقيدة التوحيد وشريعة الإسلام.

هذا التوازن من الفرد والجماعة هو الذي شقيت الانسانية دون

الوصول اليه ، فهي بين فردية مغرقة في ذاتها أو جماعية جامدة تصب الأفراد في قالب واحد من الميول والأهواء.

ومن حيث يقرر الاسلام التوازن بين الفرد والجماعة فهو يقيم التكافل الاجتماعي على أساس الأخوة، وهو طراز من التعاطف الانساني من شأنه أن يقضي على العنصرية والتفرقة الطبقية ويحرر العقيدة من التعصب حيث يقوم مفهوم المجتمع في الإسلام على أمرين:

أولا : التعادل بين ثنائية الفرد نفسه وبين الفرد والفرد من ناحية أخرى.

ثانيا : التوازن بين الفرد والمجتمع.

ويقرر الإسلام أن تنسيق الفرد والجماعة يتم عندما يتحقق عاملان هامان:

أولها : أن تكون البيئة مثمرة لكل الحوافز المادية.

ثانيها : أن يسود الايثار نوازع الأفراد في مجتمع ينشد الحياة الكريمة ونظرة الاسلام تتمثل في أن هناك تفاعلا دائما بين الفرد والمجتمع يأخذ ويعطي، حيث يكون دور المجتمع واضحا مرة، ودور الفرد بارز مرة أخرى، والتفاعل موجود في جميع الحالات دون إلغاء دور الفرد الممتاز في التوجيه والقيادة ودون انكار جيشان المجتمع في سبيل التماس إرادة التغيير على يد فرد ممتاز[1].

(2)

يصور الباحثين[2] المسلمين، المجتمع الإسلامي على أنه عقد مشاركة وتضامن بين جميع أفراده (الأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء) وقد حث الاسلام على رعايتهم جميعا، وبذلك عارض الإسلام نظريات الجنس الممتاز وقتل المرضى والضعفاء.

---

(1) عن بحث «القيم الأساسية للفكر الإسلامي» للمؤلف.
(2) الاعلام بمناقب الإسلام.

والضعيف في تقدير الاسلام خمسة أصناف: من جهة التركيب (النساء)، من جهة السن (اليتامى)، من جهة المعاش (الفقراء).
من جهة الرقبة (العبيد، من جهة الوطن (أبناء السبيل).
وقد حث الاسلام على رعايتهم جميعا.

«يعطي الاسلام أهمية كبرى للانسان كفرد في مجتمع ويؤكد حاجته الى التقدم المستمر، وبذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها (فكرية وخلقية وعملية) لتنطلق في خدمة تقدمه كإنسان.

«كذلك دفع الاسلام المجتمع كله في طريق واحد دون السماح لعائق أن يقف في وجه تلك الطبقات، ولا سيما القانون الطبقي الذي يحكم على الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها لا على أساس مواهبه وقدراته، وما يمكن أن يقدم للمجتمع من خدمات كذلك فإن كل فرد في المجتمع الإسلامي يستحق من الاحترام والطاعة ، بقدر ما يتحمل من المسؤولية وبقدر ما يتحلى به من صفات طيبة كالعقل والعلم والخلق والسن والمكانة بين الناس».

«وهنا يتميز الاسلام عن المجوسية والزرادشية ، فقد كان ملوك الفرس بتأثير دينهم يقسمون الناس إلى طبقات ويحكمون عليهم بالانساب ، لا بالأعمال ويحرمون عليهم الترقي من طبقة الى طبقة وبذلك حجزوا على الكثير من المواهب والطاقات وعاقوها عن أن تعمل وتبتدع لانهم جردوها من حوافز العلم والابداع ، وقد اعتبر الإسلام ان الشرف والضعة أمران نسبيان».

وقد قصد بذلك إلى هدف واضح: هو إقامة مجتمع متماسك تسوده المحبة والولاء وتحرم فيه أسباب القطيعة والعداء ولذلك يوجب الإسلام: المحافظة على ولاء النسب، وولاء العقد، وولاء المدين».

وهكذا تكشف كل هذه المعاني عن قصور مذاهب الفردية (جون لوك وآدم سميث وبنتام وغيرها) وكذلك قصور مذاهب الجماعية (ماركس وأنجلز وغيرهما) وتقدم منهجا أكثر عمقا وأصالة وشمولا وتوازنا من

المذهبين الذين يتصارعان في العالم اليوم صراعا عنيفا ويقسمانه الى فئتين كبيرتين:

ولقد تنبأ كثير من الباحثين بفساد كلا المذهبين فقال لندس في [illegible] له عن الفردية: ان المذهب الفردي لفلسفة كاملة متناسقة لا[illegible]يه الاجتماعية لا بد بالضرورة أن ينهار وليس في وسع إنسان أن يكون فرديا مطلقا، كما أنه ليس في وسع انسان أن يكون جماعيا مطلقا، لأن كلا من الفرد والمجتمع يؤثر في الآخر ويعتمد على الآخر وحتى الذين تطرفوا في الفردية ورفعوا قيمة الشخصية الانسانية فوق جميع النظم السائدة في المجتمع يضطرون للاعتراف بالدور الذي يلعبه المجتمع والنظم السائدة في قيمة الفردية ودعمها».

صوّر العلّامة صلاح السلجوقي ترابط الفرد بالمجتمع في الإسلام على نحو فريد فقال:

الفرد في الإسلام له حق وعليه واجب نحو فرديته ومجتمعه سواء بسواء، فهو يتأمل فرديا ويعمل اجتماعيا ويرعى نفسه ويكون مسؤولا عن رعيته ويساور الجماعة في الأمر وإذا عزم عند الضرورة توكل على الله، وله حق الكسب والتملك، والتمتع بالمال ولكن عليــه أن يؤدي الزكاة والصدقات، حتى لا يدخر رأس مال كبير وبعد موته يقسم ماله بين الورثة ولا يبقى شيء جدير بأن يسمى رأس المال ولا ينسى نصيب نفسه من الدنيا: العلم والرياضة والغذاء، وحينما تستدعيه حاجة المجتمع فأنه يقدم هذه النفس الى التضحية مؤمنا بأن التضحية حياة له وأن الهرب منها معناه إلقاء نفسه بيده الى التهلكة ، ومن ناحية أخرى فإن من قتل نفسا بريئة بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.

فالمسلم فرد في المجتمع ومجتمع في الفرد لانه يكون دائما مع عائلته وعشيرته ومع ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ومع الشعب في الرأي والحكم والدفاع والتعمير والاصلاح.

ومن هنا كان انتشار الاسلام وإعلاء شأن دولته المبنية على العلم

والفضيلة والحق والخير والى كون الفرد فيها مقوما للمجتمع والمجتمع محصلا للفرد.

إذا لم يكن هناك فرد لا يوجد حق وإذا لم يكن مجتمع لا يتحقق واجب.

فالإنسان يطير بجناحين: جناح الحق وجناح الواجب، ولا يمكن أن يطير بجناح واحد، لان الفرد المندمج في المجتمع أجير مثقل بالواجبات ومسلوب الحقوق وليس من المتوقع منه أن يكون حرا في تصرفاته أو أن يكشف عن سر أو يبتكر أمرا أو يعود الى حق أو خير. هذا الفرد المتفخ المتورم بالحقوق دون الواجب، والاسلام يقرر الاعتصام بحق الوسط بين الفرد والمجتمع والجمع بين الحق والواجب.

ولقد كان هذا التناسق بين الفرد والمجتمع ملحوظا في المجتمع الاسلامي.

أما النهضة الأوروبية فقد انحرفت عن مبادئها الاجتماعية والخلقية.

«جاء (بنتام) وأراد أن يضع أساس المجتمع لا على أساس الخير بل على أساس اللذة: التي كانت مبدأ مدرسة أبيقور الشاذة، بل أراد (بنتام) أن يكون مبدأ اللذة بلون أشد قتاما ويحوله الى مبدأ للنفعة بوصفتها المعروفة التي تقول: (أكبر لذة لأكثر عدد).

وبمساعيه وبمجهود (ستوارت ميل) قام المبدأ النفعي الذي هو الجرثومة الأولى للاستعمار. ثم ظهر هربرت سبنسر وأخذ في تطبيق مبادئ النشوء والارتقاء الحيواني على علم الاجتماع وفلسفة الأخلاق والانسان.

وقرر ان القوة هي الحق كما أحل سلفه بنتام النفع مكان الخير.

وبذلك أضاف سبنسر مبدأ القوة والتفريق العنصري الى مرحلة الاستعمار ، وهكذا بلغت الفردية أشدها بل أقصى درجاتها.

ومرة أخرى انعكست الآية بظهور الماركسية وعاد الصراع بين الفردية والماركسية أشد بأسا وبأسلحة أشد فتكا وذهبت الأرجوحة الى طرفيها.

الماركسية عكست العمل بمدرسة فردية بحتة تؤمن إيمانا عبوديا بالفرد وتنكر المجتمع بتاتا (هي الوجودية) حيث يعيش الفرد في كهف فرديته.

«ومن قبل كان في التاريخ تقابل، أما الفردية الطاغية أو الجماعية الطاغية».

فقد انحرفت اليهودية الى المادية الطاغية وانحرفت المسيحية الى الروحية الطاغية، وجاء الإسلام فكان وسطا فجعل الفرد متفاعلا مع المجتمع وجعل المجتمع متفاعلا مع الفرد.

«وأصبح للفرد حقوق وعليه واجبات».

«لم يكن الاسلام مساويا طاغيا ولا روحيا طاغيا ولكنه كان وسطا جامعا مانعا[1].

---

(1) عن كتاب أضواء على الأدب والاجتماع والتاريخ.

الفصل الثاني

الانسان مع الحضارة

إن قضية الانسان مع الحياة هي قضية التكامل أو التمزق، الأمل أو اليأس، الثقة أو الحيرة، التفاؤل أو التشاؤم، اليقين أو الشك، الارادية أو اللاارادية، ومفتاح الأزمة كلها في عبارة واحدة هي الانفصام بين الروح والمادة أو الانشطارية بين الدنيا والآخرة، أو هي في كلمة واحدة: الإيمان بالله.

لقد استطاعت الحضارة أن تقدم للبشرية أعظم معطيات الترف والرفاهية والمتاع المادي على نحو لم تعرفه العصور أو الأمم السابقة، وعلى نحو مذهل للعقل نتيجة تقدم العلم والتكنولوجيا ولكنها عجزت أن تقدم له غذاء الروح وشفاء النفس وطمأنينة القلب بل لعل هذه المعطيات المادية كلها هي التي حطمت الرابطة الجامعة وفرقت الوحدة وخلقت ذلك التمزق واليأس والحيرة والتشاؤم والشك واللاادراية التي يعيشها المجتمع الغربي كله والتي بدأت تزحف رويدا إلى شبابنا ومجتمعاتنا تحت تأثير المذاهب الوافدة في محاولة تعمل على احتواء النفس الإسلامية في اطار الوثنية والمادية والإباحية التي قدمتها المناهج والفلسفات وأخطرها الوجودية وآخر حلقاتها الهيبية حتى كتابة هذه السطور.

وما أظن أن امتنا تجهل الأشواك التي تمزق أقدام الأمم في هذا العصر، نتيجة للأزمة الاجتماعية والنفسية التي تمر بها بعد أن انفصلت عن

العقائد السماوية والأخلاق وحاولت تجربة بعد تجربة أن تلتمس لها من الايدلوجيات والمذاهب منهج حياة.

وان الصورة أمامنا واضحة والأخطار مكشوفة ، فما بالنا نلتمس فكرا قد ورط أصحابه في الأخطار ودمر عليهم وأحاطهم بالتمزق والضياع حتى لقد عادوا يلتمسون له من طب الشرق ومن تراث العنصوية الزائف أيضا علاجا كأنما ظنوا أن الداء من أرض علاج لداء في أرض أخرى.

إن الصورة الغربية التي تشف عنها الأخبار والأحداث خطيرة ومثيرة في نفس الوقت.

إنها اندفاع لا يتوقف نحو هاوية لا قرار لها، وكأنما العيون معصوبة فلا ترى والقلوب مغلقة فلا تشعر، وأن رأت العيون أو شعرت القلوب فانها ترى أنها على الطريق الصحيح، زين لهم سوء أعمالهم، وقد حجب عنها الضوء من كل مكان فلا تجد غير طريقها سبيلا فهي تتردى في حتمية لا سبيل الى العودة منها.

ولقد كان حقا علينا ونحن نرى، ومعنا في نفس الوقت ضياء العالمين أن نتجنب نفس المنزلق وأن نعتصم بالهدى الذي أمدنا به ربنا وديننا.

إن أخطر ما قدم الينا ذلك التقرير الذي كشفت عنه الدراسات الاجتماعية في السويد[1] ، حيث أن 25 في المائة من سكانها مصابون بأمراض عصبية أو نفسية وان 30 في المائة من النفقات الطبية في السويد تنفق في علاج الأمراض العصبية والنفسية وأن 40 في المائة من مجموع الأشخاص الذين يحاولون الى المعاش قبل سن المعاش بسبب العجز عن العمل تماما هم من المرضى الفعليين.

وذكر التقرير أن من مظاهر انتشار الأمراض العصبية ارتفاع نسبة حوادث الانتحار ، ففي المدة من (1951 ـ 1958) تضاعفت حالات الانتحار بين الشابات في أعمار 25 سنة الى 29 سنة اذ زادت من 6,2 حالة من كل مائة ألف امرأة الى 2,1 حالة.

(1) جريدة الأهرام 1972/3/18.

وقال المراقبون أن هذا التقرير يدعو الى الذهول لان السويد واحدة من أغنى أربع دول في العالم، ثم أورد التقرير أن دول الرفاهية لا تزيد من سعادة الفرد كما هو متوقع وإنما تضعف شخصيته واحساسه بالمسؤولية مما ينتج عنه خلق شخصية متحللة، وقال التقرير ان هذه الحقائق تؤكد أن هناك خطأ ما في العلاقة ما بين الفرد والمجتمع».

وإذا بدا هذا التقرير غريبا على الباحثين الاجتماعيين في العالم كله، فانه في تقدير الباحثين المسلمين أمرا طبيعيا وهو النتيجة الوحيدة المنتظرة للمجتمعات المترفة: مجتمعات الرفاهية فهو يكشف عن عظمة الإسلام في دعوته الى البساطة والى الاخشيشان وإلى الاعتدال وقد دوت كلمات القرآن منذ أربع عشر قرنا تحمل على المترفين حملة قاسية وتصفهم بأنهم مصدر خطر كبير على نمو البشرية وعلى تقدم الإنسانية وانهم هم دعاة الدهرية والمكذبون بالبعث والجزاء وأنهم أضعف الناس عن مواجهة الظلم أو دفع الخطر أو التمسك بالحق، وان المجتمعات اذا سيطر عليها الترف اندفعت الى التحلل والفساد.

وقد أشارت أبحاث كثيرة الى ظاهرة الخطر التي تسيطر على الحضارة الفردية كلها نتيجة وصولها الى مجتمع الوفرة والترف وعجيب ان هذا المجتمع الذي كان أمل المصلحين لم يستطيع أن يحقق للنفس البشرية ما كانت تتطلع عليه.

وأشار روبرت كولز وغيره الى أن مجتمع الوفرة قد أخفق حتى الآن في ادراك الحاجة لتحديد أهداف ذات معنى للحياة غير الأهداف المادية، ودمغ الباحثون هذا الاتجاهين قالوا: ان الوفرة من غير تراث خدمة عامة وبلا حس للمسؤولية وبلا أهداف اجتماعية تترك الشباب في فراغ نتيجة السأم والقنوط.

ومن هنا فقد تحطمت تلك النظريات التي سيطرت خلال خمسين عاما، اذ تزيد في المجتمع الغربي (وحاول البعض أن يطرحها في أفق

المجتمع الاسلامي) والتي تقول ان (الرفاهية) هي المثل الأعلى في الحياة بينما هي تتعارض مع فكرتي الواجب والتضحية.

ولقد زينت التلمودية للغربيين المسيحيين الذين كانوا يؤمنون بالرهبانية والزهادة في الحياة الاندفاع الى مفهوم الترف والتحلل بما يخرج عن الطبيعة البشرية، والفطرة الانسانية ثم جاءت النتائج واضحة فقد كشفت عن أن الرفاهية هي مرض العصر وانها تتعارض مع القيم الانسانية وانها تقوم على الأخذ دون العطاء ، وانها تهدم القيمة الاجتماعية والروحية التي كانت في الأصل هي الدافع لعمل الإنسان.

لقد استطاعت الحضارة ان تقدم للبشرية ذلك التقدم التكنولوجي الممثل في الآلة والمخترعات وغيرها، على نحو جعل الحياة الانسانية في أرق درجات المتعة المادية ولكن هل استطاع ذلك أن يرضي الروح أو يسعد النفس أو يقدم للبشرية شعورا بالرضى أو الطمأنينة أو السكينة. لم يحدث ذلك قطعا ولربما لغلو الرفاهية وتعاليها قد زاد جانب الروح والنفس ظلاما وشقاءا وقسوة، فتعالت تلك الصيحات الخطيرة بالقلق والتمزق والضياع.

إن أخطر ما تتجه اليه الرفاهية هو الكشف عن الرغبات والملذات والذهاب بها الى أقسى درجاتها في مبالغة فاضحة وتشهير خطير مما نشأ عنه في هذه المجتمعات ومجتمع السويد من إرهاق، ذلك التمزق الذي انتهى بالشابات الى الانتحار.

ولا ريب من تلك النتائج لمجتمعات مندفعة وراء صيحات أمثال (هوج هيفنر) صاحب امبراطورية (بلاي بوي) ومجلته الصارخة التي تدعو الى الترفيه عن الرجل.

بالكلمة والقصة والصورة العارية، من المجلة افتتحت أندية وفنادق وعمارات حتى أصبح يسيطر على امبراطورية إقتصادية هائلة، وقد أطلق عليه أنه أحسن رجل في العالم يفهم المرأة ويقدرها ويحترمها ويتخذها هدفا لمستقبله، حتى الأسهم والسندات التي أصدرتها مؤسسة بلاي بوي

اختارت صورة لأمرأة عارية طبعها على الأوراق المالية التي تتداولها البورصة ويحترمها رجال البنوك.

فإذا أضفنا الى هذه الامبراطورية امبراطورية أخرى لرجل آخر هو (كريستيان ديور) بطل المودة والمسيطر على ملابس وزينة ملايين النساء في العالم. يخلعون ويلبسون بامرأة. ويكشفون ويقصرون باذنه، صدورا ونحورا وظهورا وسيقانا . عرفنا كيف تجري الأمور في طريق الرفاهية.

وتضاف الى هذا مؤسسة هوليود والسيطرة على العالم كله عن طريق فكرة الفيلم من خلال فلسفة خطيرة يجري اقناع الأمم بها عن طريق عروض الأفلام على نحو هو أشد أثرا من الكتب والصحف والكلمات التي تلقى في الكنائس أو المساجد.

ومن نماذج ما يقدم: فيلم (الحياة حلوة) الذي قدمه المخرج الايطالي العالمي (فريدريكو فلليني) حيث يرسم صورة لتفكك العلاقات في المجتمع الحديث. وفي فيلمه الجديد (ساتيريكون) يكمل فلليني الصورة التي قدمها في فيلم (الحياة حلوة) أنه يقدم صورة لانهيار الحضارة الرومانية التي سقطت معالمها مرة واحدة وتفسخت قيمها وسرت فيها موجات انحلالية عاتية. فبعد أن سادت روما. وحنى لها العالم رأسه خضوعا لمجد قوتها وخشوعا لعظمة انتصاراتها. انهارت هذه القوة فجأة. وتحول الأسد الى ذليل والسبب أنها كانت حضارة قائمة على البطش وقهر الشعوب واغتصابها . فمن خلال (انكلوب) وهو يكاد أن يكون الشخصية الرئيسية في الفيلم الجديد نرى حكام روما وزوجاتهم يشبعون عواطفهم بالمواقعة الشاذة التي يصل الصراع من أجلها الى حد القتال العنيف ليفوز كل واحد بحبيبته وترى الارستقراطي الذي يقوم بعملية (قتل جماعي) للجواري اللاتي يعملن عنده ثم ينتحر هو وزوجته.

ثم هناك (أشيلت) الذي يتورط في علاقة شاذة مع رجل. مقابل أجر مغر ومرة أخرى نرى (انكلوب) وقد شعر أنه أصبح عاجزا جنسيا ويذهب الى الساحرة (دبونيا) لعلها تشفيه وهي نفس الساحرة التي

تتسبب في اظلام قرية بأكملها ولا يستطيع سكانها أن يستضيئوا بالنار. لقد انصرف أهل روما الى ملذاتهم لدرجة أن بعضهم يلتهم الطعام الدسم ثم يتقيأ هذا الطعام ليتيح لنفسه فرصة الاستمتاع بتناول طعام جديد. وتدور الكاميرا في دروب روما ودهاليزها، في قاعات القصور وغرف النوم، حيث يضرب الفساد جذوره في كل شبر وحيث لا شريعة سوى شريعة الغاب. والمخرج لا يتحدث في هذا الفيلم عن انهيار الحضارة الرومانية بقدر ما يتحدث عن انهيار أي حضارة تقوم على الاغتصاب أنه ببساطة يرسم صورة لما يجري في عالمنا الآن في النصف الثاني من القرن العشرين [1].

فإذا أضفنا الى هذا لتكمل الصورة ما تنشره الصحف من أنه في واشنطن تتعرض المرأة للاغتصاب بمعدل 2.5 ساعة وتزيد معدلات الجريمة سنة بعد أخرى وقد شكل بوليس خاص لمكافحة الاغتصاب ليس له هم إلا أن يوجه نصائح للمرأة على نحو: لا تجعلي الحياة سهلة للآخرين.

ويقوم البوليس الأمريكي بتعليم المرأة العنف مع الرجل.

أخرجي عينيه بأظافرك، قاومي بأسنانك حتى تنزعي لحمه، اصرخي بكل صوتك؟

وهكذا تبدو صورة العنف في كل مكان: تتعلم المرأة العنف من البوليس كما يتعلم الطفل العنف من التلفزيون، معاملة العنف بالعنف هي الطريقة السائدة في أمريكا.

وقد بدت في المجتمع الغربي ظاهرتين خطيرتين: هما سقوط الغيرة من أجل الزوجة وسقوط عاطفة الأبوة والأمومة.

ويصور الكاتب الروماني فيرجيل جيورجيو: في كتابه (الساعة الحادية عشر) الأخطار التي تواجه الانسان في المجتمع الغربي فيردها الى المذاهب الاجتماعية التي تطرحها الايدلوجية التلمودية في أفق الأمم الغربية لهدمها وتدميرها، وهي مذاهب لا تقف عند حد الكلمة ولكنها تذهب

(1) الأخبار ف 1970/5/11.

بعيدا في أعماق المجتمع عن طريق أساليب الترف والزينة وتعمل على تدمير الفرد والأسرة وتسلم المجتمعات كلها الى عصور الهمجية الأولى.

يقول: ان المجتمع الغربي في أحدث صوره التقدمية لم يبق للفرد في نظره أي اعتبار. ذلك أن الغرب قد خلق مجتمعا شديد الشبه بالحالة الميكانيكية ثم أكره الأناس على العيش في داخل هذا المجتمع، خاضعين لقوانين هي حقا جيدة بالنسبة الى الآلات ولكنها تعادل القتل بالنسبة الى الانسان، انه يوجد مسلسلا بها ولكنه لا يهلك في أغلاله بل هو يعيش منها زمنا طويلا، اذ أن المجتمع التكنولوجي يستطيع أن يخلق الهناءات المادية ولكنه لا يستطيع أن يخلق أرواحا .

ويقول: أن الغربيين قد قطعوا الطريق بين الألوهية والانسان وأقاموا بالتكنولوجيا وثنا جديدا وهم أنفسهم غير قادرين على التنبؤ بنتائجه المشؤومة.

وأشار الى ما أسماه «التوجيه البشع الذي نحن الآن منغمسون فيه، لان الشر الذي سينبثق منها وينتشر ويستشري هو شر عام يصل الى حد أنه يجحد جميع القيم الأخلاقية والدينية التي تعدها الانسانية زينتها وحليتها.

وعنده أن العداء بين الخير والشر يظهر واضحا منذ فقد الفكر النظري صلته بالروحي واتجه نحو تحمس الانسان للانسان ونحو الايمان بقوة العلم التي لا تقهر.

ويقول: بلا أرواح يكون مآل المجتمع الجديد الى الفناء. وانه مما لا ريب فيه أن هذا الانهيار للمجتمعات المادية تعقبه نهضة للقيم الانسانية والروحية وان هذا النور العظيم سيجيء من الشرق: لان الانسان الشرقي سيغزو المجتمع التكنولوجي وسيستولي على آلاته ويصير لها سيدا لا عبدا، كما هي الحالة الراهنة في الغرب ولن يقم لها الهياكل والمعابد، ولن يسجد أمام شمس الكهرباء كما كان يصنع برابرة العصور الغابرة من عباد الشمس ولكنه سيحكم ويسود بالروح».

وبينما يفهم هذا الأوروبي تطور الفكر والحضارة على هذا النحو نرى

كتابنا ما زالوا محجوبين عن الحقيقة ولا يزالوا غارقين في تيار التبعية واقعين تحت تأثير الماسونية في صورها الجديدة.

فنرى أحدهم يشير الى أن وجه العالم تغير في مفاهيم السياسة والدين والعلم والأخلاق في السنوات الأخيرة بصورة مذهلة لم تكن معهودة فيما سبق. سواء في العلاقة بين المرأة والرجل أو سلطة الأب في الأسرة أو علاقة الأبناء والبنات في الأسرة أو مفهوم الأخلاق والدين أو المباح والمحرم أو المقبول والمرفوض ويتساءل الكاتب الغارق في أحلام التلمودية الطامعة في السيطرة على العالم.

فيقول: ماذا يكون شأن الثلاثين سنة القادمة.

ويجيب فيقول: سيزداد الإيمان بالعلم ويقل الاعتماد على الغيبيات ولو شاء لقال الأديان وستتساوى المرأة بالرجل مساواة تامة. وسيصبح للجنس والزواج والحب مفهوم جديد وهو في هذا يريد أن يقدم البشرى التي تعد الصهيونية العالمية العالم بها والتي تجري على ألسنة كل الكتاب التابعين لها في مختلف مجالات البحث.

ونحن نقول هل استطاع العلم أن يقنع أحدا على نحو يقل فن الاعتماد على الدين، اننا نرى فشل العلم وسقوط العلمانية ونرى عودة الناس مرة أخرى الى التماس الإيمان من مصدر صحيح، من الدين الحق الذي هو وحده الذي سيضيء للبشرية الطريق مرة أخرى وليس مخطط الصهيونية التي يبشر بها هؤلاء الكتاب ويطمعون في قدوم فجره. أما مسألة المساواة بين المرأة والرجل فهل حقا أثبتت المراحل التي قطعتها انها خليقة بأن تصل الى مثل هذه الغاية الوهمية، لقد كشفت الأبحاث العلمية والاحصائيات والتجارب الميدانية عن صدق ما جاءت به رسالات السماء من أن المرأة مخلوق له طابعه المفرد وتركيبه الخاص قد أعد لمهمة خاصة وان الزج به في ميدان غير ميدانه خسارة على هذا الميدان نفسه (فقد ثبت تخلف انتاج المرأة في مختلف ميادين العمل وانخفاضه انخفاضا شديدا.

وهو في نفس الوقت تدمير للأسرة وللبيت وللأجيال القادمة وعوامل الصهيونية التلمودية الذي تسعى اليه.

أما مفاهيم الجنس والحب والزواج الحديث التي يبشر بها هؤلاء الكتاب فهي ليست مجرد أوهام ، فإن النظرة الإنسانية سوف تعرف بعد أن انكشف عنها زيف العبارات الرنانة والكلمات الخاطفة؛ أنه ليس للحب والجنس والزواج غير مفهوم واحد، هو مفهوم الأصالة الحقة.

(2)

لا مراء في أن هناك أزمة يطلق عليها أزمة الانسان الحديث أو أزمة الحضارة والعصر، وهي موضوعة في صور مختلفة، يطلق عليها البعض اسم الغربة أو التمزق والضياع أو اليأس وهي في مظاهرها المتعددة تتسم بِسِمَة واحدة هي: التناقض الداخلي وانفصام الشخصية وتقوم على فقدان شيء والاحساس بغيبته والشعور العميق بالحنين اليه، دون أن تكشف الأبحاث المختلفة هذا الشيء في وضوح أو تضع النقطة الواحدة على الحرف الواحد، ذلك لان صناع هذه الأزمة من ألفها الى يائها هم الذين يمسكون بأيديهم زمام تحريكها ونقلها من مرحلة الى مرحلة وليس من غرضهم ايجاد حلول لها أو علاجها، ولو بدا كذلك في ظاهر الأمر، ولكن الغرض هو اعطاء إجابات مزيفة تزيد في الغموض والاضطراب حتى تنتقل الأزمة الى تصعيد جديد، ولقد كشفت جميع الفلسفات والمذاهب التي قدمها فرويد ومدرسة العلوم الاجتماعية عن ظاهرة واضحة. هي إثارة الشبهات وعرض أوجه الصراع ثم الوقوف دون إجابة صريحة عن شيء ما، بل ولقد اتجهت العلوم في مفاهيمهم الى أنها تسجيل للظواهر دون الوصول الى حلول.

ومن هنا فقد كان على الفكر الغربي والمجتمعات الغربية أن تبحث عن الضوء الكاشف عند غير هذه المدارس وأن تسمع الأصوات الخافتة التي تنبعث من هنا أو هناك ممن لا زالوا يحملون الأمانة للفكر الغربي

المسيحي الأصيل قد آن أن تزيفه التلمودية أو تحتويه، وهناك كثيرون يستعرضون هذه الأزمة ولكن صوتهم يضيع تماما خلف الضجيج العالي الذي تسيطر به مدارس النفس والعلوم الاجتماعية على آفاق الفكر كلها.

ولقد أكد كثير من المؤرخون والباحثون أن أزمة الانسان الحديث وأزمة المجتمع الحديث وأزمة الحضارة هي أزمة عقيدة وأزمة إيمان وأنه لا يمكن انقاذها إلا بالدين: «الدين الحق وإن مصدر الخطر هو افتقاد الانسان عناصر الرحمة والعدل والأخلاق وصفة عزم الأمور».

وقد أكدت جميع الدراسات على أن السرف في الترف والنعمة تهدم رجولة الرجال وتحطم المجتمعات وقال ارنولد توينبي للأوروبيين أن أزمتهم هي أزمة الفقر الروحي، والخواء الروحي وان المحرر لهم من ذلك التمزق هو الدين وقال أن الأوروبيين يعجبون لأن ما عندهم من فلسفات وايدلوجيات لم تعطهم شيئا بل هي التي دفعتهم في مجاهل القلق والتمزق وان العطاء يأتي من مصدر واحد هو الدين.

وقال كثيرون مثل ما قاله توينبي من أن الجوهر الأساسي هو تحرير الانسان من كابوس المادة وأن فصل الدين عن الحضارة والمجتمعات هو فناء محتوم لها وان الحضارة تندفع الى طريق واحد هو الاسراف والتبرج: الاسراف في الترف الظاهري.

يعتقد الكثيرون أن محنة الشك والارتياب واللاأدرية هي أكبر محنة أصابت المجتمعات الغربية، أن روح الشك اليوم أصبحت تنخر في عظام المجتمع الغربي وهي روح هدامة قوامها النفي والسلب والانكار.

ويرى رجال التربية والنفس وغيرهم ان السبيل الى وضع حد لهذه الظاهرة هو نشر جو من اليقين والإيمان الذي هو وحده القادر على التغلب على أغراض القلق والحيرة.

ويرجع البعض ذلك الى تلك الدعوة الملحة التي ظلت تتردد عن العلم وقدرته السحرية التي لا حد لها في حل مشاكل الناس والمجتمعات ثم ما ظهر من عجز العلم عن تقديم أي حلول للنفوس القلقة.

ثم كيف ادعى أصحاب الدعوات الهدامة أن نظريات الفلسفة وفرضيات مفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق، إنما هي علم بالمعنى الحرفي للعلم بينما لا يدخل تحت اسم العلم غير العلوم التجريبية وحدها، وأن العلوم الانسانية لا يمكن اخضاعها لمنهج العلم، بل تظل دائما بمثابة تجارب وفرضيات قابلة للصحة والخطأ تختلف من نفس الى نفس، ومن بيئة الى أخرى، ومن عصر الى آخر.

ولا ريب أن القضية لها تاريخ طويل، وإن ما وصلت اليه المجتمعات من يأس وتمزق إنما جاء نتيجة تحول خطير برز فيه عنصران : عنصر الشك في الألوهية والأديان واليوم الآخر ، وقد أعدت الفلسفيات المادية هذا العنصر على نحو بالغ الخطر، والعنصر الآخر هو إطلاق الرغبات البشرية على نحو يحطم كل الضوابط والحدود والمحرمات، أما الشك فقد حطم النفس البشرية وأحدث فيها ذلك الخطر الذي حرمها نعمة السكينة والأمل والطمأنينة، أما (الإباحية) فقد حطمت الجسد ودفعته الى التهالك وفرضت عليه الأمراض المدمرة، ومن ثم برزت ظاهرة الانتحار التي تمثل شقوة الانسان عندما تصل الى الحد الذي لا يحتمل.

ولا ريب ان اتجاه الانسان نحو هذا التيار العاصف مخلفا وراءه طمأنينة الدين وكرامة الأخلاق هو المصدر الوحيد لليأس والتمزق. فقد ولدهما ذلك الخواء الروحي.

يقول واحد من الباحثين الغربيين: في عام 1920 حين كان (عصر الجاز) يوشك بالازدهار «في ذلك العام انطلق الشعبان الانجليزي والأمريكي المتعلقان بالطراز والمودة الى ما سماه فيتزجرالد: أعظم وأضخم مرح في التاريخ ، شعب برمته يؤمن بمبدأ اللذة ويقرر الاستمتاع وأكتشف الكبار بأن الشراب الشاب سيحل محل الدم الشاب وألقى الجميع بأنفسهم على الخمر في قفزة واحدة».

ويرى الباحثون ظاهرة موسيقى الجاز تكشف عن تمزق الانسان الغربي داخليا وتهافت علاقاته الاجتماعية خارجيا «فموسيقاه تخرج من

القاعدة الهارسونية بما تحدثه من ضربات سريعة على الطبول والآلات النحاسية، وبما تخرجه الأبواق من ضربات مجنونة. ورقصات الجاز ليست سوى تعبير مجسد عن ذلك العذاب الذي يجد في الحركات السريعة المجنونة ما ينفس عن ألمه».

ولقد تزايدت الخطى بعد عام 1920 الى اليوم وتطورت الى أسوأ فأسوأ، وظهرت الموسيقى الجازية والرومبا والسمبا وموسيقى الجيرك.

وفي نفس الوقت روّجت القوى الهدامة للأدب الإباحي والقصة المكشوفة والأفلام الجنسية وتعالت الحملة ووصلت الى قمة تدمير النفس الإنسانية لتقطع عليها طريق العودة.

ولم تقف عند الشباب بل شملت الأطفال فصدرت دوائر معارف الجنس للناشئة والأطفال ومضت المؤامرة الى نهايتها: إطلاق حرية الإجهاض ، الزواج الجماعي، زواج الرجال الملوطين وتخصصت عواصم معينة في أوروبا وأمريكا لتصدير أفلام الجنس التي تعرض عملية الاتصال وبلغ الدخل السنوي الناجم عن تجارة الجنس في الدانمارك زهاء ملياري دولار سنويا أي بزيادة 500 مليون دولار عن دخل الصادرات الزراعية.

وكان من شأن ذلك كله أن عمق الأزمة وزادها عنفا وخطرا وجاء بالنتائج القاسية التي رأينا.

(3)

إن أخطر التحولات التي أحدثت أزمة الفكر الغربي هي الخطأ في تفسير مفهوم الحياة ومدى مسؤوليتها أو رسالتها، ذلك أن الفكر المادي قد أعلن بكل جرأة أن وجود الانسان على الأرض انما هو من قبيل المصادفة وان الحياة لا هدف لها ولا غاية وان نهايتها الموت، لا ريب ان هذا التفسير الذي فرضته المذاهب المادية من شأنه أن يرتب كل هذه الأخطاء ويدفع

الى كل تلك التطلعات أخطار الضيق بحياة لا غاية لها، وليس فيها إلا التطلع الى اللذات والمتع.

ومن هنا جاء التمزق ، جاء نتيجة اليأس من الغاية، غاية البعث والخلود والإحساس بأن الحياة عبث وصدفة وليس فيها ما يطالب به الإنسان من عمل أو مسؤولية أو التزام أو جزاء.

إنه اليأس من المصير، ذلك الذي فرض مرارة الأزمة التي عاشها ويعيشها الانسان بعيدا عن عقيدة أو دين وعن إيمان أو معرفة بحقيقة أعماقه ومصيره. إن من أشد الأخطار على كيان الانسان أن تسيطر عليه فكرة الصدفة أو العبث على النحو الذي يطرحه فلاسفة الشك والضياع وفقدان الثقة بالنفس البشرية فإن هذه المذاهب الانهزامية تجد قبولا من أهواء الناس وتجد مكانا في عقولهم وقلوبهم اذا كانوا قد أفرغوا عقولهم وقلوبهم من ايمان أو عقيدة صحيحة، وهي بالرغم من طابع الحرية والاحساس بالسعادة المادية لقبولها فإنها سرعان ما تلتقي بالفطرة الأصيلة في صراع عنيف ينتهي بالقلق واليأس والتشاؤم ويدفع الى الانتحار والتدمير الداخلي الذي نرى صورته واضحة صريحة في مختلف جوانب المجتمع الغربي اليوم.

ويرى الفيلسوف شبنجلر أن هذه الأزمة ليس من الأزمات المؤقتة التي قد تزول يوما وإنما هي مأساة هائلة سوف تصرع الحضارة الأوروبية وربما الحضارة بعامة ودعا هكسلي الى العودة الى عالم الروحانيات وان على الغرب أن يتعلم الكثير من حكماء الشرق عن الدنيا وزهدهم في المادة وفهمهم العميق للتجربة الصوفية التي تتيح للإنسان أن يجد الله في قلبه».

ولسوف يذهب الغرب الى كل مكان في سبيل البحث عن الترياق ولن يجده الا في الإسلام ذلك أن مفهوم الإيمان في الإسلام هو العقيدة الوحيدة التي تعصم الانسان من المرض النفسي وتحول دون الانقسام الداخلي، وتشجب الصراع بين النقائض والاضداد، على نحو بعيد الوئام والألفة بين الغايات والوسائل.

إن فقدان الثقة والقلق والتمزق إنما يصدر من النفس الانسانية حين يتوزع بين حياة الروح المهضومة وحياة الجسد المعلاء، أو العكس، ولا تسترد ثقتها إلا بالموازنة والتكامل الذي يرسمه الإسلام.

«إننا مع الإيمان بالإسلام نرى من الوجهة العلمية أن العقيدة هي التي تعصم الانسان من أكبر دواعي المرض النفساني الذي هو باتفاق المذاهب يرجع الى علة واحدة محيطة بجميع العلل، وهي علة الانقسام الداخلي أو علة التصدع التي توزع النفس شيعا بين النقائض والاضداد ويفقدها الوسيلة التي ترأب بها صدوعها وتعيد بها الوئام والألفة بين مقاصدها ونزعاتها.

«ويتحقق الخطر على الطبع السليم عند الوقوف في مفترق الطريق بين النزعتين المتدابرتين كلتاهما عدوان متقاتلان ينتصر أحدهما بمقدار ما يصيب الآخر من الخذلان والهزيمة.

«وفي سعة الاسلام عصمة من كل داء من ادواء هذا الفصام، الذي يمزق طوبة الفرد أو يمزق صورة الوجود كله بين خصومات الفكر وخصومات العقيدة وخصومات المثل الأعلى في كل قبلة تتجه إليها.

«فليس في الإسلام عداء بين الروح والجسد، وليس للجسد فيه محنة تمتحنه بالصراع بين الطيبات من متعة الروح أو متعة الجسد.

(وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) فليس في العقيدة الإسلامية إنسان متصدع يتوزع بين نوازع الروح ونوازع الجسد وليس فيه ضمير يتوزع بين الدنيا والآخرة.

«وفي عقيدته ما يعصم من كل خصام؛ وليس في عقيدته منفذ لفصام تتسرب منه أدواء النفوس وكل أدواء النفوس فانما ترجع الى الشقاق البعيد في ضمائر مرضى القلوب.

«وفي اسم الإسلام دليل على ما في العقيدة الإسلامية من دعائم الثقة واليقين.

«فالإسلام تسليم وسلام ومن تمكن في قلبه فهو أمان وإيمان» وصفة

القول ان دراسات العلماء تجمع الأدواء النفسية كلها في داء واحد: هو داء الضمير المدخول، أو الضمير المنقسم على نفسه، وانها تجمع الطب النفساني كله في دواء واحد هو دواء اليقين والإيمان، وذلك دواء عند الدين وليس منه عند العلم غير القليل، لان العلم سبيل ما يعرف ولا حا[illegible] به الى ثقة وتسليم، وإنما يؤمن الانسان ليعرف كيف يثق وكيف يبصر موئل الإيمان ثم يركن اليه ركون العارف الآمن ركون الإسلام والتسليم[1]».

(4)

إن الانسان المعاصر حين انفصل عن الإيمان بالله بدت له الحياة موحشة، بدا له كل ما فيها عبث، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تطور من النقيض الى النقيض.

وهذا هو ما أطلق عليه وجود الانسان وحده في الكون وأنه ليس ثمة في الكون إله غير الانسان على النحو الذي أورده سارتر في قصة (الله والشيطان) فقد جرت المحاولة عكسية على الأثر. جرت محاولة القول بأن الناس هم الذين خالقوا الله وليس الله هو الذي خلقهم، وبذلك تزلزل إيمان الناس في أقدس مقدساتها ذلك أن إيماننا بالله سبحانه هو الشيء الوحيد القادر على أن يجعل لحياتنا معنى.

بعض الباحثين يرد ذلك التطور الخطير «إلى ما عانته أوروبا من تجارب وأحداث نتيجة لتأليه العلم وتقديسه وتسخيره في اشعال الحروب، مما خلق شعورا بالقلق المبهم وكان من الطبيعي أن يصاحب هذا الخلق احساس بعبث الحياة وانعدام الدافع والمسوغ لبذل الجهد والطموح في عالم يباغته الدمار في كل لحظة».

ويرد البعض الآخر هذا التحول الى عجز الفكر الديني الأوروبي عن اعطاء النفس الانسانية طموحها وأملها مما دفع حملة لواء الفلسفات

---

(1) عن عباس محمود العقاد في بحثه عن علم النفس والدين الإسلامي.

والمذاهب الاجتماعية الى دعوة الناس الى الانسلاخ مما أطلق عليه «ماضي القطيع البشري كله».

ثم ان هناك دعوة الى البحث عن يقين آخر:

لقد سممت الوجودية كل البحار فلم يعد هناك شيء صالح للبدأ به «وبعد السنوات التي حولت أوروبا الى وجوديين كما يقول سارتر لم يستطع الانسان أن يعبر بحر الحياة المتلاطم في سفينة هذا العصر التي ليس لهم ربان، ذلك لان الوجودية قد خلفت وراءها جيلا من البشرية يبحث عن إيمانه بعد أن عجزت عن الإجابة على الاسئلة المطروحة حول الايمان.

لقد بلغت الأمور غاية الاظلام والسوء حتى ارتفعت الصيحة بالقول «بأن الانسان في هذا العصر يبحث عن جدار فلسفي وفكري يتقي به مخاوفه وأحزانه وموته، هذا الجدار ليس بناءا علميا ولكنه جدار انساني».

وأنى له أن يجد ذلك في الفلسفات الاجتماعية التي تدعو كلها الى الهروب من الواقع والى الرفض الكلي الدائم.

إن النفس البشرية قد خربت ولم تعد تجد ضوءا ما وهي تنتقل من ظلمات الى ظلمات أشد قسوة، لقد خلقت المادية أساسا هذا الازدواج الداخلي في كيان الانسان وسحقت ثقة الانسان بالبعث والخلود ومن هنا بدت الحياة وليس لها قيمة أو رسالة أو هدف على النحو الذي تصوره الوجودية.

ومن هنا بدأت حركة التمزق الداخلي والقلق واليأس.

لقد بدأت الفلسفة الوجودية من نقطة الخلاف مع الفكر الماركسي لمحاولة استنفاذ وجود الانسان من خطر سحقه كترس في آلة كبرى، ولكنها بدأت من نفس منطلق الماركسية الأساس وهو المادية، ومن هنا عجزت عن أن تحقق شيئا أكثر من أنها خلقت تيارا جديدا في داخل الانكار الأساسي لله والبعث والروح.

«انها تقف موقفا صلبيا من مشكلة وحدة الذات الانسانية» اذ أنها

تهدف الى الفصل بين القيم الروحية والقيم المادية وبهذا تصيب الانسان بالتناقض الداخلي والازدواج النفسي.

ومن هنا فليست الوجودية إلا مرحلة جديدة في الطريق الذي تتردى فيه النفس الغربية، انها حطمت ما كان باقيا في الفلسفات المثالية من روح الدين، من اليقين والإيمان والاعتصام بالله ومن ثم فقد انكشفت النفس البشرية في ظل مفاهيم الوجودية أشد ما تكون قلقا وجزعا وعجزا عن مواجهة الأحداث وخاصة مواجهة الموت وبذلك كانت الوجودية محاولة فاشلةلانقاذ الفلسفات المثالية ولم تستطع أن تحقق دعواها العريقة الباطلة في تحرير الانسان من القيود بل زادته تكبيلا بقيود جديدة.

ولا ريب أنه كلما ساد الظلام الفكري فإن الإسلام يصبح هو الأمل الوحيد الباقي للنفس الانسانية ليكشف الطريق ويضيء السبيل ، وميزة الاسلام هو أنه يعالج قضايا الانسان معالجة متوازنة فكرية ونفسية دونما طغيان على قيمة أخرى، لقد دعا الاسلام الانسان الى أن يلتمس فطرته المتوازنة: لقد قدم العقيدة الأخيرة للبشرية التي لا تتناقض مع طبيعتها الأصلية ودون تجاهل لرغباتها المادية ومطامحها الروحية في وقت واحد. ان عنصر التوازن الأصيل في الاسلام هو صمام الأمان للأمم والحضارات والمجتمعات وللنفس الانسانية دون أن تقع في خطر التمزق والازدواج والتناقض.

(5)

في ظل هذا الانحراف الذي بعدت به النفس البشرية عن فطرتها واطارها الأصيل نشأت تلك الأمراض التي أطلق عليها الفتيان والعبث والتمرد واللامعقول وصدرت كلها عن مصدر واحد هو ما أطلق عليه الباحثون (الغربة).

ويصل كولن ولسن في كتابه (اللامنتمي) الغربة بأنها مرض متصل

بتصدع الذات ، انشقاقها نتيجة لعدم توائمها وانسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه.

ويقارن كولن ولسن بين الغربة القديمة والغربة الحديثة.

فيقول: كان الغريب في فترة الفلسفات المثالية: برغم حيرته وشكه وذهابه كل مذهب في سبيل العثور على الحقيقة، لا يفقد الايمان بهذه الحقيقة، ولا ييأس من وجودها ، أما الغريب في فترة الفلسفة المادية الآن، فهو لا يفهم ما يعنيه الناس بالحقيقة، أو قل انه انسان عاجز عن الإيمان بوجودها ، فالعالم في رأيه عالم مفتقد للحقيقة: عالم زائف قائم على اللامعقول والفوضى وهذان وحدهما في نظره هي الحقيقة».

ومعنى هذا ان الأمور زادت تعقيدا وأن الظلام قد اتسع رواقه، وان الحلقة ضاقت حول الانسان المعاصر.

ويرد كولن ولسن هذا الخطر الى مصادره الأولى منذ اضطربت مفاهيم الفكر الغربي بين تأليه العقل وبين عجز العقل عن الرؤية الصحيحة ويصل الى تقرير الحقيقة التي وصل اليها حين يقول:

«إنها ازمة الانسان العاقل الذي فقد ايمانه بالله ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص» إنها أزمة العقل المسيطر على الانسان ، فأضعف العقل الصرف مركز الاشعاع العاطفي في الانسان: وهو العقيدة الدينية.

غير أن كولن ولسن بعد أن صدقت أمامه الرؤيا تماما وعرف مصدر الخطر لم يستطع أن يهتدي الى «الإيمان» فذهب يدعو الى «الإرادة» بدلا من «الإيمان» ومع أنه اعترف بأن أزمة الغريب هي أزمة فقدان الإيمان «يظل فيها على حال من القلق والتململ والعذاب حتى يظفر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة» فانه قد عجز تماما عن هداية الانسان الى هذا الإيمان.

ويقرر كولن ولسن أن الفكر العقلي المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب، وان ثمة امكانيات أخرى في الانسان لا بد من استعلالها وان هذه الامكانيات تنحصر في قدرة الانسان على الاستفادة من قوى

ثلاث هي: **قوة الإرادة ، قوة العقل، قوة العاطفة.**

وإن إيجاد الوحدة بين هذه القوى هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي، أو التكامل النفسي عند الغريب.

وليت شعري كيف يريد ولسون أن يبني الارادة في الانسان دون أن يكون له إيمان بالله يعصم هذه الإرادة ويحميها من أهواء النفس.

يقول الدكتور زكي محمد العشماوي في عرضه لفكرة كولن ولسن [1].

إن الغريب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهرة عامة في حياتنا المعاصرة بحاجة الى ماسة الى (بديل) ليشبع عنده العاطفة الدينية، ويجد عندها الملاذ الذي يبحث عنه، غير ان الموقف الديني الذي انتهى اليه (ولسون) ليس منبثقا من إيمانه بالله واليوم الآخر. وبالثواب والعقاب؛ وإنما هو يعتمد أولا على فكرة الخلاص على تحرير الانسان من معتقدات وهمية وعلى الأخص فكرة (الخطيئة الأولى) التي تسيطر على الانسان المسيحي والتي تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة، ان كولن ولسن يدعو الى التخلص من فكرة الخطيئة الأولى. لانها تحجب الفهم عن حقيقة روح الانسان. كذلك يدعو الى التحرر من معتقدات وهمية أخرى تسيطر على الانسان المسيحي وتقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة.

(6)

يرى الباحثون في الغرب عن أزمة الانسان المعاصر بدأت منذ انفصل عن الدين، لقد تركز الأمل بعد الدين في الفلسفة فلما سقطت الفلسفة وضع أمله في التاريخ.

---

(1) ك : الأدب وقيم الحياة المعاصرة.

ولكن الفلسفة والتاريخ بجميع فروعها قد ألقتا السلاح بين قدمي العلم منذ منتصف القرن التاسع عشر، غير أنه في النصف الثاني من القرن العشرين (في الستينات) ألقى العلم جميع إمكانياته ومقدراته معترفا بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة وكان معنى هذا: إن العلم باعتباره آخر درع في الانسان آخذ في السقوط.

ويرى الباحثون ان الانسان المعاصر تحول الى آلة. الى خادم للآلة. الى رقم من الارقام.

لقد اخترع الآلة لتخدمه ولكن أصبح اليوم أحد خدامها. فالقوى التي خلقها بنفسه تزيد من أبعاده يوما بعد يوم، وهكذا تنهار الانسانية كلما اتسعت فاعلية الآلة لتؤكد انفصاله عن عصر العلم وليقف في تيه من الفكر.

ويقول أحدهم «ان الانفصال متغلغل في الصداقة بين الانسان وعمله وبينه وبين نفسه، فقد خلق عالما من الأشياء التي صنعها بنفسه ولم يكن لها وجود من قبل، وأنشأ أداة جماعية معقدة تدير الآلة الفنية التي أوجدها ومع ذلك فان ما خلقه الانسان كله يرتفع ويبتعد عنه رغم أنه لا يحس بنفسه خالقا ومركز لهذه المخلوقات بل خادما لوثن صغير صنعه بيده.

«إنه يواجه القوى الخارجية التي أوجدها بنفسه ثم فصلها عن نفسه وعليه فهو انسان تملكه مخلوقاته ولا يملك نفسه»[1].

وهذا هو ما يسمونه أزمة الحضارة. هذا الفصام بين ما يعيشه الانسان وما يريده، بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع، بين الوجدان والعقل، بين الفكر والواقع.

إن أصواتا كثيرة بدأت تعلو وتردد كلمة لها أهميتها.

«هي ان العلم لم يزل متجه الى خدمة الظواهر الاجتماعية في حين أن عالم الانسان، لم يزل سرا» يقول الدكتور اليكسي كاريل «لقد عانى المجتمع العصري منذ نشأ من خطأ عقلي، وهو خطأ ما زال يتكرر باستمرار منذ

---

(1) راجع حسن صعب ونجيب صالح في كتابيهما عن الطلاب وثورة الطلاب.

عهد النهضة، لقد كوّنت التكنولوجيا الانسان ليس تبعا لروح العلم ولكن تبعا لآراء ميتافيزيقا خاطئة. إن الغلطة المسؤولة عما تعانيه جاءت من ترجمة فكرة جاليلو الى فصل الصفات الأولية للأشياء التي يمكن قياسها بسهولة عن الصفات الأخرى وهما: (الشكل ـ اللون ـ الرائحة) التي لا يمكن قياسها. أي فصل الكم عن النوع، ولقد كانت تجزئة الأشياء أمرا ضروريا ولكن اهمال هذه الصفات لم يكن كذلك، لقد دفعت هذه الغلطة الحضارة الى سلوك أدى الى فوز العلم وانحلال الانسان.

إن علينا أن نجدد الانسان مرة أخرى، يجب أن نصحح الخطأ الذي جعله شبيه بالآلة، يجب لكي نعيد الانسان ذاتيته أن نحطم هيكل الحضارة التكنولوجية نفسه».

ويتساءل الباحثون ، هل اتجه العلم نحو الانسان ليكون انسانا.

هل طرح العلم أي جديد أمام قضايا العصر الميافيزيقة التي تقلق الانسان، ويجيبون: أن لا. إن العلم نفسه أصبح أزمة من أزمات الانسان تضيف إلى مأساته أخطر حلقة مأساوية في تاريخ البشرية.

ولقد حاول العلم أن يحل قضية الانسان فغرق وأغرقه معه.

ويشير الباحثون الى أن الفلسفة كانت منذ أعقاب الحرب الأولى وفترة ما بين الحربين أملا وقد أعلن عدد من المفكرين والأدباء اذ ذاك بحثهم عن قيادة فكرية جديدة للبشرية ظنوا أنهم وجدوها في فرويد ومدرسته.

فلما فشلت تركزت الآمال في (السريانية) حتى جاءت الحرب العالمية الثانية فهدت النفوس لنبذها، واعتناق (الوجودية) كحل لتسوية قضية الانسان إزاء نفسه وإزاء الطبيعة وباقي القصة معروفة فقد عجزت الوجودية وسقطت ثم جاء العلم وقد امتلأت النفوس به. وبسلطانه الذي يفوق كل سلطان ولكن العلم أثبت عجزه ومن هنا فان الإنسان المعاصر في الغرب بعد أن قتل العلم الدين في نفوس البشر ـ هذا الانسان يبحث عن إيمان جديد يوازي سطوة العلم.

وجاءت دعوة مهاريشي الى تأمل الانسان ذاته لكي يتجه الى ينابيع نفسه من الداخل وقد تحولت هذه الدعوة الى تحقيق الحلم من خلال تعاطي العقاقير والمواد المخدرة. انها عملية الهروب من الواقع.

لقد عجزت الدعوات السلبية عن أن تقدم شيئا ايجابيا. لقد هدمت في النفوس كل شيء ولكنها لم تبن شيئا، وتلك طريقة الدعوات التي تقدمها التلمودية الصهيونية فلما تعالت الصيحات جاءت دعوة الصوفية البوذية: انها محاولة جديدة لتذيب النفس الانسانية في كأس من المرارة المذوبة، ونقلها من الإباحة المفرطة الى تعذيب النفس والزهد المفرط، انها محاولة تدمير الانسان بالهزيمة الكاملة. والانسحاب الكامل من المجتمع، أما بالمخدرات والعقاقير أو بالزهد والتقشف وتعذيب النفس.

ويرى علماء الاجماع أن الخطر بدأ يزحف نحو الشرق، هذا صحيح ولكن ليس الى الأصالة بل الى الزيف مرة أخرى، إلى سجن النفس وتدميرها بالعنف أو بالانسحاب. إن في الشرق فكرة أصيلة تختلف عن هذه وتلك. هي التوازن التي قدمه الاسلام. وبعيدا عن السلبية وبعيدا عن العنف.

الفصل الثالث

الانسان والزينة

أعلن الإسلام تكامل الإنسان. روحه وجسده معا ودعاه الى ىريرهما من العبودية، كما دعاه الى تطهيرهما وتنقيتهما. وجعل النظافة رمزا دلالة على طهارة البدن والى نقاء الثوب وربط بين نظافة البدن وطهارة روح، وبين نظافة الثياب وسلامة النفس، ولم يقف الأمر عند السماح الزينة بل لقدكره للإنسان ألا يتخذها وربط ذلك بالوضوء والريح الطيبة اللباس النظيف وتنقية الفم وجعل زينة الرجل في مواقف الصلاة وفي بقاء لأصدقاء وفي داخل البيت للمرأة أيضا وأنكر اهمال الرجل لزينته وربط ينهما وبين خطر تناقض المودة للزوجة. ونفورها. ومن خلال ذلك وازن لإسلام بين ماديات الزينة وروحانياتها، ووقف في وجه الموجة الانسحابية لزاهدة والموجة الإباحية المغرقة في الترف والتحلل، فأنكر الاسراف في لزينة ونوع الملبس حتى لا تخرج الشخصية الإنسانية المسلمة عن قاعدة لسلامة ولا تجتاحها آفة الانحراف، فقوة البدن، مع الطهارة، والزينة، نحول دون مظهرين:

مظهر الخشونة المسرف ومظهر الميوعة المترف.

ولما كان للملبس والزينة علاقة بالأصول التي تقوم عليها الشخصية الإنسانية التي عمل الإسلام على بنائها. فقد كان له أن يحفظ هذه الشخصية من خطر الاسراف والجمود معا في مجال الزينة كما حفظه في مجال الطعام والشراب والجنس جميعا.

ذلك أن قاعدة الإسلام الأساسية هي حماية رجولة الرجل وحماية أنوثة المرأة من أن يختلطا على نحو يفسدهما جميعا ويحول دون أداء الرسالة الصحيحة الموزعة بينهما من خلال تكوينهما البيولوجي والنفسي والاجتماعي، بل ان هذه الأجزاء من الجسم التي حرم الله كشفها هي مما يستهدف أساسا حفظ شخصية المرأة وشخصية الرجل في رفعة وسمو. وفي حصانة ومنعة بعيدا عن أهواء المطامع ودوافع الشهوات.

ولما كانت النفس الإنسانية تتشكل باللباس. فتزهو إذا لبست لباس الحرب وتعز إذا لبست لباس السيادة. فانها أيضا تشعر بالرخاوة والضعف إذا لبست لباس النوم أو لباس السرير. وهي أيضا تجد الاحساس المواجه لكل ملبس سواء أكان ملبسا خشنا أو ملبسا رقيقا، أو كان ملبس التمثيل، أو الفروسية أو غير ذلك.

ومن هنا كان خطر تحكم القوى المدمرة في هذا المجال وفرض سلطانها عليه واثارتها موجة من السيطرة بالتغيير والتبديل تحت اسم ما يطلق عليه «المودة» التي تتعشى في كل مكان ولا يسلم من الخضوع لها الا القادرون على فهم خطر هذا السلطان في هز القيم النفسية للانسان.

والمسلمون أمة اختيرت لعزائم الأمور وبني الإسلام فيها الارادة والرجولة والعزم، ووقعت أرضها في موضع خطير هو مطمح كل طامع، ولذلك فقد فرضت عليها أوضاعها الاجتماعية والسياسية والنفسية أن تكون من أمم العزم والشجاعة والمقاومة والمرابطة في الثغور فكان عليها أن تختار لباسها على النحو الذي يحول بينها وبين الجبن والتواكل والانحلال.

ولقد قال كثير من الاجتماعيين: ان القميص هو الرجل، وقال لدوفيج ان الإنسان يختلف تفكيرا في ملابسه العسكرية عن ملابسه المدنية.

وأن ثياب المرأة إذا ما استوفى طابعه الإسلامي كان موضع التكريم والحذر وعاملا من عوامل تقديرها ورد أصحاب الأهواء عنها. كذلك فإن

ثياب المرأة حين يجاوز الأصول الاجتماعية يوحي بنفسية متمردة ويغري بالاستهانة والجرأة عليها.

ولقد عرفت الأمم في تاريخها كله طائفة لا تتقيد بالعرف العام ولا بشرائط القيم في ملابسها ربما كانت طائفة العاملين في مجال الغناء أو الرقص أو التشخيص من الرجال والنساء وهؤلاء لهم لباسهم الذي لم يكن يتجاوز بيئتهم. فلم تكن المرأة تتخذ منه أسوة لها بل كانت تحذر منه وتتجنبه وكذلك لا يتخذه الشباب والرجال. كانت هناك هذه التفرقة الواضحة بين قيم الجماعة العامة وبين هذه الطوائف الوافدة على المجتمعات من النور أو الرجل. وكان في سقوط هذه الفوارق خطرا كبيرا بل لقد بدت مثل هذه الطوائف وكأنها هي صاحبة المثل الأعلى في الملبس والزينة عندما فقدت المجتمعات إيمانها بالزي الخاص القائم من عقائدها ومزاجها النفسي وحين فرض على المسلمين والعرب ملابس الغرب وأزيائهم وعجزوا عن المحافظة على ملابس يحتوي قيمهم وتحفظ لهم طابعهم النفسي ومزاجهم الاجتماعي.

ولقد كان لتقليد الملابس أيا كان نوعها أثره الواضح في احول الشخصية. سواء شخصية الرجل أو شخصية المرأة، من حيث القوة أو الضعف، التماسك أو التحلل، السماحة أو العنف، ومن هنا كانت الرابطة العميقة بين الملابس والأخلاق.

ومن هنا كانت قاعدة الإسلام الواضحة في علاقة الانسان بالزينة وأثرها في السلوك والأخلاق وبناء الشخصية أو انهيارها.

يقول صاحب ملتقى الأبحر: «ان الملابس تستعمل في ستر العورة وفي اتقاء غائلة الحر وصولة البرد، ولا يحرم التزين إذا كانت الغاية منه اظهار. نعمة الله والآية التي منّ بها علينا، ولكن يحرم إبداء الزينة إذا كانت الباعث على أدائها متعة الزهو والخيلاء والكبرياء، وان التواضع في هيئة اللباس هو في غالب الأحيان يوحي به من قبل الحكماء.. الخ.

(2)

إن مفهوم الزينة واللباس في الإسلام هو مضمون الفطرة ونداءها. فالعري ليس من فطرة الإنسان والزخرف ثقيل على النفس الإنسانية. واللباس له وظيفة هي ستر العورة والحماية من تقلبات الجو في إطار من الزينة والتقوى.

وكذلك يأتي شرع الله في اللباس موافقا للفطرة ولما تتقبله النفس الانسانية الصافية. **(وأنزلنا عليكم لباسا يواري سواءتكم وريشا. ولباس التقوى ذلك خير)**.

وهي طريقة الإسلام دائما. وطريقة القرآن أبدا. الجامعة بين المظهر والمضمون. وبين الروح والمادة وفي إطار مفهوم الإسلام لعلاقة الرجل والمرأة يتشكل مفهوم الإسلام للباس والزينة، للرجال ملابس وللنساء ملابس. للبيت ملابس وللشارع ملابس، هناك أشياء محرمة على الرجال: الحرير والذهب وأشياء محرمة على المرأة، كشف ما سوى الوجه واليدين. وكما يكون المجتمع الإسلامي ليس مجتمعا مختلطا فهو مجتمع ستر وارتفاع بالنفس البشرية الى قيم أعلى من رؤية الأجساد العارية. أو الخلط بين ملبس الرجل وملبس المرأة. وفي حدود ذلك تتطور الأزياء مع روح العصر دون أن تخرج على الأصول العامة.

ولقد كانت المجتمعات الإسلامية دائما في حاجة الى تذكرة وتوجيه حتى تلتمس دائما ذوقها الأصيل. وقيمتها الحقة وذلك حفاظا على هذه الدعائم التي يقوم عليها كيان الأمة وفرديتها حتى لا تنهار.

ومن هنا فلا بد من مواجهة العري وموجة الانحراف والتحرر منهما وتجاوزهما. ولا ريب أن العري الجسدي يصدر عن النفس إذا تجاوزت ضوابطها النفسية والاجتماعية أو هو يؤدي اليه إذا فرض على المجتمعات.

ولا بد ان انهيار قيم الزينة واللباس بالزيادة أو النقص، للرجل أو المرأة، هو علامة تحول خطيرة في الخلق والمجتمع. وقضية اللباس والزينة

ليست منفصلة عن شرع الله ومنهج الإسلام، وهي من أصول قضية الإيمان لأنها لا تتصل بالعلم وحده ولكنها تتصل بالعمل والممارسة.

ولا ريب أن الاندفاع وراء موجة العري والخروج عن ضوابط الزينة واللباس هي مقدمة لكل الأخطار المتوقعة في مجال البناء النفسي والاجتماعي بما يفتح الطريق لتجاوز كل الحدود والضوابط التي وضعت لحماية كيان الانسان (رجلا أو امرأة) وحماية بنية الأسرة.

ولا ريب أن لعرى المرأة أثره في نفسيات المراهقين والشباب وآثاره الخطيرة في الكيان البشري للرجل أيا كان فقد دلت أبحاث الأطباء الى أنه من مصادر العنة والضعف التناسلي.

ولذلك فإن ما أطلق عليه (ثورة الزي للمرأة) ليس في حقيقته الا تنفيذ فقرة من مخطط التلمودية الصهيونية العالمية التي تستهدف تحطيم القيم الاجتماعية والنفسية للمجتمعات ولذلك فهي تسعى أساسا الى هدم الفوارق العميقة بين شخصية الرجل وشخصية المرأة بفرض الغلاميات على المرأة في زينة السفر وفي لبس الزي الافرنجي للرجل من قميص وجاكتة وبنطلون.

كذلك فهي تفرض انماء شعر الرجل وتزيينه على نحو أنثوي، في نفس الوقت الذي يتلخص فيه المرأة من شعرها وتلزم جانب الرجولة.

وهو في مجموعة جزء من مخطط دفع المرأة الى أخطر مراحل العبودية، وتحولها الكامل من وضعها الطبيعي الفطري كأم وزوجة وذات كيان أصيل، وعماد الأسرة الى صورة المرأة التي عرفتها قصص الجنس القديمة: «الغانية التي تبيع اللذة».

وهو القيد الذي حطمه الاسلام ورفعه عنها وكرمها حتى لا تكون مخطية أو أداة.

ان دعوة العري وأساليب الزينة والملابس التي تفرضها تلك القوى المسيطرة على الأزياء في الغرب والتي اتسع نطاق نفوذها حتى توشك أن

تسيطر على العالم الاسلامي انما هي مقدمة لهدم أصالة مفهوم المرأة ووظيفتها ومكانتها.

ان هذا الاتجاه الخطير هو مقدمة لكل ما وراءه من فلسفة تحرر المرأة من قيود الأسرة وشرعية الزواج. والزي العاري المكشوف هو مصدر القضاء على حياة المرأة، وعلى احتقار المرأة لأجزائها المكشوفة، بل وتشوقها الى كشفها للناس وملاحظة اعجاب الناس بها بينما هي لا تملك هذه الأجزاء، وليس من حقها أن تعرضها على هذا النحو.

إن الاسلام حين حما المرأة من العري ودعاها الى ستر العورة، إنما دعاها إلى بناء كيان نفسي مليء بالحياء والتقوى والستر وصيانة السر، وفق الفطرة الأصيلة وكان ذلك سدا منيعا أمام الأخطار التي يفتحها العري والتحلل أمام العلاقة السرية التي تمتهن فيها المرأة، حين يغريها الدعوة الى التحرر من مواضعات العقد الشرعي، ولقد كانت حماية الإسلام للمرأة من العري مع الزينة ، ابقاءاً على عامل نفسي خطير في أعماقها هو حياء المرأة، الذي هو جزء من أنوثتها وكرامتها، فإذا سقط هذا العامل تحت سنابك ازياء كريستيان ديور فقدت المرأة شخصيتها الحقيقية، ولقد كان الاسلام مرتفعا بها حين جعلها تعتصم بحيائها وأنوثتها، حتى يطلبها الرجل الى الزواج ويقدم لها مهرا، هو منحة وهدية، كي يعبر عن طلبه إياها ورغبته في الزواج بها.

فالإسلام في مفهومه للزينة والزي إنما يبقي على أنوثة المرأة وحنانها وعاطفتها كما يبقي على رجولة الرجل وشهامته وسلامته وقدرته على المقاومة والبذل. ولعل الآن قد وضحت أبعاد العلاقة بين الملابس والزينة من ناحية وبين الأخلاق من ناحية أخرى، مما يقصر عنه تفكير الذين يجتاحهم التفكير الانشطاري ولا يتعموقن تكامل مفهوم الانسان والمجتمع فيكونون بآرائهم خدما للأهداف الصهيونية البعيدة المدى في اقرار العري وتحطيم الفوارق بين الرجولة والأنوثة.

الفصل الرابع

الإنسان والموت

للإنسان من الموت موقفان: موقف المؤمن. وموقف الملحد. أما المؤمن فان نظرته الى الموت مستمدة من إيمانه بالله وبخلود الروح وبارتباط الحياتين الدنيا والآخرة ببرزخ تعبر عليه هو الموت. فالموت عند المؤمنين ليس نهاية الحياة ولكنه معبر على طريق الحياة الى الحياة الدنيا الآخرة: وهذا الإيمان يرتبط في مفهومه بأمرين: بالمسؤولية الفردية والمستمدة من الإرادة الانسانية الحرة التي هي موضع الجزاء. وبالحقيقة التي لا تكتمل بنهاية الحياة الدنيا.

ومن هنا فالموت في نظر المؤمن بالله، حقيقة لا تزعج ولا تبعث على التشاؤم ولا تدعو الى الخوف أو الاضطراب.

ولقد علم الإسلام المسلمين ألا يخافوا الموت ولا يهابوه، بل يقبلوا عليه ويطلبوه من أجل التمكين في الدنيا ومن أجل حسن الجزاء في الآخرة. فالمسلم يؤمن بالحرص على الموت لتوهب له الحياة.

وهناك موقف الملحد: الذي يعتقد أن الموت هو نهاية الحياة، ومن هنا فهو يخشى هذا الأمر الخطير الذي لم يستطع العلم الحديث أن يقضي عليه، ويصاب بالهلع من أجل وقوعه وفقدان الحياة.

ومصدر الهلع والخوف هو الأحساس بأن الحياة مصادفة عمياء، وأن الوجود بها ليس له هدف وان نهايتها هي نهاية كل شيء، ومن ثم فإن ذلك كله يفرض الركض الشديد من أجل الاستمتاع بها واقتناص رغباتها

والجري وراء متعها، فالحياة في نظر غير المؤمنين متعة كبرى. فهم يحبونها حبا شديدا. ويعملون على الاستمتاع بكل ما فيها من وسائل الترف والنعيم واللذة، واعتقادا بأن العمر قصير، واقتناصا للفرصة قبل أن تفوت . ومن هنا يشغل هؤلاء بإطالة الحياة والاندفاع وراء الرغبات: رغبات الطعام والشراب وولذات الجنس والعبث، لا يقيمون وزنا لشيء. وظنا منهم أن هذه هي وظيفة الانسان في الحياة التي سوف ينزل عليها الستار إذا ما مات الانسان.

ولقد تجري فلسفة الموت في مفاهيم الوجودية والعدمية وغيرها من المذاهب، حول سؤال يتردد: لماذا جئنا. وإلى أين نذهب. وما هي حكمة وجودنا ، ويذهب فلاسفة الوجودية والعدمية وغيرها الى الإجابة على هذه الأسئلة إجابات متشائمة. يقو' دامو ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى، ويقول سارتر ان الحياة عبث.

وتتردد في هذا المجال كلمة الانتحار، اذ ما هي قيمة الحياة وضرورتها: يقول البعض أن الأفضل ألا تكون هناك حياة ويشبه سارتر الانسان بشخص محكوم عليه بالاعدام يتهيأ لساعة التنفيذ . يحاول أن يكون رابط الجأش ساعة أن يصعد الى المقصلة. ولكنه يموت فجأة قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه، ويرى غيره أن الموت سخيف مجرد من كل معنى، ولا ريب أن هذا المفهوم إنما يمثل القلق العميق الذي يملأ النفوس العاجزين عن ادراك أبعاد حكمة وجود الانسان الحياة ومفهوم رسالته.

وهذه المعاني كلها على هذه الصورة من الوساوس والأهواء. إنما تمثل الحجاب الذي حال بين النفس الانسانية وإدراك حقيقتها.

إن السؤال الخالد الذي يتردد على كل لسان وفي أغماق كل نفس (من أين جئنا وإلى أين نذهب) قد أجابت عنه رسالات السماء. وفي أفق الاسلام أجاب القرآن عنه إجابة مستفيضة واضحة، تقوم على أساس الفطرة وتتقبلها النفس الصافية الراغبة في المعرفة الحقيقة.

والأديان السماوية التي عرفتها عوالم الشرق والغرب ـ حتى بعد أن

أخطأت التفسيرات في كثير من مفاهيمها، ما تزال تحمل مفهوما صحيحا لفكرة الموت والبعث، وترابط الجزاء الأخروي بالمسؤولية الدنيوية.

وإذا كانت الفلسفات المختلفة قد حاولت أن تبحث عن إجابة لهذا السؤال بعيدا عن الوحي، فإنها في حدود طاقتها ومقدرتها العقلية قد أصابت قليلا وعجزت كثيرا. وكان أخطر عجزها حين تتصدى للبحث في نطاق أدوات المادة والعقل واخضاع عالم الغيب للتجريب أو مقاييس المحسوسات والجماد.

وإذا كانت فكرة الموت قد شغلت الفلاسفة منذ أقدم العصور، فإن حقيقة الموت قائمة في أعماق النفس الإنسانية دون حاجة كثيرة الى كبير استقصاء أو بحث ولم يضل في الوصول اليها إلا فئة واحدة هم أصحاب الفلسفة المادية الذين يقيسون الأمور على المحسوس والمنظور وحدهما.

ولقد استعلت أصوات فلسفية في العصر الأخير بانكار ما بعد الموت وحاولت أن تصور الخلود والجزاء والحساب وكأنها من أمور الدنيا، تأويلا لبعض النصوص أو تخرجا لمعاني الكلمات، غير أن أخطر ما هنالك هو الجزع من الموت، وهو أمر يحطم النفس الانسانية ويهزها من الأعماق طالما تجاوزت اعتصامها بالله، وتحقيقه الفطرة.

إن النفس الانسانية في حاجة دائمة الى سناد وقوة عليا تعتصم بها وتركن اليها ويمشي في ظلها بالأمن والسكينة: هذه القوة هي الله وحده، وليس هناك قوة أخرى تستطيع أن تمنح النفس الانسانية هذا الأمن والسكينة، فإذا زاولت النفس إيمانها بالله، عاشت في رعب وفزع وخوف ورهبة وجزع لا ينتهي.

وأخطر أخطاء هذا الرهب والفزع هو الموت، ذلك السيف المصلت على الرؤوس والنفوس، وهو ما يصيب النفوس التي فقدت إيمانها بالله وحاولت أن تلتمس طريقها في الحياة والفهم والتدبير في ظل مفاهيم المادة الجافة.

وإذا كان الفلاسفة قد عجزوا عن أن يفهموا ما وراء هذا الجدار:

جدار الموت ولذلك أسموه: المجهول الأكبر فإن الوحي قد أرضى رغبة الانسان في المعرفة وحرره من قلق المجهول، وأراحه من عناء البحث الذي لا طائل تحته عن طريق العقل بأن كشف له الصورة بتمامها: الموت وما بعد الموت من حياة البرزخ وما ينتهي به من قيام الساعة والبعث والخروج من القبر والحساب والجزاء بالجنة أو النار. ولقد قدم الإسلام هذه الصورة في أدق مفاهيمها ومعانيها ورسمها القرآن على نحو يرضي النفس ويملأها طمأنينة وسكينة ويدفع عنها كل قلق أو ريب.

بقي أن نقول أنه مصدر القلق هو عجز الانسان عن فهم الأبعاد الحقيقية للمعرفة والوجود ، وتصوره عند منطلق واحد من منطلقاتها العديدة وهو العقل وما يتصل به من علم. وقصوره أو اغضائه أو انصرافه عن منطلقات أخرى هي الوحي والوجدان والروح والبصيرة. وهي منطلقات معطية ومكملة، خاصة هذه الجوانب التي يعجز عنها العلم التجريبي والعقل لانها خارج دائرة المحسوس والملموس والمرئي، والمشاهد.

ومهما تحاول الفلسفات المادية والموجودية في أمر الموت فهي سوف تخوض بحارا مظلمة متلاطمة، تخوضها وليس معها ضياء أو نور أو اثارة من علم، ولذلك فهي سوف تعجز عن أن تقول الا كلمات الشك والوهم والسخرية والعبث وهي كلمات يسيرة على كل من يقولها ولكنها لا تشفي صدرا ولا تجيب على سؤال ولا ترضي نفسا، ولا تبعث طمأنينة. بل لعل أصحاب هذه الفلسفات إنما قصدوا الى تعميق الشك وتذويب المر في حلوق الناس وتدمير النفوس.

«أما الإسلام فقد قرر فكرة البعث والجزاء كركن أساسي في عقيدته ووضعها على أسس منطقية ونفسية عميقة الجذور في كيان الانسان بل أنه جعلها أساس السلوك الأخلاقي في الحياة الدنيا وبهذا قضى على اليأس من الفناء وأبعد شبح العدم عن مصير الانسان.

إذ ليس ثة عبث في الحياة، وليس ثمة ضياع للجهد الانساني اللذان يدفعان الانسان الى الاعتقاد بلا معقولية الحياة وبلا جدوى العطاء الانساني.

والإيمان بحقيقة البعث والجزاء (لا يقضي على يأس الانسان وتخوفه من المصير المظلم فحسب) وإنما يمنحه قوة نفسية خارقة بها تستطيع أن يغزو الكون ويحقق المعجزات».

إن ميزة المسلم أنه لا يطلب من الحياة إلا مفهومها الحقيقي فهو لا ينسحب من الحياة وتغتزلها خوف أحزانها وآلامها، ولكنه يصابر أحداثها ويؤدي دوره بالمجاهدة والعمل. ويمتلكها ويكون زاهدا فيها، ولا يطلب الموت هربا منها أو كراهية لها ولكنه يقول: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي. وأمتني ما كان الموت خيرا لي.

وليس في حياة المسلم هلع من الموت، لانه يعلم ان الموت نهاية كل حي. ويعلم أن هناك وحدة أساسية بين الموت والحياة، وبين الحياة الأولى والحياة الأخرى، وبين العمل والجزاء ويؤمن بأن الحياة إذا ما انتهت بالموت فقدت مضمونها الحقيقي لان أعظم قضاياها مؤجل ليوم آخر للفصل فيه.

إن ترتيب البعث على الحياة والموت ليس أمرا مستحيلا ولا متناقضا عقليا بل ان شبهة افتراض ان الموت نهاية الحياة هي التي تبعث الريبة والشك في النفس. فكيف ينتهي عالم يفصل في أمره، ولم تكشف حقائقه، ولم يستمع أهله الاجابة عن الأسئلة المثارة فيه وعنه. ولم يفصل بين المختلفين فيه. من دعاة الحق والباطل ومن أهل الفكر الرباني والفكر البشري. من المؤمنين والملحدين. من الذين قدموا كلمة الحق خالصة ومن الذين زيفوا كلمة الله وأشاعوا الفاحشة وشرحوا الصدور بالكفر والزيغ.

كيف يمكن أن تنهي الحياة دون حياة أخرى تقدم للناس تفسيرا كاملا. وجزاء كاملا وتقضي في عشرات من القضايا المعلقة بين حق المنهج الرباني وباطل المنهج البشري.

إن مفهوم المسؤولية الفردية يترتب عليه الحساب والجزاء فاقرار البعث لا ريب مطابق للفطرة ولا يشكل تناقضا عقليا.

«**أفحسبتم إنما خلقتكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون**».



الفصل الخامس

الانسان والعالم المواجه

إن أخطر ما يمثله الفن الغربي (رواية ـ قصة ـ مسرح ـ رسم الطبيعة) هو ما يعبر عنه بأنه محاولة تعليم الطبيعة وخلق عالم مواجه لعالم البشر من الصورة والكلمة والحوار وذلك حتى يتقرر في النفس الإنسانية ان هناك عالمان:

عالم يطلق عليه الحقيقة البشرية وعالم يطلق عليه الصورة الفنية. أما عالم البشر فهو العالم الحقيقي الواقعي، أما العالم المواجه فهو عالم موهوم لا يمكن أن يوصف بأنه عالم حقيقة، ذلك لانه يقوم على تصور مرسوم في لوحة أو مكتوب في رواية أو مقروء على خشبة مسرح.

وان أبرز الأخطار التي تحيط بهذا العالم الخيالي الوهمي الذي صنعه الانسان هو أن يصبح قوة كبرى لها مقدرتها على الحكم في قضايا المجتمعات والانسان والحياة بينما هي لا تعتمد على أي أساس من الواقع الحي. ولقد يبلغ من خطرها أن تتحكم في ادارة وتوجيه عالم الحياة الحقيقية البشرية.

ومن أبرز عوامل هذا العالم المواجه، أنه يقوم أساسا على الأسطورة القديمة التي هي مجموعة من الخرافات والأوهام والصور الساذجة التي صاحبت البشرية في فترات الوثنية والبدائية والجاهلية وتتسم هذه الصور التي يقدمها الفن الغربي بسمة واحدة هي أبرز السمات وبنبرة عالية هي أعلى النبرات تلك هي تصوير الجانب المظلم من النفس الانسانية والجانب

الإباحي المسفر من طبائع البشر، وتدور المسرحيات والقصص والروايات والفنون كلها حول هذا اللون ومن خلال طابع التشاؤم العميق والاحساس بالغربة والتمزق.

ويرجع هذا أساسا الى أن المسرح اليوناني القديم قام على أساس فكرة الصراع بين الانسان والآلهة وكانت ذروة المأساة فيه هي تحطيم القدر للبطل بعد مصارعته للآله. ثم اتسع نطاق الصراع الى مجالات متعددة، فهو مع المجتمع أو الأرواح الشريرة أو مع نفس الانسان.

وقد كان لمفهوم الخطيئة في الفكر الغربي بعد سيطرة المسيحية أبعد الأثر في عقدة القصة واطارها الفني كله الذي ما زال مسيطرا عليها الى اليوم.

ان مفهوم خطيئة آدم ما زالت تفسر في الفكر الغربي وتفرض أثرها على الفن والمسرح وعلى مختلف نظريات النفس والأخلاق والاجتماع ، تفس على أن هذه الخطيئة هي خطيئة البشرية كلها وان آثارها ممتدة في حياة كل انسان.

فهي تستوعبه طوال حياته وتفرض شبحها المظلم على كل تصرفاته من ساعة ولادته الى ساعة مماته، وقد كانت مصدرا لنشوء كثير من المدارس الالحادية.

ومما يترتب على هذه النظرية انعدام المسؤولية الفردية للانسان وما يترتب عليها من قصاص في الدنيا أو عقوبة في الآخرة، بمعنى تلاشي الجزاء جملة، من حيث ان الانسان لا إرادة له وأنه خاضع في حياته كلها وحياة البشرية الى خطيئة آدم، ويتمثل هذا المعنى في عقدة القصة والمسرحية ويلقي تظلله الكثيف على مفهوم الفن والأدب جميعا.

يرجع خطر هذا العالم الواهمي المواجه للعالم الواقعي إلى أنه يقوم على فكرة الازدواجية التي تسيطر على النفس البشرية الغربية حيث يعيش الانسان مع الشيء أو ضده في تعدد العوالم، وتناقضها، وحيث يواجه

الانسان الحياة والقدر والإرادة الالهية مواجهة الصراع الدائم المستمر الذي لا يتوقف.

ولا ريب ان هذه المفاهيم التي كان من شأنها انشاء هذا العالم المواجه لا يعرفها الاسلام الذي يتلاقى في طمأنينة ورضا مع الله والقدر والحياة.

في هذا العالم المواجه «يحاول الانسان أن يكتشف نفسه ندا للالهة[1]». أو على الأقل يشكل «شخصية مستقلة تحيا وحدها تجاهه بمعنى أن هناك ارادتين إرادة هذا الانسان وإرادة الله. وبالنسبة للإسلام فان مثل هذه الثنائية ليست غير موجودة فحسب بل انها غير متصورة على الإطلاق .»

(2)

إن المصدر الأول والخطير للعالم المواجه هو: ما أطلق عليه نظرية المحاكاة أو التقليد، وهي النظرية التي يرفضها الإسلام رفضا باتا، ذلك أن نظرية المحاكاة من شأنها أن تعطي الانسان ذلك التطلع الى انشاء عالمه الوهمي المواجه، وهو عالم في الأغلب يقوم على نقد واستنقاص العالم الحقيقي حيث يحاول الفنان أن يرسم صورا تنافس خلق الله، أو تشير الى أنها تستكمل نقائص الطبيعة أو تخلق القصة والرواية عالما معارضا، والمسلمون يؤمنون بأنه ليس ثمة شيء يمكن أن يكمله الفنان أو نقص تصل اليه يد الانسان.

«ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت».

ولما كانت الطبيعة والانسان من صنع الله وهما خاضعان لإرادته وصناعته فإن المسلم لا يجد صراعا حقيقيا بينه وبين الطبيعة أو بينه وبين القدر، الذي هو من إرادة الله.

---

(1) دكتور محمد عزيزه ـ المسرح الاسلامي.

ومن هنا فان الفكر الغربي يؤمن بالازدواجية بينه عالم الواقع وعالم وهمي يصنعه من صور الفن أو الرواية والقصة ، ثم هو يرنو دائما الى الانسحاب من عالم الواقع الى العالم الوهمي المواجه.

يقول (ر. م. البيريس) من كبار نقاد الرواية الغربية:

إن الرواية هي مرض الانسان ، هذا الانسان الذي لا يكفيه ضميره، بل يبتغي أن يقدم له اغراء انتهاك ضمائر أخرى وتجعله يعيش حيوات أخرى كما يعرف هل ثمة حياة ما يتوقف عندها ولو كانت خيالية.

ان كشف الأسرار في الرواية لا يتجه كل الاتجاه نحو طبيعة المشاعر والعواطف ولو كانت غامضة أو فاضحة، وإنما الولوغ في قلب القلعة، في الضمير، في هذا الفراغ المتوتر الذي يجده كل انسان في أعماق ذاته، هذا الفيض الغامض المشاعر والأفكار؟ هذا الشقاء، هذه الوحدة، التي وصفها سارتر وصفا مشخصا في رواية الغثيان، ورغم الحياة التي عشناها فاننا جميعا في غاية الفقر، بيد أننا نعتقد بأننا إذ نلج في ضمير جارنا في الضمير المتخير لأحد أبطال الرواية ، نجد عونا وكشفا.

وهذا ما يدفعنا الى هذه الكتب التي سرعان ما نطرحها والتي ندعوها روايات.

إن الرواية هي بديل الموت، فهي تثبت مصيرا ما، مهما كان نوعه إلا أنها تثبته في نهاية المطاف، لقد حلت الرواية محل فكرة الأبدية.

ويقول (البيريس) ان تاريخ الرواية الحديثة هو تاريخ اطراح الحياء، ذلك أن الفنون الأخرى تسمو، بأخفى خفايا الضمير الفردي أو الجماعي على نحو رمزي أو تزييني. إلا الرواية كالتمنمة تنطوي على شيء من الجزئيات، ان القارئ دون وعي منه بهذا السحر الذي يستسلم له بمتعة يتبنى بيسر دور مصاص الدماء الذي يجعل من قراءة الروايات مادة سادية فإذا رفضنا هذه المتعة بدت الرواية باردة.

ويقول: ان الروائي الفضولي الجريء السادي، المستعد لانه يبلبل سطح الانقياد الإنساني الهادي لا يستطيع أن يحمل معه الى الأغوار الا

كمية قليلة من الأخلاق» هذه صورة يسيرة لهذا العالم المواجه الخطير الذي تتردى فيه النفس الانسانية الغربية: إنه التطلع الشره الى مزيد من الشهوات بالخيال دون الاكتفاء بالعوالم الواقعية المفعمة بالشهوات، ثم انها ذلك النقص الخطير في النفس الانسانية الذي يجعلها تحرص على متابعة عالم من الوهم وهي تعلم أنه ليس إلا زيفا صنعه كاتب ما، مهما كان مدى صلة ذلك بمشابهة واقع الحياة.

(3)

إن مفهوم هذا العالم المواجه: عالم الفن والقصة ليس الا البديل الخطير للواقع الغربي المعقد. إنه تلك الجرعة المخدرة المسمومة للتعويض عن مآسي الصراع النفسي وأزمات القلق والازدواجية، حين عجزت المجتمعات الغربية ان تجد من ايدلوجياتها ما يعالج واقعها المرير جنحت الى هذه الجرعات من الوهم والخيال.

إن هذه النزعة الخطيرة في معارضة عالم الواقع بعالم وهمي يقوم على أساس اللذات الجنسية وقضاء الوطر، وتحقيق الذات بالوهم لا يقدم أكثر من جرعة سريعة، يتكشف بعدها الوهم وتعود النفس مرة أخرى إلى عالمها الواقعي المنحرف، دون أن تتمكن من تغيير شيء منه، سوى ما أضافته هذه الجرعة من مزيد من التوتر. ومن هنا صدق تصوير الناقد الغربي (البيريس) من أن القصة مرض؛ فهو بالحق مرض ذهني ونفسي «وأخطر ما في هذا المرض أنه يقدم للمحرومين العاجزين تعويضا خياليا وهميا عن جميع حاجاتهم الرئيسية فيقتل فيهم الحافز القوي ويميت فيهم الضمير الحي ويضللهم في مقاييس العقل ويرفع عنهم تكاليف الحياة»[1].

وفي الغرب حيث تسيطر الرأسمالية بنفوذها وسلطانها ترى ان القصة من أسباب التعويض الوهمي، للجماعات التي تعاني واقعها المضطرب

(1) صادق الحكيم: مجلة الأنصار.

الملازم، وان روح القصة الغربية ليكشف تلك القسوة البالغة وغلظة القلب، حيث يتمثل في روايتها الكبرى البؤساء لفيكتور هيجو، ودافيد كوبر فيلد لتشارلز دكنز والنور يضيء الظلام لتولتسوي: والجوع لكنوت هافرن، صور هذا المجتمع الصاخب المليء بالظلم والقسوة: يسرق رغيفا ليعيش، غلظة القلب، قساوة زوج الأم، ظلم الأغنياء، احتمال فوق الطاقة من الجوع، الخلل العقلي الذي يتولد من الجوع المزمن! الخ .

فضلا عن تمجيد الأبطال الخرافيين، ذلك ان «القصة بطبيعة التكلف في اختلاقها واتجاهها تعمل على تعقيد البسيط وتخفيف وطأة الواقع، والايهام بوجود ما ليس موجودا ، هذه القصة لا يستطيع أن تعيش لحظة تحت شمس الصحراء الغربية ، انها بمثابة حقل من حقول الألغام في طريق الأدب العام، وهي نوع من الاستهتار العقلي يبعثه الروائيون في نفوس الجماهير السهلة الانقياد في قال منمق، يعطي فكرة إن الحياة لهو وغرور.

وهي إلى ذلك «قربت الى الأذهان فكرة الاستهانة والتغلغل في السقوط الأدبي والتمست للمستهترين والمتحللين أعذارا.

«وليس هناك قصة واحدة إلا وهي صورة المجتمع شقي محروم، حتى الصور التي تبدو فيها المرح والتمجيد للأبطال الخرافيين»[1].

ولا ريب أن الازدواج الفكري والعقائدي الغربي، والتضارب والصراع بين العقيدة التي تقوم على التقبل الكامل من الوجدان دون تدخل العقل.

والفكر الذي يقوم على أساس عقلي دون تقبل الوجدان، وهي الظاهرة التي يحياها الفكر الغربي منذ قديم، هي مصدر هذا التيار الغريب الذي خلق عالما مواجها بحيث يسمح للانسان الغربي بتلك الثنائية المنفصلة المتصارعة بين العقل والقلب؛ بين الدين والعلم؛ بين الإيمان والإلحاد. ولا

(1) نفس المصدر.

ريب أن قيام الفكر الغربي أساسا على مبدأ الفصل بين القيم فصلا تاما، هو من العوامل الأساسية لهذه الظاهرة الخطيرة التي يرد إليها أساسا كل نتائج أزمة الانسان المعاصر وأزمة الحضارة والمجتمع المعاصر.

ولما كانت العقيدة الغربية هي مزيج «جسور» على حد تعبير المؤرخ ارنولد توينبي من وثنية الإغريق، وقانون الرومان، ومفهوم المسيحية في تفسيرها الذي يقوم على (التثليث والخطيئة والفداء). فإن العقل البشري منذ عصر النهضة أخذ يراجع هذا المفهوم ويعرض عنه، ويقيم بديلا جديدا معارضا تمام المعارضة له يقوم في أساسه على افتراس إرادة الانسان الواحدة التي لا تعلوها إرادة ومعارضة إرادة الله الشاملة الحقيقية. ومن هنا نشأ ذلك الصراع الذي استبطن في النفس مفهوما موثوقا، واستظهر مفهوما ماديا وثنيا عقليا أحيا به الهلينية القديمة.

وجاء هذا العالم المواجه من الفن والقصة لتبرير ذلك التحول وإقراره وتجديده وتكراره في النفس البشرية مرة بعد مرة، وأصبح هذا العالم هو المرجع الذي يعالج الغربيون عن طريقه مشاكلهم ويعرضون واقعهم.

ولذلك فقد تركز هذا العالم على مفاهيم العشق والحقد والاغتصاب والشهوة والإباحة بوصفها المواد التي يتشكل منها هذا البناء: بناء القصة والمسرحية والدراما والمأساة (التراجيديا).

ولذلك فإن الأديب الألماني واسرمان يقول (ما دام العنصر الشهواني خفيا فلا وسيلة لتأليف القصة) ويقول محمد عبد الله عنان «إن المجتمع الانساني متى بقي تطوره وتقدمه محصورا في المبادئ الإسلامية أو في التقاليد التي كانت أثرا لهذه المبادئ فلن يجد كتاب القصص يوما مادة واسعة أو غريزة كالتي يقدمها المجتمع الغربي إلى كتاب الغرب، أو أن يغدو الأثر الذي يفسحه للمرأة ذات يوم وحيا للفن أو للخيال».

ومن هنا تبدو «خصيصة» المجتمع الغربي لهذا الفن، ولهذا العالم الآخر، ويبدو مدى اختلاف المزاج النفسي بين المسلمين والغربيين في هذا

المجال، حيث يقوم الفكر والمزاج الإسلاميين على أساس الواقع ومن خلال الحقائق، ويجري التحرك كله داخل إطار العالم البشري الواقعي، دون حاجة الى الهروب منه.

«وليس من اللذة العقلية عند المسلمين أن يقرأوا القصص شروحا مفصلة تجريدية لحياة أهل الخلاعة وما يصنعه البغايا في خلواتهم فهذه لذات مرضى النفوس من ذوي العقد الجنسية[1].

والفكر الإسلامي لا يواجه مثل هذه الأزمات والقضايا والمشاكل التي تعرضها القصة أو يعرضها الفن الغربي، حيث يكفل التكامل بين القيم والتوازن بين النفس والروح من خلال عقيدة محكمة جامعة تقوم على التوحيد الخالص وتربط الانسان بربه برباط العبودية وتجعل إرادته الحرة المنطلقة تتحرك من داخل إرادة الله، إذن ليس في هذا المجتمع أو هذا الفكر ما يجعله في حاجة الى خلق هذا العالم المقابل للتعويض أو للهروب.

وحين قدم الإسلام للمسلمين القصة قدم لهم الصدق، وفي مختلف الصور التي رسمها القرآن، نجد الحقيقة الأصيلة، في أسلوب مجمل، حكيم، يستهدف العبرة ولا يعني بالتفاصيل لذاتها وبعيدا عن الخرافة والأسطورة والأهواء، ومفهوم القصة في اللغة العربية هو الإخبار بالواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة، قد عنى القرآن الواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة الناصعة «**إن هذا لهو القصص الحق**» **لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الألباب**»، «**نحن نقص عليك أحسن القصص**».

أما القصة بمفهوم الهلينية الممتد الى الأدب الغربي الحديث على نحو (تأليف الحكايات وتلفيق الوقائع أو اصطناع الأخبار المكذوبة التي يلفظها الكبت والظلم. فتسعى سعيها لاخفاء عارها وكذبها) فإن ذلك مما ترفضه العقلية العربية الإسلامية وتشيح بوجهها عنه وتنكره لانه وهم وهي تعيش في الواقع، ولانه تعويض لحرمان لا يوجد في أفق الإسلام ، فالمسلمون يواجهون الحياة مواجهة صريحة واضحة، ويقبلونها على أسسها الصحيحة

(1) مجلة الأنصار 1940.

ويمارسونها على نحو صريح متكامل فقد أعطاهم الإسلام الاعتراف بالرغبات ودعا الى تحقيقها ووضع لها الضوابط والأطر الصالحة لذلك، دون اسراف ودون امتناع، وربط بين الرغبات المادية والأشواق الروحية.

ولم يجعل لعبادة الجسد، أو للاسراف في اللذات، أو في استباحة الحلائل، أو الخمر، أو الخنا ضرورة، بل أنه أقام مجتمعه على أساس الفصل بين الرجل والمرأة، وبذلك حمى النفس الإنسانية من الصراع والتضارب والازدواجية المصروعة التي تحاول أن تجد تعويضها في عالم آخر وهمي، هو عالم الفن والقصة.

وبذلك حمى الإسلام العقل والنفس من هذه الدوامة التي لا تشبع ولا تنتهي، والتي لا تكتفي بالواقع الإباحي، بل تنشده أيضا في عالم الخيال.

والإسلام بواقعه وفكره وشريعته يحول دون الانشطار ودون قيام عالم الوهم، ويحول دون وجود الحرمان الحسي أو المادي الذي تعوض عنه القصة فإن افساحه السبيل الى تحقيق الرغبات الحسية بالزواج، وإقامة نظام الزكاة الذي يحقق العطاء لكل حي، دون تخلف محروم واحد؛ من شأنه أن يقضي أساسا على هذا التراوج ويحول دون قيام العالم المواجه.

ولا يوجد في مجتمع الإسلام مثل هذه النماذج التي تراها في القصة الغربية.

لا يوجد مثلا (دافيد كوبر فيلد) الطفل الذي مات أبوه فتزوجت أمه من رجل غليظ القلب على نحو لقي معه الطفل العنت نتيجة وحشية هذا الزوج، ثم ماتت أمه فلم يبق له الا أن يعتمد على نفسه فلجأ الى العمل صغيرا ولقي القسوة في معاملة الناس حتى اللصوص لم يشفقوا على طفولته فسرقوا ملابسه ونقوده».

هذه الصورة لا توجد في المجتمع الإسلامي: فالرحمة تحل في أي مكان ولا يمكن أن تتجمع القسوة بهذه الصورة في كل مكان ما إلا في

المجتمع الغربي الذي يتميز بطابع «نيتشة» في قتل المحرومين، وتدمير الفقراء ، والقضاء على المحتاجين.

أما المجتمع الإسلامي في نهجه الإسلامي الرباني فانه يجعل لهؤلاء عالما كريما ويقرر لهم نصيبا مفروضا ، ليس هو صدقة ولا هو منحة، ولكنه حق معلوم.

والنفس العربية الإسلامية مفطورة على الرحمة والاحسان ولذلك فان عشرات من هذه القصص لا يمكن أن تمثل إلا مجتمعها نفسه، بما فطر عليه من قسوة وعنف.

كذلك فإن الصورة الأخرى التي يمثلها القصة؛ صورة الإباحة الصارخة، والخلاعة والتزوج البالغين، التي تتمثل في قصص تابيس ومانون ليسكو وغيرهما.

هذه الصور لا يوجد لها مدخل الى النفس العربية الإسلامية التي تقوم فطرتها على أساس العفاف وكرامة العرض، وسلامة الصلة بين الرجل والمرأة، فضلا عن الحب الكريم، والرفقة النبيلة، وهذا ما أشار اليه الباحثون الذين كانوا يستبطئون ظهور القصة في العربية، عندما أشاروا الى أن قيم الإسلام ومبادئه وتقاليده لا تمكن القصة (التي هي في طابعها تقوم على أهواء العشق ، وفي عقدتها على تدمير العرض) من الظهور ، أما القصة التي ظهرت اليوم فهي لا تمثل مفهوم الإسلام ولا مجتمع الإسلام.

ولكنها تمثل مجتمعا مقهورا في ظل مفاهيم وقيم وأوضاع فرضت عليه فرضا نتيجة تخليه عن مفهوم الإسلام وسيطرة القوى الخارجية عليه.

كذلك فان ما تقدمه القصة أو الفن من محاكاة للطبيعة أو لخلق الله، أو معارضة أو جنوح إلى الالحاد أو الزيغ في العقيدة فإن ذلك كله بطبيعته يعارض الفطرة الإسلامية ولا يجد فيها صدى.

ولقد يكون من حق الغربيين أن يقيموا عالما مواجها لعالمهم الحقيقي، يتخذونه أسلوبا من أساليب حل قضاياهم ومعضلاتهم، لانهم في الأساس ليس لديهم منهج رباني في شؤون المجتمعات وعلاقات الأفراد

والناس، أما المسلمون فليسوا في حاجة إلى مثل هذا العالم المواجه لأنهم يجدون في منهجهم كل ما يكفل لهم السلامة والأمن ويحول بينهم وبين التمزق والشك.

وإذا كان هذا العالم قد قام على الأساطير الوثنية القديمة و... ـها ليجعل منها وسيلة الى الوصول الى فروض في مجال النفس (كما فعل فرويد) أو في مجال الوجودية (كما فعل سارتر) فإن ذلك كله من شأنه أن يؤكد ظاهرة الهروب من الواقع الحي المعاش؛ وان اصطناع الدعوات الهدامة والمذاهب المختلفة للقصة كأسلوب لاقناع الناس بها، لن يزيدنا نحن المسلمين والعرب إلا ثقة بأن العالم المواجه هو عالم الوهم الزائف الذي يحاول أن يرد الناس الى حياة الإباحة الجاهلية القديمة، حيث لم يكن للعرض قيمة ولا للأخلاق التزام.

وحيث تبدو الحياة وكأنها سوق من أسواق الرقيق والبغاء وحيث نرى القصة تنبعث من نظرة الحيوان المجنون، المتهافت على الأجساد والطعام المتدافع الى الفجور والاثم.

ولا ريب ان القصة الغربية اليوم انما تدفع الى تحقيق نفس الأهداف التي عملت لها مذاهب العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق، أو هي التطبيق العملي لمذهب التحليل الفرويدي والتفسير المادي ونظريات نسبية الأخلاق والتحلل، مجازة في صورة الواقع، لتحقق الهدف الكبير الضخم الذي تسعى اليه اليهودية التلمودية من تحطيم الأسرة وتدمير المجتمعات ونشر الإباحية وانكار البعث والجزاء وطي العقول والنفوس في عوالم وهمية خادعة للسيطرة عليها وإذلالها وسحق كرامتها وإيمانها وهدم عقائدها.



الفصل السادس

الانسان والمسرح

إن موقف الانسان المسلم من المسرح هو موقفه من عالم غريب قد يجد من الطريف أن يراه ولكنه لا يقتنع به ولا يحس بأنه يغطي حاجة من نفسه أو مطمحا من فكره، ذلك لان الإنسان المسلم بطبيعته يجد ما ينقصه دون حاجة الى ما يقدمه له المسرح، إذا كان من شأن المسرح أن يقدم للانسان الغربي تفسيرا للكون أو للعقيدة أو تعويضا عن نقص أو حرمان في مجال الحياة الاجتماعية أو النفسية.

والانسان المسلم بطبيعته من واقع اللغة العربية والقرآن ينظر الى الكليات ولا يميل الى التفاصيل الدقيقة، ولا يجد نفسه في صراع مع الآلهة أو القدر، والطبيعة العربية واضحة صريحة مشرقة، والكلمة فيها صريحة غير مبهمة فهو ليس في حاجة الى الرمز والإيماء أو الكلمة ذات الظلال أو المواربة.

لقد نشأ الإسلام عند المسلمين والعرب على فهم واضح صريح للعلاقات كلها بين الإنسان والله والإنسان والكون والإنسان والمجتمع والإنسان والحياة. فهم على فهم سوي صريح في هذه المواقف كلها. وليس في حاجة الى أن يبحث عن تفسير لها يستمده من المسرح أو من الرواية هو ليس على صراع مع هذه القوى جميعا، بل هو على لقاء معها وتكامل. ومن هنا فالأمر واضح في الخلاف بين موقف المسلمين من المسرح وموقف غير المسلمين.

يقول الدكتور محمد مندور في هذا الشأن: العقلية اليونانية قد تميزت بشيء خطير هو الولع بالإنسان والإيمان به واتخاذه محورا للحياة كلها بل وللالهة نفسها.

حيث سميت الثقافة الإغريقية ولا تزال تسمى بحق بالانسانيات وتتفرع عن هذه الحقيقة العامة حقيقة عامة أخرى تتعلق بتصور الاغريقي القديم لآلهته على شكل الانسان وأثر ذلك في مجمل العقيدة الدينية عند الاغريق . كالإله الاغريقي كائن له كافة خصائص الانسان وما فيه من فضائل ورذائل، وعواطف ومشاعر، ونزعات خير وشر؛ حتى لتراهم يقصون عنه أغرب القصص، أما معظم الشرقيين، ومنهم العرب فقد تصوروا الهتهم كقوى خارجة عن مجال الحياة الانسانية مسيطرة على تلك الحياة، ولذلك لم تتصف هذه الآلهة بصفة الانسان الذي تتجمع فيه المتناقضات وتتصارع الفضائل والرذائل وتتعدد المغامرات، ولم يشتبك البشر مع الالهة كما يشتبك الاثنان على نحو ما حدث عند اليونان».

ويعني هذا تماما ان هذه الأمة التي نشأت فيها الأديان ونزلت رسالات السماء منذ ابراهيم عليه السلام الى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، ومرورا بموسى وعيسى، عليهما السلام لها مفهوم في العقائد يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم اليونان. ولقد انتقل الغرب بعد ذلك الى المسيحية ولكنه ظل محتفظا بقيمه الثقافية والفكرية وأدخلها الى عقيدته الجديدة وصهرها فيها ومن ثم نشأت التراجيديا في الأدب الغربي امتدادا للأدب اليوناني وحملت مفهومه للمأساة والموت والبطولة لأنها لم تفصل مفهوم الألوهية عن مفهوم البشرية، كما يفصل بينهما المسلمون.

ولذلك ظلت مفاهيم آلهة الإغريق وإنصاف الالهة والأبطال وعبادة الأبطال قريبة جدا الى مفهوم التجسد والربط بين البشرية والألوهية في تفسيرات المسيحية.

ومن هنا فقد تجاور المسلمون التراجيديا والقصة والمسرحية اليونانية تماما ابان ترجمة العلوم في القرن الرابع الهجري مؤمنين بأنه لا تتصل

بمزاجهم النفسي ولا تتفق مع مفهومهم في التوحيد . فلما فرضت عليهم بالترجمة بعد الاحتلال وحين أصبحت تصاريف أمور الترجمة لا تصدر عن إرادة حرة، وقف العرب والمسلمون منها موقف الوجوم فلم يستجيبوا اليها لأنها لم تمس أعماق أنفسهم، ولم تتصل بروحهم أو مزاجهم من قريب أن من بعيد.

وقال أحد النقاد في مواجهة بعض مترجمات الأساطير الاغريقية: ان الصعوبة الأساسية ليست في الحاجة الى الفهم، فالفهم قد يكون ممكنا بالشرح على نحو من الأنحاء، ولكن الصعوبة الحقيقية كامنة في الشعور بها في أعماق الضمير. ان الأسطورة تنبع من ضمير الشعب لا من رأسه، لهذا لم يكن ممكنا أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الاغريقية الممتدة من هذه الأساطير» ذلك ان الميثولوجيا الاغريقية مختلفة في طبيعتها عن مفهوم العقيدة الإسلامية «الآلهة في الميثولوجيا الاغريقية تدفعها حيوية عارمة الى كل تصرفاتها، حيوية لا تعرف العدل والحق والخلق والضمير لانها حيوية عارمة الى كل تصرفاتها ، حيوية لا تعرف العدل والحق والخلق والضمير لانها حيوية غائلة شهوانية باطشة، فليس لديها ما يمنع من صب كل هذه اللعنة على (أوديب) لمجرد شهوة حقد من (انولون) كذلك صنعت مع هرقل، كذلك صنعت مع (بروميثوس) وغيرها.

والإسلام ينبذ نهائيا فكرة الشهوة والظلم عن ذات الله، ولذلك فان فكرة القدر في الإسلام لا تتفق مع الفكرة الإغريقية[1]».

° ° °

ولقد أبان الباحثون بإيضاح شديد كيف ان الانسان العربي المسلم بحكم وحدانيته التي لا تؤمن بالأوثان والأصنام والتي تؤمن بالله وحده «لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر الالهة على نحو ما كان يتصوره اليونان الذين يؤمنون بأن الحرب من القدر وان كان آخرتها الهزيمة المؤسية فانها

---

(1) من بحث لكاتب مسلم سنة 1949 الرسالة.

حرب تدل على التجبر» والصراع بين الآلهة لا يفهم أصلا مع التوحيد، وصراع الانسان مع الطبيعة الصخرية الجبلية.

كذلك يميل العربي المسلم الى الوضوح، بين الألوان، وذلك يرجع الى بيئته وطبيعة اقامته الواسعة الفسيحة التي تشرق فيها الشمس، غير الطبيعة في الغرب المليئة بالضباب والغمام مما ينعكس على التعبير.

ويشير الى هذا زكي طليمات حين يقول: ان الإسلام هو دين التوحيد فلا بدع ان يناهض الوثنية التي تعدد الأرباب، فلا غرابة في أن يعمل على محو آثارها المادية المجسمة واستئصال جذورها المعنوية في نفوس العرب ذلك ان العقيدة الاسلامية في وقفتها الأولى لمحاربة الوثنية أحدثت في الفنون التشكيلية حدثا ليس له مثيل، اذ حولت مواضع الالهام فيها من الطبيعة وصرها الى الذهن وأخيلته.

وسبب آخر: ذلك أن العقيدة الاسلامية على وضوح أركانها وجلاء تعاليمها ومنطق أحكامها، عقيدة لا يشوبها لبس ولا غموض يتطلبان تحايلا في التفسير فالوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتمل الشك، ليس هناك أرباب ولا انصاف أرباب، كما هي الحال في الوثنية، كذلك لا توجد عقدة يتعذر فهمها اذ لا يوجد اب ولا ابن ولا روح قدس، كما هي الحال في العقيدة المسيحية، وشعائر الإسلام تقوم على بساطة وتقشف فليست في حاجة الى عازف يعزف على آلة موسيقية أو ينشد نداءات كهنوتية».

(2)

إن الذين تناولوا بالبحث الفوارق العميقة بين مفهوم الاسلام ومفهوم الفكر الغربي تجاه المسرح يبلورون القضية في أن المسرح – استمدادا من الفكر الغربي وعقائده ومفاهيمه ومواريثه اليونانية – يقوم على مفهوم الصراع الذي هو طبيعة العلاقة بين الانسان والقوى التي يتصل بها.

وهو صراع ذو أربع شعب:

صراع مه الارادة الالهية، وصراع مع المجموعة والكيان الاجتماعي، وصراع مع القدر وصراع داخلي مع ذات الانسان[1].

على هذا الصراع في اتجاهاته المختلفة التي يكون الانسان محورها يقوم المسرح وتقوم المأساة ويقوم العالم المواجه الخطير الذي يخضع له الانسان ويلجأ اليه هربا من عالم الواقع.

ويتساءل الدكتور محمد عزيزه في بحثه عن الاسلام والمسرح: هل يستطيع المسلم حسب حضارته ودينه أن يحيا في واحد من هذه الصراعات الأربع، وأن يضع حريته الشخصية امام إرادة الله أو أمام الكيان الاجتماعي لمدينته أو يواجه بها منطق التاريخ والقدر أو أن يكتشف أخيرا في أعماق انسانا آخر يصارعه.

هذا هو السؤال الذي يوجهه الدكتور عزيزه ويجيب عليه:

«ما دام الانسان يكتشف نفسه ندا للالهة كما في التراجيديا اليونانية أو على الأقل يشكل نفسه شخصية مستقلة تحيا وحدها تجاهه، فاننا أمام إرادتين: إرادة هذا الانسان وإرادة الله؛ وبالنسبة للدين الاسلامي فإن هذه الثنائية غير موجودة فحسب، بل أنها غير متصورة على الاطلاق.

ويستشهد الباحث بما أورده لويس ماسينون من أنه «ليس هناك دراما في الاسلام، لان الدراما كما يعرفها التفكير الأوروبي الشائع تدور في قلب الانسان، إنها دراما حريتهم ولكن هذه الحرية بالنسبة للمسلمين مشروطة بالإرادة الالهية وبالنسبة للمسلمين فان الله تبارك وتعالى هو مصدر وأساس كل شيء، كل شيء يخرج منه وكل شيء يعود اليه. إنه ينبوع كافة الأشياء» ويستهين على ذلك بقول ابن طفيل (وكل موجود لا يوجد إلا بإرادة الخالق).

ويقول بأن وعينا نفسه بما هو موجود لا يمكن أن يتم إلا بإرادة الهية، وتجاه القدرة الإلهية المطلقة فإن تصرف الانسان يتقلص الى أدنى

(1) عن بحث للدكتور محمد عزيزه عن المسرح.

درجاته. إن إرادة الانسان هي جزء من إرادة الله الشاملة، ومن هذه الزاوية لا يمكننا تصور نشوء صراع يتواجه فيه (الانسان مع الله).

ـ وبما أن إرادة الانسان هي جزء من إرادة الله وما دامت كذلك فلا يمكن إذن أن تنفصل عنها وبالتالي أن تواجهها. وهذا ما يخلق التوافق ويحول دون القلق والتمزق. ويستشهد الدكتور عزيزة بقول لويس جارديه الذي يقول أن هذا العراك بين الانسان وقدره الذي يجده كتاب المسرح اليوناني لا يتناسب مع مفهوم الحياة ولا مع العلاقات التي تربط الانسان بخالقه في المجتمعات الاسلامية.

ويصل الى هذا المعنى (جوستاف فوق جرونيوم) حين يقول: إن الإسلام (السني) لم ينجح في خلق فن مسرحي رغم معرفته بالثقافة اليونانية والهندية وهذا لا يعود الى سبب تاريخي بقدر ما يعود الى مفهوم الانسان في الإسلام.

(وهو مفهوم يمنع وقوع أي صراع درامي).

وكذلك قول بروميثوس: في أفق الفكر الاسلامي لم يتصور قيام صراع بين الانسان والارادة الألهية.

ومن هنا فإن (قصة بروميثوس) لا تمثل الفكر الإسلامي:

وكذلك بالنسبة لصراع الانسان مع مجتمعه يؤكد الدكتور عزيزة استحالة ذلك (لان الإسلام دين ودنيا وأنه قد نظم الأمور الدينية وقواعد الحياة بالنسبة لكل فرد وبالنسبة للمجموعة كلها ـ كما يلاحظ (لويس جارديه) ـ في كتابة المدنية الإسلامية. فالمدنية الإسلامية (التقليدية) بكل ما فيها من طقوس عائلية واجتماعية وسياسية ودينية تنظمها التعاليم الجماعية والأمة الإسلامية تعيش في تشريع قانون إرادة وسنة لها الله، هي تؤكد عن طريق الممارسة الاجتماعية عقلية موحدة اجتماعية.

ومن هنا (ثورة انتجونا) لا تمثل المجتمع الإسلامي:

«عكس هذا في المدنية الإسلامية حيث نجد الرغبة لتحقيق الوحدة الجماعية شديدة العمق ، وحتى نرى تنفيذها عضويا تاما وأساسيا.

ويقول دكتور عزيزة بالنسبة للنقطة الثالثة: إن صراع الانسان مع القدر أي مع التاريخي الدرامي شيء يصعب تصوره أيضا في إطار الاسلام (التقليدي)[1].

وبالنسبة للإسلام فالتاريخ ليس دراميا وإنما دوريا **فهناك** أولا منذ زمن بعيد عقد الله فيه ميثاقا مع المؤمنين. **(ألست بربكم قالوا بلى)**.

ويقول هنري كوريان. إن الفكر التاريخي للإسلام يتحرك حركتين متعادلتين: المبدأ والمعاد). والمكتوب في العالم الإسلامي يجب أن نراه من منظار حتمية متفائلة للتاريخ، كل ما يحدث مكتوب ومقدر. هذا المكتوب لم يكتب الا بسبب عادل، مهما كانت الأحداث تبدو لنا من الوهلة الأولى مخالفة للمصالح العامة، فإن الفكر الإسلامي لا يشك لحظة واحدة في تخطيط الله السري الذي لا يمكن أن يؤدي الا إلى الخير. ولو بعد زمن طويل، ويصل الدكتور عزيزة الى النتيجة. «وهكذا ملأ الفكر التقليدي التاريخ بتفسيرات تعود كلها الى حتمية متفائلة تركز على انسجام نظام العالم وتجعل الانسان المسلم يتحرك فيه بعيدا عن التناقضات والصراع.

ويرد المسلم مفهوم الصراع على أساس «أن إرادة المسلم جزء من إرادة الله، لذلك لا يمكن أن يواجهها، والى الانتماء المطلق من الانسان لمجموعته، وبالتالي فان الصراعات النفسية والفردية تتجه نحو الذوبان في بوتقة التصرفات الاجتماعية»، وهكذا نصل الى جوهر القضية كلها وينكشف عمق الخلاف العميق الجذري بين مفهوم المسلمين ومفهوم الغرب للعلاقات الأربعة بين الانسان والله، وبين المجتمع والقدر، ونفسه.

---

(1) يكرر الدكتور عزيزه عبارة الإسلام التقليدي ويفصل بينها وبين الفكر الإسلامي الحديث ونحن ندهش لهذا ونرى ان كلمة الإسلام التقليدي انما تعني (الاسلام العقائدي) الذي ليس هو الواقع التاريخي الممتد الذي اختلف مع أصول الاسلام ودعائمه وهذا الإسلام العقائدي سيظل ثابتا على مدى الدهور.

ولا ريب أن كل ما يتطور اليه الاتجاه الدرامي والمأساوي أو التراجيدي الآن إنما يصدر عن هذا المفهوم وقد حاول توفيق الحكيم الذي عمد الى نقل هذه المفاهيم من الصراع الى الأدب العربي عن طريق أهل الكهف وشهرزاد وغيرها حاول أن يفهم أخيرا هذا المعنى حين قال:

«وعيب أوروبا في هذا العصر أنها توهمت أن الانسان حر بلا حدود، ولم تعبأ بالقوى الالهية . والأدب الأوروبي في هذا العصر لا يريد أن يقف مع الانسان موقفا صريحا صادقا، فالباس الانسان على هذه الصورة ثوبا مسرحيا من قدرة وحرية لا حد لها، ووضع هالة الألوهية هكذا فوق رأسه تبرق بأشعتها الصناعية؛ كل هذا الخداع شأن أي خداع مهما يكن فان له من العواقب ما يهدد بصيرة الانسان».

وقد أشار بعض الباحثين الى ما ذكره الناقد التونسي جورج البير آستر في مقام له عن مسرح توفيق الحكيم: أن الدراما الحقة والتراجيديا على وجه الخصوص تبدو على جانب من التعارض مع روح العقيدة الاسلامية . ذلك أنها تقتضي وجود مبدأ ثوري على نحو من الأنحاء، كما أنها تبتعد عن العقيدة الدينية بعدا ما.

ويؤكد هذا الناقد على أن التراجيديا الحقة لا تزدهر الا حين توضع المقدسات نفهسا موضع الشك»[1] وهذا ما يتعارض مع مفهوم الاسلام في جملته، وما يزال الانسان الغربي يخوض صراعا مع آلهته ومجتمعه وقدره ونفسه، لا يتوقف حتى يتحطم» وما تزال التراجيديا تقوم في أساسها على هذا المفهوم لا تريم، أما الانسان المسلم فله موقفه من الله (لا من الآلهة لأنه لا يؤمن بآلهة معا) وموقفه هو موقف الايمان الكامل والثقة المطلقة بأنها الحق والخير والعمل في نطاق إرادته الخاصة على النحو الذي اعتنقه وهو أنه صاحب رسالة في الحياة من أجل العمران والبناء ومعارض الشر وباذل للنفس قائم على التضحية بها في سبيل اعلاء كلمة الله.

ولقد تحاول المسرحية وأصحابها أن تعمل على استكشاف الانسان

---

(1) مجلة الاداب (يوليو 1957).

لنفسه وسط خضم الحياة الهائل، وهي مغامرة محفوفة بالمخاطر ولن تستطيع أن تصل الى شيء . لانها لا تحمل معها إثارة من نور الله الذي أمد به الانسان عن طريق الوحي ورسالات السماء ودينه الحق وكتابه الخاتم.

ولا ريب أن الإنسان الغربي مضلل أشد الضلال حين يرى أنه قد انتزع لنفسه الحرية في أن يريد وأن يصنع دون أن يجعل لإرادة علوية الحق في أن تشل يده ثم هو يرى أن ذلك كله زيف وان اختباره محدود. وان إرادة الله محيطة به. ويتحقق بذلك ان ما وصل اليه الانسان المسلم كان خيرا في ذاته. وكان مصدرا للطمأنينة والسكينة والثقة. وكان عاملا هاما في الطريق الصحيح.

(3)

ان أخطر ما تمثله التراجيديا أو المأسأ من مثل هي تقديس الفرد وعبادة الانسان ووضع البطل بإزاء الآلهة أو القدر. وهذا مفهوم تجري المحاولات لعرضه على أفق الفكر الاسلامي والأدب العربي مع التعارض الشديد والاختلاف العميق عن مفهوم الاسلام للإيمان بالله والاقتناع بالقدر قوة دافعة.

حيث لا يوجد في مفهوم الإسلام:

أولا : عقيدة الخطيئة.

ثانيا : معارضة القدر أو النظر اليه نظرة عدائية كمصدر لتمزيق الانسان.

ثالثا : حيث لا تقدس الأشخاص ولا يؤله الأبطال:

لقد حرر الإسلام الروح الانسانية من هذه المفاهيم الوثنية الجاهلية. بل لقد دحض الاسلام نظرية الخطيئة التي حاولت الأساطير أن تربطها ببعض الأديان أو بعض الأنبياء . ذلك لأن خطيئة آدم إنما كانت خطيئة ذاتية تتعلق به وحده وقد أشار القرآن الى هذا المعنى في إفاضة ووضوح

وقرر أن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وأنه لا تزروا وازرة أخرى وأنه لا صلة مطلقا بين خطيئة آدم وبين البشرية وان الفكر الإسلامي لا يؤمن بانسحاق الانسان بل يؤمن بكرامته وسيادته تحت حكم الله ولا يقر مفهوم الصراع الذي ينتهي بضياع البطل.

وقد أشار الدكتور شكري عياد الى هذا المعنى حين قال: نرى أن هناك أسبابا أساسية في نظرتنا الى الحياة تجعل شخصية البطل التراجيدي كما يعرفها الأدب التمثيلي الغربي بعيدة عن احساسنا الأصيل بحيث أننا قد نستمتع بمشاهدتها ولكن لا نستطيع أن نخلقها في أدبنا خلقا».

ويبدو واضحا الخطأ في مفهوم العدالة الإلهية والظن بأنها تمزق البطل الخاطئ.

وكذلك الخطأ في فهم القدر نفسه والقول بأنه يتحكم في البشر والآلهة جميعا أو قولهم ان الناس ليسوا مجرد مجرمين أو خطاة يجب أرسالهم الى الجحيم بل هم صرعى الفكر.

والاسلام واضح في مواجهة هذه الأخطاء:

أولا: بمفهوم الرحمن الرحيم الذي يشمل الكائنات جميعا، والذي يغفر الذنوب جميعا للتائبين. وباقرار مفهوم الجزاء الذي يقوم على المسؤولية التي هي نتيجة أصيلة للإرادة الفردية أما غير ذلك مما تتواتره بعض النحل من الغاء مفهوم العقوبة الدنيوية أو الجزاء الأخروي أو اعتباره عقابا معنويا فذلك كله ليس من الإسلام في شيء.

اذن: فلا الإسلام يقدس الأبطال ويرفعهم الى مقام الألوهية أو النبوة. ولا يقر بأن خطيئته اناس مهما كانوا منسحبة على البشر جميعا، كذلك لا يقر الخطأ في فهم العدل الالهي. كما لا يقر الصراع بين البشر والآلهة لأنه ينكر وجود آلهة (لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا).

الفصل السابع

الانسان والسينما

إن أثر السينما في الانسان المعاصر أشد عمقا من أثر المسرح. ذلك أن الحدث في المسرح يقدم على الكلمة بالدرجة الأولى. انما في السينما فالوسيلة الأساسية للتعبير هي الصورة. والتعبير بالصورة ينقل المشاهد الى عالم الحياة نفسه: ذلك العالم الآخر. وبهذا تمثل السينما أقوى المراحل في بناء العالم الآخر وأشدها تأثيرا على النفس الانسانية وبها أمكن القول بأن حياة جديدة موازية للحياة البشرية الواقعية قد قامت فعلا. يقضي فيها الانسان المعاصر موقف المشاهد لا موقف المشارك في محاولة لتجاوز الزمان والمكان واختراق حدودهما وأبعادهما، ولا ريب أن ذلك له أبعد الأثر في النفس الانسانية من حيث تقبل واعتناق ما يعرض حيث يختار ويقدم ويعرض ما يشاء القائمون عليها دون أن يسألنا رأيا مسبقا أو تجعل لنا الخيار أو الاعتراض أو ابداء وجهة النظر أو الحوار.

فالمشاهد رجل صامت ليس له دور فيما يعرض أمامه وليس له رأي أو وجهة نظر، وعليه أن يتقبل كل ما يعرض عليه؛ فإذا لم يقبله تماما فانه بالقطع سيكون بالغ الأثر في أطواء النفس بما يدخل عليها من فكر ومفهوم واتجاه متمثلا في صورة الواقع والتطبيق بما يهيئ للنفس الانسانية الراغبة في تجاوز واقعها أفاقا جديدة ومن هنا خطورة السينما ومدى تأثيرها على الانسان المعاصر، من حيث أنها تحاول أن تقنعه بما يختلف مع مفاهيمه وعقائده على نحو محسوس شديد الخطر مخالف لاثر الكتاب أو الصحيفة.

وهو في نفس الوقت ليس فيه مجال للأخذ والرد والرفض والقبول.

وقد صدق أحد الباحثين حين قال: ان السينما حينما تجعلنا نرى عملية اختراق الانسان للعالم. فانها تجعلنا أيضا نحس ونرى عملية اختراق العالم للانسان».

ولما كانت السينما أداة نفسية بالدرجة الأولى علمنا الى أي حد يكون أثر ما يعرض فيها على الانسان فهي قادرة على أن تحتاج كل قيمه التي تعلمها وقرأها وآمن بها. بذلك الطراز البديل من الفكر والنظرة ووجهة النظر المغايرة.

ولما كانت السينما في أساسها منشأة اقتصادية لها قوانينها وأحكامها. ولما كانت هناك قوى خطيرة تسيطر عليها وتوجهها عرفنا الى أي مدى يكون أثرها على الانسان المعاصر وعلى المجتمعات وعلى الأطفال والشباب والفتيات.

فالجمهور خاضع خضوعا تاما للسينما. يسمع ولا يتكلم ولا ينافس. والسينما وهي وسيلة اقتصادية تريد أن تقدم ما يربح وما يروج وهي تجد ذلك أساسا في نوعين من القصة: الجريمة والجنس وفي محاولة اعطاء الانسان المعاصر ما يريد من حيث اللذة والمتعة والأهواء والرغبات فهي تقيم له عالما منهوكا محطما. هو عالم غير موجود حقيقة. ولا يمكن أن يكون موجودا في الطبيعة.

ومن هنا يتشكل ذلك الأثر الخطير الذي يغمر النفس البشرية بتقبل فكر وطابع حياة جماعة من الإباحيين الذين يتصورون الحياة كلها سوقا للرقيق ومباءة للدعارة وقد توصف هذه الأفلام بأنها ترفيهية. وقد تعالج قضايا اجتماعية خطيرة فيما يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة والرجل والخلية والزوجة وصديق العائلة على نحو مغاير للحياة نفسها وتقدم من خلال ذلك كبادئ جديدة ومصطلحات وشعارات لا تلبث أن تستشري في المجتمع الواقعي فتؤثر فيه أخطر الآثار.

ولا ريب أن السينما تستغل لحساب الدعوات والمذاهب الاجتماعية

والسياسية ولكنها تستغل أيضا لهدف أبعد من ذلك هو تطوير المجتمعات لتكون مهيئة لتحقيق المخططات التلمودية الصهيونية التي حوتها بروتوكولات صهيون.

يقول جاستون راجو من كبار الباحثين في أثر السينما في المجتمعات المعاصرة: لقد أصبح الانسان تحت رحمة مخترعاته بل عبدا لها . لتنظر لزي التغيير المدهش الذي طرأ على وجود الانسان وما صحب ذلك من آثار في النفس والعقل.

ذلك أن الآلة تحول عقل الانسان الى آلة مثلها. وفي السينما تحدق ببصرك وأنت غارق في مقعدك حيث يهبط نشاطك العقلي الى أدنى درجاته لإنك لا تكلف نفسك إلا استعمال واحدة من حواسك (وهذه أخطر حالات اليقظة) وليس هناك ما يدعو الى شيء من التفكير لان كل شيء مرئي. ولا مراء ان هذا النوع من اللهو. له تأثيره العميق ليس في أذواقنا وعاداتنا فحسب. بل في مجموع نشاطنا العقلي والفني وفي أحلامنا كذلك».

ونحن حين ننظر فلا نجد إلا تلك الصور التي تحملها أفلام الجنس الرخيصة أو أفلام الحب المريض أو أفلام المغامرات والرعب. نرى أن الحياة لم تعد إلا ذلك. ولا ريب ان كل هذه الكلمات والصور تترسب قليلا قليلا في كياننا وذاتنا وواعيتنا الخفية ويكون لها بعد ذلك أبعد الأثر في توجيه سلوكنا واختلافنا وحياتنا.

ولقد ظهرت آثار ذلك واضحة في العالم الغربي وكشفت الأبحاث عن آثار بعيدة المدى. ذلك أن السينما وهي وسيلة صالحة للتربية والتعليم والتوجيه لم تستعمل كذلك وإنما وجهت الى فرض أسلوب غريب من أساليب الفكر والحياة.

وبذلك أحدثت اثارا سيئة بعيدة المدى . ذلك أن الفيلم يبرز السلوك الأنحرافي ويؤدي الى الاضطراب في القيمة الأخلاقية بل ان البعض يذهب الى ان السينما نفسها ذات أثر مباشر للانحراف عن طريق

التقليد والمحاكاة للأفلام البوليسية والمغامرات التي تمجد الجريمة ومخالفة القانون.

وقد جرت مناقشات عديدة في الصحف الأمريكية حول التقرير العلمي [1] الذي وضعته لجنة من كبار علماء النفس والاجتماع وتعرضت فيه بالدراسة لتأثير أفلام الجنس المثير على نفسية المراهقين والأطفال بل تأثيرها على نفسية البالغين والشباب والكهول (وقد استغرق اعداد هذا التقرير ثلاثة شهور وبلغت تكاليفه مليون دولار) وقد هاجم العلماء بشدة أفلام الجنس والرعب وأعلنوا ان انتشار أفلام الجنس الفاضح والقسوة والرعب تهدد سلام النفس البشرية بل المجتمعات الحديثة.

وهم يحذرون بشدة من تأثير هذه الأفلام سواء كانت معروضة على شاشة السينما أو مقدمة على شاشة التلفزيون الصغيرة ومما يذكر أن القاضي تريفليان قد ترك منصبه كرئيس لمجلس رقابة الأفلام في لندن، وأعلن ان أفلام الرعب أخطر على المجتمع البريطاني من أفلام الحب الفاضح والجنس المثير.

ومما يذكر أن عالم العرب يجتاحه موجة خطيرة من أفلام العنف والجنس. وان هناك دور خاصة لعرض نماذج خطيرة جدا منها وان دولا كثيرة رأت مدى أثر هذا الخطر فعملت على مصادرة هذه الأفلام ويمارس بعض أساتذة الجامعات والهيئات الدينية مهمة الضغط الأدبي والأخلاقي ضد هذه الأفلام حفاظا على القيم الفكرية والروحية.

غير أن أصحاب المطامع يدفعون هذا التيار الى نهايته ويقفون وراء التبشير بضرر منعه بأساليب مضللة كاذبة كقولهم ان إباحة الأفلام الجنسية الى حد كبير يجعل الناس يتقززون منها ويكرهونها.

ولا ريب ان الباحثين الاجتماعيين والنفسيين قد أكدوا بأن هذه الأفلام حين تقدم نماذج جاهزة من السلوك المنحرف انما تعزل قطاعات

(1) جريدة الأخبار 1972/3/10.

واسعة من الشباب والمراهقين فيكون سببا في زيادة السلوك المخالف للقيم التي استقر عليها المجتمع.

أما في العالم الإسلامي المستورد لمثل هذه الأفلام كأسواق للاستهلاك، فان الأمر يحتاج الى مزيد من الدقة والحذر.

والفكر الإسلامي له منهجه وأسلوبه في معالجة القضايا الاجتماعية والنفسية وهو لا يقر هذا الأسلوب الغربي في أن ذكر المسائل وتبريرها هو وجه من وجوه حلها ولكنه يعمد أساسا الى الانسانية فيدفعها الى أصالتها ومقوماتها الأساسية ويرفع أمامها الضوابط والحدود والمسؤولية الفردية والجزاء، ولما كان المجتمع الإسلامي بطبيعته: مجتمع حياء وخلق. فان هذه الموجة التي تحاول أن تسيطر عليه من عري وكشف وإباحة والكشف عما يدور في غرف النوم، كل ذلك انما وجد دائما في غفلة من إرادة الممارسة الحقيقية للأسلوب الإسلامي الحقيقي ولا ريب ان الفكر الإسلامي يحمي المجتمع الإسلامي من عرض الشهوات والآثام ويقاوم كل الوسائل المؤدية الى كشفها أو اعلانها أو تبريرها، إيمانا منه بأن هذا العرض الذي تقدمه السينما انما يثير الرغبات الى اجراء التجربة والتطبيق مما يكون بعيد الأثر في نفوس الشباب في خلق جو الصراع أو الشعور الغامض بالانفعال.

ولا ريب ان الآثار الخطيرة التي ترتبت على هذا الأسلوب الغربي قد كشفت عن فساد هذا الأسلوب وأن المجتمع الغربي ـ وخاصة الأمريكي ـ الذي قدم للعالم أفلام الجنس «هو الذي كان أول من استقى من نارها فقد أخذت تنخر فيه الأزمات الخلقية تتوسطها الإباحية الجنسية وفقدان القيم الانسانية بممارسة الهروب من الحياة وادمان المخدرات وخاصة عقار الهلوسة والتشبه بالحيوان في الإباحة الجنسية والذهاب في الضراوة والوحشية الى ارتكاب أبشع جرائم القتل».

ولكن الغرب يتحرك الآن في هذا الاتجاه تحت تأثير ضغط عنيف تفرضه القوى التلمودية الصهيونية، من ناحية الفلسفة والفكر والمذاهب التي تبرره وتدافع عنه يوما بعد يوم وتهاجم كل من يحاول معارضته وتقضي

عليه. كما أنها هي صاحبة النفوذ الأساسي في مؤسسات السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيون ماليا وعمليا. ومن هنا كان الغرب لا ينفك ساقطا بين براثن هذا الخطر حتى يهلك. أما في عالم الإسلام فان له من قيمه ومفاهيمه ومذاهبه ما يدفع عنه هذه الموجة الخطيرة ويمكنه من التحرر منها بعد أن ثبت فشل فلسفات الإباحية والعري في بلادها. وبعد أن وصلت إليه أبناء النتائج الخطيرة لمجتمعات الرعب والتحلل في أمريكا وشمال أوروبا وغيرها.

الفصل الثامن

الانسان والفن

قدم الإسلام للفن مفهوما موازيا للفطرة الانسانية متلاقيا مع مختلف القيم التي يرتبط بها الانسان على النحو الذي يجعله متصلا بها وفق أسلوب دقيق من التوازن بحيث لا تطغى عليه الروح على المادة أو تستعلي. رغائب الجسم على أشواق الروح. وقد عارض الانسان المسلم مفهوم المحاكاة وتجميل الطبيعة على النحو الذي عرفته المذاهب البشرية الوثنية واعتبر الفن متفاعلا مع الحياة لا متقابلا معها. وعبر الفنان المسلم عن إحساسه بالطبيعة دون أن يحاول نقلها أو محاكاتها وفق أسلوب التجريد وقد جرى على قاعدة تحرير الأشكال الأدبية والحيوانية تجنبا لتقليدها تقليدا مباشرا بمثل صورتها الطبيعية وبذلك خلا الفنَ الإسلامي من الرمز ومن الميتافيزيقا.

كذلك حرص الفن الإسلامي على التحرر من الوثنية في حركاتها الواسعة متجاوزا ما يخدش الكرامة أو يعارض الأخلاق. أو يكون عاملا لإثارة الشهوة أو الجنس، في إطار ما أحاط الإسلام القيم المختلفة به من ضوابط وحدود وهو كما وصفه الباحثون (فن لا يصور اللحظة الجنسية الثائرة الفاترة التي تسلب الانسان انسانيته وقيمه). فالفنان يعبر عن الحب في إطاره الواسع ولكنه لا يثير الطاقة الغريزية الكامنة في طواياها الانسانية.

ومن هنا كان موقف الإسلام من مفهوم الفن الغربي الوافد الذي

يركز على الجوانب الإباحية والوثنية من الحياة سواء في مجال النحت أو الغناء أو الموسيقى والشعر أو القصة مستهدفا اشعال الغرائز الجنسية. وابتكار الألحان المثيرة والرقصات الخليعة وكتابة القصة المكشوفة وإتخاذ الفنون والآداب مطية للهو واللذة حيث يفهم الإسلام مهمة الأدب والفن. فهما متميزا. يرمي الى السمو الى آفاق النفس واسعاد الانسان بتحريره من أهوائه وغرائزه.

ولقد وضع الإسلام «البيان» على رأس قائمة الفنون: وكشف عن أنها أداة الفن الأصيلة للنفس البشرية. وللنفس المسلمة **(ن والقلم وما يسطرون)** وكانت معجزة الإسلام هي القرآن وهي معجزة بيان وقلم واقناع بالتعبير والمضمون.

وأبدل الإسلام الرسم من محاكاة الطبيعة الى خدمة الأدب والتعبير عن المعاني فأوجد أنواعا جديدة من الخطوط ودفع الفنان المسلم الى أساليب جديدة من فن التعبير. والفنان المسلم يعلم حق العلم ان الفن ليس تقليدا للطبيعة كما زعم أرسطو ولا هو تسلية ولهو محض. ولكنه جزء من رسالة الإيمان بالله.

ولما كان الفن في مفهوم الإسلام ليس تمثلا للواقع ولا تقليدا للطبيعة فقد كان خلقا لعلامات جديدة من عناصر مستمدة من الحياة والمجتمع والطبيعة، تشكل في رؤية انسانية أو مضمونا اجتماعيا.

وقد تمثل في الفن مفهوم الإسلام للحياة: فهي حياة لها غاية واضحة للانسان فيها رسالة ومسؤولية وجزاء. هذه الرسالة «تمنح الإنسان من أن يعيش حيثما اتفق. بل ليعيش كما يجب».

كما تمثلت طبيعة المثل الأعلى المنبثق من الواقع دون أن تتخذ موقفا سلبيا وهذه النظرة السوية المتكاملة للفن في إطار الإسلام، تتعارض تماما مع مفهوم الفن الحديث في إطار الحضارة الغربية وهو فن جاء وليد أزمة الانسان أمام تحديات الحياة والحضارة[1] على النحو الذي عرفته من

(1) دكتور عفيفي بهنسي.

احتقار الطبيعة ومناهضة العلم والقانون وهدم الآثار القديمة والتحف الثمينة وحيث انعدمت الحدود بين الأشكال والقيم على النحو الذي قدمه جوجان وبيكاسو.

ولقد أشار الباحثون إلى أثر التحديات التي تواجه الفن المعاصر في أفق الغرب وكيف كان الطوابع القلق والتمزق أثرها في ذلك التمييز السريع غير الواضح أو المفهوم القائم على التداعي المطلق والعفوية بما يتعارض مع مفهوم الفن الأصيل الذي يرتفع بمستوى الانسان من الناحية الوجدانية والروحية.

° ° °

ويتمثل مفهوم الفن الجميل الإسلامي في مضمون نفسي واضح هو:

«كل شيء هالك إلا وجهه»

هذا هو السر النفساني الذي تقوم عليه الزخرفة الاسلامية المعروفة باسم (الأرابسك) ذلك لان المسلمين جميعا يعتقدون بأن البقاء لله وحده وان العالم بما فيه ومن فيه سائر الى الزوال. وقد انعكست هذه العقيدة في فنهم الجميل بأوضح صورة، اذ كان الفنان المسلم يرى أنه ليس من اللائق أن يخلد بفنه شيئا في هذا العالم الذي كتب الله عليه الفناء فليست به حاجة الى تخليد جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلا صحيحا ما دامت سائرة الى الزوال، لذلك كان يأخذ من عناصر الطبيعة ما يريد ثم يهذب منها ما شاءت له ميوله ومواهبه ثم يكون من هذه العناصر المهذبة زخرفة لا تمت الى الطبيعة بصلة قوامها أغصان نباتية متشابكة يتفرع بعضها من بعض وأوراق شجرة مختلفة يخرج بعضها من بعض.

وذلك وفق عقيدة مؤداها أن الثبات وعدم التغير من صفات الحق وحده دون مخلوقاته التي من شأنها التغير، وقد اتجه الفنان المسلم الى الزخرفة الهندسية فبعث فيها روحا بدت في ثوب من الجمال نشيط لم يكن

لها قبل الإسلام، وابتكر طرائق جديدة أرضى بها الفن الجميل ووقف بها عند حدود الدين.

وأشار الباحثون الغربيون أمثال (جون سكويت) وغيره الى أن الفن الإسلامي الذي جاء على أثر الفن الإغريقي والفن الساساني، عني بالدرجة الأولى بالأشكال المسطحة المزخرفة ولم يعن بالنحت المجسم وهذا هو الفارق العميق بينه وبين الفنون الوثنية فهو يصور الأشكال والنباتات والأشكال الهندسية المعقدة المتداخلة التي تعرف بالأرابيسك أكثر مما يعني بالتصاميم الصورية، كما أشار المؤرخون والباحثون في تاريخ الفن الغربي إلى ما كان للإسلام من أثر في قضية تحطيم الصور والأيقونات في الكنائس. كما أشاروا الى زحف الفن الإسلامي إلى أوروبا وإلى أثر الفن الإسلامي في كنيسة قصر روجر الثاني في صقلية وفي قبة كنيسة مونتي سانت أنجيلو الأيطالية ولا سيما في الجسور التي يرتكز عليها الفن. وفي زخرفة كنيسة سان ليوناردي دي سبينتو، فضلا عن أثر الخط الكوفي في تزيين المخطوطات الفرنسية وفي صناعة المينا، أما فن العمارة فان أعظم مكان يظهر فيه أثر الفن الاسلامي هو كنيسة القديس ميخائيل داعوتي في مدينة لوبوي.

ويرى الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق: ان المسلمون غزو بالتصوير جميع فروع الفن الإسلامي من مخطوطات وأخشاب وعمارة وزجاج ومعادن وعاج وزخرف ومنسوجات وأنهم أقاموا فه «تشريف الخط» القائم على الزخارف النباتية والهندسية فقد خلق الفنان المسلم من الحروف العربية ذات الأشكال النباتية والأوضاع المختلفة طرازا زخرفيا تبدو فيه صور الجمال والقوة».

° ° °

ويرد الباحثون (إسلامية الفن) العربي الى عمق الخصائص التي تمثلت في هذه الأمة العريقة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة بين رسالة ابراهيم الحنيفية ورسالة محمد الخاتمة ومن خلال القيم والمفاهيم التي قامت على أساس التوحيد في هذه المنطقة والذي خلق هذا المزاج النفسي الذي

يقوم على الإيمان بالله والنظر في الكون والتماس الفكر والعبرة لعظمة الخالق من خلال التأمل في خلق السموات والأرض والجبال والأزهار والثمار والأنهار كل هذا شكل طابعا إسلاميا مفردا في الفن العربي عرف بعد الإسلام.

ويقول دكتور بشير فارس ان أبرز مفاهيم الرتش العربي (الأرابسك) أنه انعتقت من الواقعية الهلينية وخلصت من الصلابة الفارسية فلا مبتدأ لها ولا منتهى وما يجوز لها أن تطمع في أحد منها لأنها تسعى وراء الله: الله الذي هو الأول والآخر، منه تبدأ الأسباب وإليه ينتهي الحساب وكذلك فان الرتش (الإسلامي) يمتد بلا نهاية ساعيا وراء الصورة المثلى مؤكدا على بساطة الوجود داعيا بإلحاح الى الله.

وأشار بشير فارس الى طابع (التعالي) في الفن الإسلامي وهو الذي يعني ارتباط الانسان بقيم مطلقة وأبدية حيث أن الله (سبحانه) هو المثل الأعلى لمفاهيم الخير والحق والجمال وإليه اتجهت قلوب المؤمنين لترتفع الى مستوى هذا المثل الأعلى عن طريق العمل الصالح.

ويشير بشير فارس الى ما ذكره ليبون وبرجسون، وحبيب، وماركو الى أن الفن العربي يحمل شخصية مستقلة متماسكة جديرة بالإعجاب.

ويرد ذلك التميز الى الإسلام. ««فالدين الاسلامي جاء على مبدأ التوحيد ولذلك فهو يرفض كل شريك لله في قدرته الخالقة وان الدين الاسلامي الذي يؤكد دائما على الفرق بين الخالق والمخلوق، وعلى أن المخلوق هو عبد غير قادر على الوصول الى مرتبة الخلق».

(2)

إن الانسان المسلم حين يقف على مفهوم الفن في الإسلام يجد عالما واضحا صريحا، قائما على أفراد الله بالوحدانية ، وانكار تعدد العوالم، وانكار قدرة الانسان على أن يخلق عالما مماثلا أو عالما أكثر جمالا كما يخيل

للنزعة الوثنية التي تقوم على معارضة الطبيعة أو الخلق بالتقليد.

ولقد قرر الإسلام وأكد التحريم القاطع للنقل المباشر عن الطبيعة. وذلك النقل الفج الذي يعيد نسخ المخلوقات الحية على سطوح الجدران والمعابد واللوحات. كذلك رفض الإسلام نظرية المحاكاة أو التقليد. «وقد جاء هذا التحريم لنقل صور الخلائق والوثنيات نقلا مباشرا ساذجا من الطبيعة الى عالم الفن دون أي قدر من التجريد أو إعادة الصياغة. في أمة على أعتاب عصر حضاري ـ كان يعني أن المسلم سيفتح أبوابا وأبوابا للتعبير عن طاقاته الفنية بما ينسجم وتصوره الجديد».

ولقد رفض الفن الإسلامي النقل المباشر من الطبيعة وفتح الطريق أمام التجريد وإعادة الصياغة.

«والفنان المسلم يحمل موقفا عادلا ومزدوجا تجاه قضية الفن والطبيعة، يحمل رفضا للنزعة الشيئية المباشرة التي عبرت عن نفسها بالمذاهب الواقعية والطبيعية لأنها تقوده الى التقليد والنسخ وتقضي على الابداع والابتكار ولانها تخضع عنق الانسان لقوى الأرض وطينها وتمنعه من التطلع الى السماء الى الآفاق البعيدة. الى ما وراء الملموس والمنظور. لانها تحيله الى آلة رصد وتسجيل وتصده عن تفجير إرادته وإبداعه لصياغة مادة الأرض وفق ما يطمح.

«كما ان هذه النزعة تقوده بالضرورة الى الاذعان لفكرة أن التخبط في الوحل والتمرغ في القمامة والركض وراء نداءات الجنس والطعام هي القضايا الأساسية وربما الوحيدة التي يجب أن يدلي الفن بدلوه فيها»[1].

° ° °

(1) من بحث ممتع للدكتور عماد الدين خليل.

ولقد حذر الفنان المسلم دائما من فكره مسيطرة في الفن الغربي: وعمل دائما على أن يتحامى خطر الاتجاه الى منافسة خلق الله أو السعي إلى ما يسمونه اكمال النقائص التي لم تكملها الآلهة، كما توهم بعض الغربيين ومن هنا فقد ارتفعت الأصوات الإسلامية دائما بتنبه الفنان المسلم الى أن يحذر أن يتجاوز طريقه المستقيم في محاولة لرفض الطبيعة، أو عدائها، أو محاولة التفوق عليها وعلى صانعها أو صواب إعجاب بها يتجاوز لحظات الاستغراق والتأمل الى الاجلال والتقديس والعبادة .

وهنا تبدو تلك المحاذير الخطيرة التي وقع ويقع فيها أصحاب التبعية الغربية في أفق الفن الإسلامي حين يظنون ان ذلك حقهم في التجاوز جريا وراء وثنية الفنان الغربي، الى نزعة التغلب على الطبيعة أو ما يسمونه التفوق عليها أو قهرها أو حتى عبادتها بالاعجاب الوثني، ذلك أنه ليس ثمة عجز يمكن أن يكمله الانسان المخلوق لله خالق الطبيعة ، فضلا عن أنه ليس هناك صراع أو كراهية أو حقد بين الانسان والطبيعة، بل تجاوب وطمأنينة الى خلق الله الذي سخره للانسان.

إن هذا الفهم الخاطئ الذي يقول بأن الطبيعة عجزت وان الانسان أكمل ما عجزت عنه . ليس من مفهوم الفكر الإسلامي «اذ ليس في تصور المسلم فعل نماني يقوم به الطبيعة في ذاتها ولذاتها كما يقولون ، اذ ليست الطبيعة بكل أشكالها سوى صور من خلق الله وقدرته الفذة المعجزة ومن ثم فان القول بأن الطبيعة قد عجزت من الكمال قد توحي بأن الطبيعة مستقلة بذاتها عن أي توجيه خلاق خارج نطاق العالم، أو ان الانسان قد يتفوق أحيانا على الآلهة التي خلقت طبيعة ناقصة لم تستطع إتمامها فجاء الانسان لكي يتممها».

تلك هي المحاذير الذي يدركها المفهوم الإسلامي للفن فيرفض عبارة أرسطو الوثنية المضللة «ان من شأن الفن أن يصنع ما عجزت الطبيعة عن تحقيقه» ويؤمن بأن صانع الطبيعة جل وعلا سبحانه عن أن تطرف عين حتى ولو بمجرد لمحة من تفاوت بل يرتد البصر خاسئا وهو حسير.

(3)

وفي فن النحت يكون موقف الإسلام واضحا صريحا الى جانب التوحيد، ومن ثم فإن نظرية الخلود التي يفترضها الفن الغربي لا تجد في تقدير المسلم ذرة من إيمان أو يقين.

وكيف تخلد أعمال الفنان في عالم كان تزول فيه الانسان والأشياء، وكيف يمكن المثال يبقى ألف عام أن يزاحم عوالم الله التي امتدت ملايين السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد كان دائما للإسلام مفهومه الواضح في معارضة تجسيد البطولة، والمسلمون لا يؤمنون بتقديس المادة ولا بتحويل مفهوم العمل الى حجر منحوت وإنما يخلد المسلمون الفكرة.

وبعق الفكر الإسلامي فطرته وجوهره وذاته ومزاجه إذا أقر فكرة الأحجار في تقدير البطولة ، فبطولة الإسلام بطولة فكر وليست بطولة تماثيل.

ولذلك يخطئ كثير من باحثينا عندما ينساقون وراء مفهوم البطولة على النحو الهليني الغربي وإنما يلتمس المسلمون من التخليد مفهوم الفكر وقيمة العمل نفسه فالبطولة قيمة من القيم الفكرية والنفسية والروحية.

وبذلك يحرر الإسلام فكره ومجتمعه من أسلوب الوثنية حين رفع الاغريق أبطالهم الى مجال التأليه وإلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة.

(4)

يقف الإسلام موقفا واضحا ازاء علاقة الفن بالأخلاق والجمال على نحو حاسم، فالأخلاقية قبل الجمالية، ويصدر الإسلام في هذا الموقف من أساس طبيعي هو مبدأ الالتزام الأخلاقي الذي يفرض طابعه على كل مقررات الفكر والحياة فضلا عن مفهوم التكامل الجامع بين القيم الذي

يحول دون أن تطغى قيمة من القيم أو تستعلي على نحو ما.

أما في الفكر الغربي فحيث يقوم طابع الانشطارية وانعزال القيم بعضها عن بعض فقد استغلت الدعوة إلى تحرير الفن من القيم الأخلاقية وسيطرة مفهوم الجمال المجرد وهو ما يفتح الطريق واسعا أمام اطلاق الجوانب الإباحية والشهوانية الى أبعد مدى.

والجمال في الفن الإسلامي ليس جمالا ماديا ولكنه جمال متكامل: يرتبط فيه الظاهر بالمضمون وليس مرتبطا لذلك بالغريزة الجنسية أو بالتحليل أو الرذيلة ولا ريب أن الفن الغربي انطلاقا من نظرته المادية الصرفة. ومفهومه القائم على أن القيم منفصلة. وأن الحياء لا هدف لها وليس فيها مسؤولية فردية أو جزاء اخروي من شأنها أن تنطلق الى غير غاية. حيث لا يوجد المثل الأعلى الواضح أو القيمة الأساسية الثابتة العليا التي ترد اليها الأمور كلها.

ولما كان مفهوم الأخلاق في الفكر الغربي هو مفهوم نسبي فإنه لا يعرف الأصول الثابتة. وإنما يجري مجرى الظواهر المتغيرة وبذلك فإنه لا يستطيع أن يواجه الفن بأحكام مقررة.

ولقد ثبت ان الفن الذي غايته الفن. إنما يرمي الى تمجيد الجسد وتعظيم الأهواء. أما الإسلام فهو يؤمن بحركة الفن داخل اطار القيم الجامع. ودون أن تؤدي حركته الى مصادمة القيم الأخلاقية الثابتة.

ومن الحق أن يقال أن شعوبا اجتاحتها الرياح السود ففقدت ذاتها لأنها أطلقت الفن من قيد الأخلاق وفي مقدمة ذلك الأمة اليونانية فإنها عندما فصلت الفن عن الدين والأخلاق تسرب اليها الانحطاط ودبت في جسمها عوامل الفناء.

ولقد ذهب الفلاسفة في دراسة علم الجمال في الغرب مذاهب شتى. كل منها يتصل بمنهج من مناهج الفكر. سواء أكان مثاليا أم ماديا أو نفسيا ام اجتماعيا.

ومضى كل باحث في طريقه. ووقف الفكر الاسلامي حين طرحت

في أفقه هذه المفاهيم موقفا مضطربا، ذلك أن القاعدة التي تقوم عليها الفكر الغربي في فهم الجمال هي قاعدة مادية صرفة، وهي تقوم على الذوق والادراك الحسي.

ومن هنا فلا سبيل لاعتناق رأي فيها، وإنما يجب نقل القضية كلها إلى أفق الاسلام نفسه والتماس مفهوم أصيل يقوم على أساس طابع أمه ومزاجها وذوقها وعقيدتها.

والنظرة الى الجمال في إطار الإسلام تقوم على أساس التوحيد وعلى أساس المفهوم الجامع للجمال حسيا وماديا وعلى جمال الطبيعة والانسان، وعلى رد الجمال إلى صانعه الأكبر وعلى الحكمة الأساسية فيه.

والجمال أداة من أدوات المعرفة والإيمان فإنه يكشف للانسان عظمة الخالق، والجمال في المفهوم الإسلامي هو جمال المضمون لا المظهر. والفن هو المصدر الأكبر للتسامي والاعلاء في جمال الغرائز والرغبات وليس هو المحرض على الإباحة والأهواء.

والمسلمون يرون أنه ليست هناك قضية اخضاع الفن للأخلاق (واخضاع الأخلاق للفن) وإنما هي قضية تحرك شامل متوازن في إطار التوحيد.

«والتصور الإسلامي للفن يبدأ من الله إلى الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته ويعني عناية خاصة بالانسان خليفة الله في الأرض ثم يعود الى الحقيقة الالهية التي صدر عنها فيكون تصورا سليما كاملا شاملا، في خشوع لله وتقوى ومراقبة لله وفيه حبه والتطلع اليه والاطمئنان الى قدره على حين تحث أوروبا على الموروث الاغريقي الذي يصور الآلهة في صراع مع البشر أو صراع فيما بينها، والإنسان في صراع مع الكون جماده ونباته وحيوانه بينما صلة الانسان المسلم بالكائنات صلة القربى والمودة والتعاطف، والتعاون في ناموس الله الأكبر. فالإنسان قبضة من طين ونفخة من روح الله غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر في

أية لحظة من اللحظات . لا هو حيوان الدارونية ولا هو ملاك الهندوكية والبوذية[1]».

ولقد يتصور الفكر الغربي تغايرا بين الفن والفطرة أو بين الفن والدين. بينما يقرر الإسلام استحالة التناقض. «فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة»:

دين الإسلام في شيء فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها. وعاقت الإنسان أن يعمل بالفضائل التي جاء الإسلام بإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح. إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة. فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق»[2].

---

(1) من كتاب الفن الإسلامي.

(2) عن بحث للدكتور محمد أحمد الغمراوي.

الباب الرابع

الانسان

وعلـم الانسـان

أولا : بناء الانسان

ثانيا : إلى أي مدى تصدق النظريات المطروحة في مجال الاجتماع والنفس والأخلاق

الفصل الأول

بناء الانسان

منذ أن انطلق العقل البشري في العصر الحديث للبحث في مجالات العلوم والمجتمعات والحضارة والطبيعة والحيوان لم يتوقف ساعة أمام الإنسان لدراسته بينما هو أعظم الكائنات والمؤهل منذ وجوده لكي تكون منجزات العلوم والحضارات في خدمته والذي سخرت له كل القوى الكونية والطبيعية لتحقيق رسالته في الأرض.

ولقد ذهبت دراسات العلوم الى كل مجال وتغلغلت في كل بحث ولكنها وقفت أمام الإنسان دون أن تفهمه. لقد عجز الانسان أن يفهم نفسه وحاول أن يفهم الحياة والكون والعلوم ثم عاد في السنوات الأخيرة ليفتح صفحة من صفحات البحث أسماها علم الإنسان وأجرى دراسات حول النفس والأخلاق والاجتماع وجرى شوطا وراء دراسات العنصرية، والأجناس البشرية وهو في كل ذلك يلتمس طريقا عسيرا ومنهجا شاقا، فلا يواجه الانسان مواجهة صريحة. ولكنه يعود ليلتمسه من خلال الأحافير الحيوانية المتحجرة، والمجتمعات البدائية المطمورة، والديانات الفتشية والطوتمية والشامانية والتابو. ومن خلال تراث قديم بائد يتمثل في الفراعنة والفينيقيين والأشوريين والبابليين ومن خلال لغات توارت واندثرت كالارامية والكلدانية والأشورية.

ثم يذهب هؤلاء الباحثون للبحث عن الانسان في الكهوف والصخور ويحاولون من هذه الملاحظات التي تتجمع لهم أن يدرسوا

الانسان. ليصلوا إلى فروض ونظريات يقيمون بها مكتشفات تصل الى كنة الانسان بينما الانسان نفسه قائم وحي ومتحرك في المجتمعات الحديثة وما تزال طبائعه وأخلاقه وقامته وشكله وحركته وكلامه لم تتغير منذ خلقه الله ولم تتطور - إلا من حيث المضمون الذي تغير مع ارتقاء البشرية وتحضرها. أما من حيث الطابع والشكل والصورة فما زال الانسان هو الانسان (**سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا. ولن تجد لسنة الله تحويلا**). ولو أردنا أن نصل الى دراسة صادقة للانسان فإن ما يقدمه لنا القرآن الكريم في هذا يكشف التطابق العجيب بين الصورة التي رسمها الإسلام للانسان منذ أربعة عشر قرنا وبين صورته الحالية. حركة وتصرفا وخلقا ومواجهة للأحداث وفطرة وهي تكشف عنه فرديا واجتماعيا ومؤمنا وضالا وطامحا وأنانيا ومنفقا وبخيلا.

وهذه هي دراسة الانسان التي تصدق مع كل المقررات العلمية. وتصدق مع كل العصور. وهي الحقائق الثابتة التي لا تخلف.

أما أساليب علم الأنثروبولوجيا فانها لن تستطيع أن تصل الى شيء. إلا ما هو مقرر أساسا في عقول باحثيها. وما افترضوه قبل البحث ، وما ذهبوا للحصول على أدلة عنه الى تلك المفارز والكهوف جريا وراء صورة الانسان البدائي منذ عشرة آلاف سنة ولا ريب ان المحاولات التي تصل الآن بالانسان: تاريخه وأديانه ونفسيته وأخلاقه انما تستهدف أحياء التراث الوثني القديم كله وتعيد صياغته من جديد من أجل أن تصل الى إبراز مفاهيم التلمود وقيم التوراة التي كتبها عزرا ابّان السبي البابلي والتي استوعبت تراث أشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة. مما تحفل له إسفار العهد القديم. وقد كشفت كل الدراسات الأصلية عن أن الأصول العامة لعلوم النفس والأخلاق والاجماع والأنثروبولوجيا ومقارنات الأديان والعنصرية كلها تستمد أصولها من هذا التراث اليهودي التلمودي الصهيوني الطامح الى أن يتجدد في مزاحمة الفكر الرباني الذي جاءتت به رسالات السماء وخاتمها الإسلام.

ويختلف الاتجاه في كلا المنهجين: منهج القرآن الإسلامي في علم الانسان ومنهج العلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا . فالأول يستهدف بناء الانسان بالكشف له عن حقيقة جوهره وأبعاده وقواه ورسالته وتحريره من أهوائه وتحدياته حتى يكون صالحا للمهمة الموكولة اليه.

أما منهج العلوم الاجتماعية والتحليل النفسي والانثربولوجيا فهو يستهدف تضليل الانسان عن حقيقته، ودفعه الى الطريق الذي ينتهي به الى الانحلال والتحطم. وحين يضع له الإسلام (أو الدين الحق بصفة عامة) الضوابط والحدود ويدفعه الى التماسها بالترغيب والترهيب بفتح المنهج الغربي أمام الانسان الطريق الى تحطيم كل الحواجز ، ومعارضة كل الضوابط، والسخرية بالمحرمات، ويقول له بلسان الوجودية: أفعل كل شيء، أفعلوا ولو أدى الى الخطأ، الزواج نظام عتيق، حطموا قوامه الرجل، اسقطوا الدين كلية من حساب الحياة. لا تنساقوا وراء أحلام البراءة والبكارة والطهارة، لتحيا حرية الصداقة، لا تتقيد بشخص مهما كان عزيزا، لا تتقيد بوطن، لا تتقيد بفضيلة، وكن طليقا من كل قيد، لا وصاية على الشباب، الأب أسوا الناس..

إن مثل هذه الصيحات قد تعجب السذج والإغرار من الشباب لانها تلتقي مع الغرائز الراغبة الى الانطلاق دون أن يتبين أصحابها في وضوح تلك الهوة التي يتردون فيها أو الخطر الذي يواجهونه.

ولكن التجارب كشفت أنها ليست صيحة الحق وأنها صيحة التدافع الى تدمير كيان الانسان وتحطيمه.

ولقد يقول ديل كارينجي: ابتسم، لا تشغل بالك بالهم، واجه حياتك بالضحك وأزماتك بالمرح، ويظن الناس أن الفيلسوف الأمريكي قد وضع حلا لمشاكل الانسان.

ومن أين يجد الانسان الابتسام وكيف يواجه أزماته بالرضى إذا لم يكن مؤمنا بالله، واثقا به، راضيا بقضائه، متجها الى محاولة جديدة في صبر وحود.

كيف يتم ذلك دون إيمان من أعماق القلب يقوم على أساس الثقة بالله.

لا يستطيع (ديل كارينجي) أن يقدم للانسان هذا الدواء فهو لا يوجد إلا في صيدلية واحدة هي صيدلية الدين.

اننا في أفق الفكر الإسلامي نفهم الأمور في يسر، لان لدينا ناصح مصدق لا يكذبنا أبدا ولا يخدعنا ، ذلك هو الدين.

إن الدين هو الحصن الأخير الذي يلوذ به الانسان من أزمات الحياة، وهو الذي يجد فيه الشباب أمنهم وطمأنينتهم من الصراعات والتوترات العصبية التي يواجهونها في عالم مليء بالمتناقضات.

ولقد أكد كل خبراء الدين والطب والنفس أن الايمان بالله هو وحده وليس غيره طريق النجاة ـ ولا أقول الخلاص ـ الذي لا يشفي الشباب من الأزمات التي يعايشونها نتيجة إخطار النظريات الاجتماعية الوافدة، وأثار لافلام والقصص وما يقدمه الشارع من نماذج مغايرة للأخلاق أو مثيرة للغرائز.

إن الدين هو الذي يحقق السلام الداخلي للنفس الانسانية وينسق الروابط بين الجسم والروح، والعقل وذلك بتربية القوة الموجهة القادرة على معرفة الحلال والحرام.

(ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب).

إن الإسلام يدعو الى بناء الانسان المسلم في مواجهة مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق الوافدة التي تستهدف تدمير الانسان. الاسلام يدعو الى بناء الانسان الرباني القادر على مواجهة الأحداث والخطوب في مواجهة موجة التحلل من القيم الدينية والخلقية.

لقد دعا الإسلام الى تكريم الانسان المستخلف في الأرض والنظر اليه من خلال طبيعته الأصلية الجامعة بين الروح والجسم بوصفه كيانا متكاملا وجعل سعيه في الحياة مرتبطا بالمسؤولية والجزاء.

وتتمثل دعوة الإسلام لتحقيق الرغبات الحسية عن الطريق المشروع للزواج، وتحريم الزنا، لا ينبعث عن كراهية الجنس بل عن احترام له وتنزيهه عن العبث، وارتفاع بالمرأة عن أن تكون أداة يلعب بها الرجل.

والخطيئة في الاسلام ليست غولا يطارد الناس.

ويعطي الاسلام أهمية كبرى للانسان كفرد فيؤكد له ذاته، ثم يدفعه الى العمل في محيط المجتمع ويقرر أن كل فرد في المجتمع يستحق الاحترام والطاعة قدر ما يحمل من المسؤولية ويتحلى به من صفات طيبة كالعقل والعلم والخلق.

ولا يفرق الاسلام بين الناس على أساس العنصر أو العرق ويقر التفاضل على أساس العمل والسلوك.

وقد أقام الإسلام مجتمعه على أساس التكوين الفردي واعتبره أساس التقدم وقرر أن الرقابة لا تأتي من شخص على شخص. ولا من هيئة على هيئة وانما هي رقابة الانسان لربه.

وقرر الإسلام حاجة الانسان الى التقدم المستمر ولذلك دعا الى تحرير طاقاته جميعا، فكرية وخلقية وعملية، دون أن يسمح لعائق الطبقة أن يحول دون تقدمه.

وعارض الإسلام مفهوم الانتخاب الطبيعي والدعوة الى إبادة الضعفاء وتعقيم الفقراء في نفس الوقت الذي عارض فيه استعلاء الانسان وتأليهه وعبادته كما عارض في نفس الوقت وصف الانسان بأنه حيوان تحكمه غرائزه، وبذلك وضع الانسان في مكانه الطبيعي وفي حجمه الصحيح.

وكذلك ألغى الوساطة بين الله والانسان، وفصل بين الألوهية والبشرية وأنكر سقوط التكاليف الشرعية عن أي انسان مهما بلغ قدره من الايمان وألغى الاسلام الفكرة القديمة التي كانت تقول بأن هناك صراعا بين الجسم والروح، وأعلن أن الروح والجسم متكاملان.

وربط الإسلام بين العلم والعمل، وقرر أن العلم إنما يطلب من أجل

العمل به وكشف عن أن الطبعة البشرية مذورة بقدرتين: قدرة على التحصيل وقدرة على الممارسة العملية.

ولا يرى الاسلام في الايمان مفهوما مضادا لمفهوم المعرفة، ويرفض الاقتصار على مفهوم المعرفة القائمة على الحس والتجربة. ويرى أن الوحي مصدر آكد للمعرفة وحرر الإسلام الانسان المسلم من دوامة البحث فيما وراء الطبيعة وعالم الغيب وحيرة الاجابة على السؤال: «لماذا خلقنا» وقدم له مفهوما كاملا مرضيا في هذا المجال حتى يفرغ لمهمته في بناء الحياة وتعميرها.

(3)

ان أكبر سعي الإسلام هو بناء الانسان المسلم ليكون سيد الكون المستخلف باذن الله في الأرض بالحق. وأن قاعدة البناء إنما تقوم على أساس القوة المجاهدة لا على أساس الترف والرفاهية. ومن هنا فقد بنى الاسلام أهله على أسلوب المعارضة الدائمة لاهواء النفس وردها عن مطامعها.

ويكشف الاسلام عن قدرات الانسان الكامنة في مواجهة الأخطار والتحديات، وعن قدرته في معايشة العزم والمجاهدة، وأبان كيف أنها تمده بالقوة على الصمود في وجه الأحداث: أحداث حياته وأحداث مجتمعه وأمته. فيكون بها حفيا قادرا على الفداء والبذل لا تثقله الأهواء والشهوات وقد شاء الله أن يكون الانسان قوة مريدة فعالة في هذا الكون ولذلك دعاه الى بناء الارادة، وإقامة الضوابط لأنها مناط المسؤولية الفردية. فالارادة تكبح جماح النفس وتلجم عنان الشهوات.

ولقد أعطى الانسان ميزة الإرادة الحرة، ولم يشأ إجبار الانسان وسلبه ميزة الاختيار ــ والإرادة الحرة تقوم على الأخلاقية وهي أساس نجاح أي مفهوم عن علاقة الانسان بالحياة.

وفي هذا معارضة للدارونية التي تنكر الإرادة الحرة ولذلك أيدها اليهود لفرض طابع الجبرية على الدعوات والمذاهب التي طرحوها في المجتمع.

ومن منطلق الإرادة الحرة، ذات المسؤولية، أرسل الله الرسل بالآيات البينات، ومن هنا يعارض الإسلام مفهوم الجبرية المادية والتاريخية أو الاجتماعية التي تقول ان الانسان ليست له إرادة وإنما الوسائل المادية هي التي تحكم التطور وان الانسان في نظرها مراقب فقط.

وفي إطار هذا الفهم الإسلامي الأصيل يظهر مفهوم الصبر والكظم والتوكل على الله، أما الصبر فهو قوة إيجابية، وملكة في النفس يتيسر معها احتمال المشاق والرضا بالمكروه في سبيل الحق وما أوتيت أمة إلا من ثغرة العجز عن الصبر، وما من أمة ضعف الصبر في نفوس أفرادها إلا انهارت وفقدت كل شيء.

والكظم هو قمة الدين، وهو معارضة صريحة للفرويدية، وقد أثبتت عشرات الأبحاث التي قامت بها المؤسسات العلمية خطأ افتراضات فرويد وأكدت مفهوم الإسلام التي يعني ان المجاهدة بالسير ضد تيار الأهواء والمطامع والرغبات المذلة لا تزيد النفس الانسانية الا قوة.

والتوكل على الله قوة نفسية لها فاعليتها، فهي تدفع المسلم في غير ما تردد لتنفيذ ما يصمم على تحقيقه، ولا يكون التوكل فعالا إلا اذا صدر عن إيمان وعزيمة.

ويقرر الإسلام بناء الانسان على المشقة والمجاهدة (لقد خلقنا الانسان في كبد) كما تقرر أن الانسان ثابت الجوهر متغير الصورة. وأن الإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة وتدعو الى المعاودة في حالة الاخفاق.

(4)

لا ريب أن عجز الانسان عن فهم إرادة الله حق الفهم هو الذي دفعه الى مواجهة العجز بإطلاق كلمة الحتمية: ان الله سبحانه هو خالق قوانين الطبيعة وقوانين المجتمعات.

وهو القادر على خرقها، وحتمية قوانين الطبيعة لا تتعارض مع قدرة الله على المعجزات.

أما المذهب المادي وأهله فانهم يعجزون عن هذا الفهم فهم ينظرون الى الظواهر أو القوانين ثم ينسون خالقها ومحركها القادر على نقضها متى شاء.

وإرادة الانسان حرة ـ في كل ما يتصل به وبحركته الخاصة ـ وليست مقيدة، ولكنها تتحرك في اطار عالم واسع: يمثل إرادة الله. والانسان ينجح إذا استعمل سنن الله ويفشل إذا لم يحسن استعمالها أو التعرف عليها، ولكن هناك أشياء لا خيار له فيها وتخرج عن طاقته. وكل ما يفعله هو أن يتبع أسباب الوقاية منها لا منع وقوعها (كالأمراض والموت).

وهناك أمور أودع فيها للانسان ميزة الاختيار في حياته باستعمال حواسه وإرادة الانسان تتحرك داخل إرادة الله فهو ليس مجبور ولا محكوم عليه «والإرادة الإلهية حرة مطلقة تستطيع خرق السنن، أو إحراز النتائج دون حدوث أسبابها المقدرة لها، وقد لا تحصل النتائج بالرغم من حدوث أسبابها».

وثبات السنن الإلهية على مدى الزمان لا يعني تقييد إرادة الله تبارك وتعالى.

ويصل بنا هذا كله الى أن الحياة ليست مصادفة في هذا الكون. أو الله الانسان موجود بلا غاية بل هناك قصد وغاية وقضية كبرى.

ولذلك فلن تكون قضية الانسان:

قضية طعام كما تقول الماركسية أو جنس كما تقول الفرويدية، أو ان

عمله في هذه الحياة هو المتعة واللذة وحدهما.

بل مسؤولية ورسالة وجزاء ولا ريب ان هذا يكشف عن هدف المذاهب الفلسفية الحديثة في الأخلاق والنفس والاجتماع في محاولة تدمير الانسان وتحطيم أصالته وقدرته على ممارسة دوره بصدق.

ويدعونا الإسلام الى أن يحافظ الانسان على مفهومه الصحيح. مفهوم حرية الإرادة ليصبح التكليف خروجا من الجبرية وانما بإرادة الله تعالى وقدرته التي لا حد لسلطانها.

(5)

ولعل أخطر ما يواجه الانسان المعاصر هو أن يقف أصحاب كل علم ليدرسوا جانبا منه دون أن يلتقوا عليه التقاءاً جامعا. أو يحاولوا تقييمه في صورة متكاملة فيذهب عالم النفس به الى مفهوم جزئي يحاول أن يفرضه كأساس وحيد ويذهب عالم الاقتصاد الى أن مسائل العيش هي التي تحكم وجوده كله ويذهب به عالم الاجتماع وجهة أخرى ويذهب به عالم الانثروبولوجيا وجهة رابعة وخامسة وهكذا.

أما النظرة الإسلامية فتقوم على مستوى التكامل والفهم. والالتقاء ومعرفة ابعاد كل جانب في التأثير على الصورة الكاملة والحد من استعلاء أي مفهوم.

أما في الفكر الغربي فإن رجل المجتمع لا يسأل عن مسؤولية رجل الأخلاق ورجل الأدب لا يسأل عن مدى خطر ما يدعو اليه بالنسبة للتربية. أو الأخلاق وهكذا تتمزق الاختصاصات ولا تلتقي في منظور متكامل.

ويقرر الإسلام ان حركة الفكر والعلم كلها انما تقوم من أجل بناء الانسان وبناء مجتمعه ولذلك فهي لا بد أن تتكامل . تكامل الانسان نفسه من حيث كونه روحا وجسدا. ولقد يكون جسم موضوع العلوم الطبيعية وروحه موضوع علوم الأخلاق ونفسه موضوع علوم العقائد ولكن

ذلك كله لا ينفصل بل يتلاءم ويتوازن ويلتقي في منظور كامل وإطار جامع يستهدف بناء هذا الانسان وحمايته من الأخطار ووضع الضوابط التي تجعله حركة صحيحة ودقيقة وبعيدة عن الانحراف أو الاصطدام أو التحطم أو التدمير.

(6)

ان أسمى ما يقدمه الإسلام للإنسان:

الإيمان بالله. ذلك أن الإيمان بالله هو السند الحقيقي للإنسان فهو الذي بيده كل شيء. والناس من دونه لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.

ولما كانت النفس البشرية معرضة لموجات متوالية من الشك والطمع والأهواء فقد كانت دعوة الإسلام الملحة المتصلة ترمي الى تزكية النفس وتطهيرها الدائم وتحريرها والارتفاع بها. والكشف عن طابع الفطرة الذي يختفي وراء الأغشية المختلفة وإبرازه وصقله وإتاحة الفرصة له حتى يطهر القلب من الزيغ وتنقى النفس من الانحراف والإيمان بالله حق وضرورة، وهي المزية الوحيدة التي تتميز بها الانسان عن الحيوانات كلها.

وهو الذي يهدي الى مكارم الأخلاق ويبني الضمير السليم، فالإيمان سند الشدائد وبلسم المصائب وعزاء القلوب وعلاج أخطار الحياة وعندما يفقد الانسان إيمانه بالله لا يستطيع الصمود أمام الأخطار التي تجتاحه من كل مكان.

ولقد تدعو بعض الفلسفات المثالية الى مواجهة الحياة في صبر أو تدعو الى الثقة بالنفس أو تدعو الى التفاؤل دون أن تهدي الانسان الى مفتاح ذلك كله.

كيف يمكن أن يكون الانسان قادرا على مواجهة شدائد الحياة في شجاعة وصبر وقوة دون أن يكون مستندا الى جدار عريض.

هو الإيمان.

كيف يمكن أن يثق بنفسه، دون أن يكون ملتمسا عونا عظيما هو الله تبارك وتعالى، كيف يمكن أن يضحك الانسان ويسر ويتفائل دون أن يستمد القوة من الذي أضحك وأبكى والذي أمات وأحيا.

إن أبرز معطيات الإسلام هو «الإيجابية» المتفائلة برحمة الله، فلا يقر الإسلام طابع الانهزامية أو اليأس أو الضعف. وليس في الإسلام: عقيدته وأدبه وفكره ظاهرة التشاؤم التي تضفي على الحياة الغربية طابع المرارة ويقدم الإسلام فكرة البذل والتضحية والانفاق والتقوى على قيم الرفاهية والترف فتجيش النفس الانسانية بالطمأنينة ولا يدمرها الانحلال والشح والأنانية.

إن تمثل الله تبارك وتعالى في النفس الانسانية بوصفه الخالق المدبر هو الذي يثير فيها الطمأنينة والسكينة بما يقع في حياة الانسان فلا يستسلم لليأس بل يتجدد أمله في الحياة مرة بعد مرة، فإذا عرف ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا قوي أمله المتجدد وعظم كفاحه ونجح سعيه.

ومن هنا نعلم ان الالحاد طارئ على النفس البشرية وليس من طبيعتها ولا هو متأصل فيها، وقد وجه الله الانسان الى آفاق عدة للخروج من ظلماته في مقدمتها «التفكر» في خلق السموات والأرض.

ان التفكر في خلق الله (لا في ذات الله) فريضة إسلامية يعاقب من يتجاوزها الى الغفلة ومتابعة الأهواء بغير دليل، إنما ينبعث الالحاد من العقائد التي تصادم الفطرة وتعارض العقل وتقوم على الخوارق.

(7)

وان من أبرز مفاهيم الاسلام في بناء الانسان التناصح بالحق والخير والتواصي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانسان في خسر إلا

الذين آمنوا وتواصوا بالحق والصبر، ومسؤولية التناصح من أكبر معالم الاسلام بين أهله وفي مجتمعه.

ومنهج التربية في الاسلام منهج متكامل يعني بتربية الجسم والروح والعقل في إطار متكامل حتى لا تطغى ناحية من النواحي على الأخرى وبذلك ينشأ المسلم سويا قوي الصلة بالله محققا رسالته في الحياة.

والقدرة والمنهاج هما طريق بناء الانسان، ولا فائدة من منهاج بلا قدوة، والقدوة تبدأ من الأب والأم أولا ثم تمتد الى المربي والمعلم وقدوة الأباء هي مصدر الخير كله فلا بد أن يطبع الآباء أبناءهم على الايمان.

وتربية الإرادة والخلق وأن يكونوا بتصرفاتهم مثلا عاليا يستمد أصوله من النموذج الأكمل والأسوة الحسنة: رسول الله ﷺ.

ولا بد من قيام الالزام في الأسرة، على الترغيب والترهيب ويقوم الالزام بوازع العقل والوجدان والسلطان جميعا ولا بد من بناء الضمير (الذي هو الرقيب الداخلي) والذوق في إطار الإسلام، في موازنة بين رغبات الروح وأشواق الجسم ومسايرة الفطرة والعقل وتأكيد المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي، والاعتراف بالرغبات وتحقيقها في إطار الضوابط والتخفيف ورفع الحرج على أن يكون التكليف الملزم في حدود الطاقات الممكنة وتوجيه الأعمال كلها لله وخلق روح المجاهدة والكظم بالصبر والاصطبار وسد الذرائع ومجافاة الترف والهوى وإدارة ذلك كله في جو من الحرية الحقة:

وهي الحرية في إطار الأخلاق حيث لا حرية بدون ضوابط وقيود.

وفي هذه المعاني يقول الامام ابن الجوزي.

«ان الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة وهي قابلة لكل نقش فان عُوِّد الخير نشأ عليه وان عُوِّد الشر نشأ عليه.

والولد أمانة في عنق وليه فينبغي أن يصونه، ويؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم المترف. ولا يحبب اليه الرفاهية الرخوة فيضيع عمره في طلبها، اذا كبر، بل ينبغي أن

يراقبه من أول عمره فيعوده الأخلاق الطيبة وهي مبشر بكمال العقل عند البلوغ. وهذا يستعان به على تأديته بحياته.

إن ولدك جزء منك. فاختر لجزئك ما تشاء. الولد نعمة وفجار. أو نقمة وعار. الخيار لك ما دام زمامه بيديك فعليك أن تربيه وتفهمه الأخلاق من الثالثة من عمره حتى العاشرة وتصونه من قرناء السوء حتى العشرين وبعدها تتركه حرا».

والمسلمون يعلمون ان للإسلام مفاهيم أساسية في مختلف القضايا: المجتمع والأسرة والمرأة والتعليم والتربية والملابس والزينة والنفس والشباب فليلتمسوها وليعرفوا أنه بينما تعالج المذاهب الهدامة الغريزة الجنسية بوسائل اشعالها (بالسينما والقصة المكشوفة والغناء المريض والصورة العارية. والكلمة الإباحية والكتب الجنسية) فإن الإسلام يعالج الغريزة بوسائل تبريدها وتلطيفها وباعلاءها وتأجيل الممارسة مع الاعتراف بحق الانسان فيها على النحو الذي شرعه الله.

وقد كشف الإسلام عن خطأ النظرة التي تقول بأن الانسان قد أصبح قادرا على مواجهة الحياة دون حاجة الى توجيه الله ورسالة السماء ووحي الأديان. وانه في حاجة مستمرة الى هذا العون. وإلى هذا الضياء. وإلى هذا الجدار الصامد. وانه متى تجاوزه تقاذفته الأمواج والأهواء والمطامح.

ولقد أقام الإسلام قيم الإيمان والأخلاق ثوابت شوامخ. حتى تكون أعمدة النجاة ونقطة البدأ انطلاقا ونقطة الموافاة عودة.

ليس غير الإيمان بلسم للجراح وشفاء للصدور أو ترياق لأمراض القلق والحيرة والشك والارتياب.

(8)

ان الانسان المسلم لن يجد ذاته الضائعة الا في المفاهيم الأصيلة التي قدمها له منهجه الرباني المصدر الانساني الطابع، وسوف تعجز المفاهيم البشرية عن أن تهديه. وان كانت تستطيع أن تضله، لقد طرحت في آفاق المجتمع الاسلامي مذاهب ونظريات جرت مع الأهواء والرغبات فبدت في نظر الشباب الذي لا يستطيع أن يتعمق الأشياء، بدت ذات بريق واغراء. ولكنها ليست في حقيقتها الا مخدر وقتي يرتد منه الانسان بعد أن يفيق أكثر تمزقا وضياعا.

ولن يستطيع الانسان المسلم أن يجد نفسه إلا اذا تحررت تماما من هذه الدعوات وقد فهمها وعرف أخطارها وأسرارها، وعرف ما وراءها من أغراض وكشف عن خلفياتها المضلة، وغايتها المدمرة.

لقد بنى الإسلام الانسان المسلم العربي منذ أربعة عشر قرنا على نحو خاص وأسلوب نادر، بناه بالحق، وأقامه على الطريق المستقيم، وحذره من الطرق التي لا نهاية لها.

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلك وصاكم به لعلكم تتقون).

هذا الطريق هو مصدر سكينة النفس، وسلامة القلب، وصفاء العقل. لانه يستمد منهجه من عند الله خالق النفس وبادئ القلب وصانع العقل. ولن يجد الباحثون وراء أزمة الفراغ العقائدي غير الإسلام ولن يجد الباحثون حول الصراع الفكري غير القرآن، انه وحدة الفكر الأساسية الجامعة التي تحول دون التمزق والتفرق وترد المسلم الى فهم أصيل عميق، يدفعه الى الأمام من أجل بناء نفسه وبناء مجتمعه وبناء أمته.

إن ميزة الإسلام أنه صنع (وحدة الفكر) الأساسية الجامعة التي تحول دون الصراع الفكري، وهو الذي صنع مفهوم (الإيمان) التي يحول

دون التمزق النفسي، وهو الذي قدم مفهوم (التوحيد) الذي يحول دون الفراغ العقائدي.

ان أخطر ما حذرنا منه الاسلام هو التقليد، والمتابعة بغير دليل ولا رأي منير، وان أسوأ ما علمتنا المناهج الوافدة ان حالت بيننا وبين جوهر فكرنا وصورته لنا بصورة القديم أو الجمود.

لقد دعا الإسلام معتنقيه الى معارضة التقليد للأجنبي، وقدر ذلك رسول الله فقال:

من تشبه بقوم فهو منهم، وليس معنى هذا أن يصم المسلمون أذانهم عن كل صوت يأتي من الخارج بل أن يكونوا قادرين على أبعاد العناصر التي تدمر شخصيتهم وقيمهم ويقبلون ما يزيدهم قوة.

وان المسلمين اليوم حين ينظروا الى حضارة الغرب يجب أن يفهموا من أمرها على أي درجة هي من القوة أو الضعف ويلتمسوا لذلك آراء أصحابها، قال ارنولد توينبي في كتابه الحضارة والغرب وفي كتابه الغرب في محنة:

«إن الحضارة الغربية تمر الآن في طور من التدهور والانحلال التي مرت به الحضارات من قبل؛ من أجل هذا كانت فنون الصناعة والاقتصاد وغيرها من المعارف علوما غير كافية لتوفير أسباب الاستقرار والسعادة للمجتمع الانساني حيث أن الروابط الروحية هي العمد التي يتماسك بها بناء المجتمع».

فكيف يمكن لمجتمع ناهض يريد أن ينطلق من مرحلة اليقظة الى مرحلة النهضة أن يلتمس فكر حضارة في محنة، أو مجتمع في أزمة، لقد ذهب الى غير رجعة قول القائلين بأن تسير سيرة الأوروبيين وتسلك طريقهم، وهو قول لم يكن حكيما لأنه يتعارض مع الفطرة الانسانية، ومع القيم الأساسية لمجتمع صاغه الإسلام منذ أربعة عشر قرنا.

لقد أعلن الإسلام حربا لا هوادة فيها على التقليد وعلى التبعية ودعا الى اعلان التميز بين الأمم في ضروب الحياة وأساليبها المختلفة.

ولا ريب ان النظريات الوافدة هي استجابة لتحديات مجتمع بعينه. له مشاكله وأزماته وقيمه وعقائده. وقد جاءت هذه النظريات الحديثة التي قدمتها مدرسة العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في مرحلة ضعف هذا المجتمع وانحلاله ووقوعه في براثن القوى الغازية التي احتوت فكره.

فهو بالحق يمر الآن بأزمة الاحتواء الصهيوني التلمودي للفكر الغربي المسيحي وعلى المسلمين والعرب أن يتنبهوا لهذه المخاطر التي تواجه فكرهم وأن يتيقظوا للمذاهب الهدامة التي تصاغ في نظريات براقة وتحاول أن تدمر العقيدة الالهية والنفس البشرية.

إن هناك محاولة لحمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخروج من إطار فكرهم، ودخول منطقة الاحتواء الخطيرة التي تذوب فيها عقائد الأمم ومعتقداتهم وقيمهم، حتى يستسلموا للمنهج التلمودي الصهيوني.

ولقد سقط الفكر الغربي في هذا الفخ. وهو يحاول التخلص الآن ولكن بعد فوات الوقت. أما الفكر الإسلامي فانه يواجه الخطر، ولكنه لن يستسلم لان له من أصوله ومقوماته ما يحول بينه وبين أن يحتويه أي فكر آخر. وهو اليوم أحوج ما يكون الى يقظة أهله؛ لتحريره وتصحيح مفاهيمه وكشف الزيوف التي تحاول أن تختلط به أو تسيطر عليه.

الفصل الثاني

إلى أي مدى تصدق

النظريات المطروحة في مجال الاجتماع والنفس والأخلاق

طرح الفكر الغربي عديدا من النظريات في مجال العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق تتمثل في مدارس متعددة أبرزها نظريات ماركس وفرويد وليفي بريل وسارتر ودوركايم وكولن ولسن وماركوز. وكلها تحاول أن تواجه الانسان بمفهوم مادي خالص. وترسم له طريقا معارضا للفطرة وللقيم الأساسية التي قدمتها الأديان قبل تحريفها أو تفسيرها على نحو أو آخر وتهدف هذه المذاهب الى نفي القداسة عن الدين والأخلاق وانكار أصالة الأسرة ومعارضة فطريتها والدعوة الى التحرر منها أو انكار ثبات الأخلاق والدعوة الى نسبيتها وربطها بالحضارات والمجتمعات المتغيرة. أو التماس وجهة الانسان وغاياته كلها في الجنس أو التماس هذه الوجهة في لقمة العيش.

وتستمد هذه النظريات جميعا من مصدر واحد أو مصدرين :

أولا : فكرة التطور الدائم التي تلغي فكرة الثبات.

ثانيا : فكرة القهر الخارجي والحتمية التاريخية أو الاجتماعية التي يبدو فيها الانسان مسلوب الإرادة ، وكأنه حشرة.

ثالثا : إعادة تطبيق التجارب التي أجريت على الحيوان وعلى

الانسان دون تقدير للفروق الدقيقة بينهما وحول هذه المعاني ترددت فرضيات فرويد وماركس ودور كايم.

فماركس يعلن أنه لا توجد حقيقة ثانية للقيم الأخلاقية وإنما هي تتطور بتطور الانتاج ودور كايم يعلن ان الأخلاق تتطور بتطور حالة المجتمع وفرويد يعلن أن الأخلاق كبت ضار بكيان الانسان.

وكلهم يجمعون على تحطيم الدين لانه قد يعوق التطور، ولانه ليس فطرة انسانية (دور كايم) أو لانه كبت جنسي منفر (فرويد).

(2)

أما علم النفس فيرى «ان الانسان مسير أمام حملة من العوامل التي لا يحكمها العقل» وانما هو واقع تحت تأثير الرغبة والعاطفة والمزاج، ومن قبل كانت فلسفة الأخلاق «تؤمن بأن لكل فكرة مسيرا ينتهجه، فهي لا تنتهي عند مجرد التفكير وانما تمتد الى العمل والتطبيق. فالفكرة لها شطران: تعقل وسلوك. ولا يكون لها أثر خلقي حتى تتحول الى هذا السلوك، ولكن علم النفس حل محل علم الأخلاق فباعد بين شطري الفكرة وعالج الاحساس الضئيل مجردا عن العمل وباعد ما بين العقيدة والسلوك، وقد أدى ذلك الى التنكر الذي نشهده اليوم بين ظهرانينا»، لقد فرق علم النفس بين العقل الواعي والعقل الباطن، ففرق بين الفكرة والتطبيق، وتطرق الشك الى النفوس في قمة الفكرة وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها فيما مضى، بل لقد ذهبت الفكرة من علماء النفس الى القول بأن الفكرة شيء والعمل شيء آخر، وبذلك جرت المحاولة لتحطيم أكبر ركيزة من ركائز الايمان بالله ودعامات الدين الحق وهي الارتباط الجذري بين الايمان والعمل، أو بين العقيدة والتطبيق.

كذلك فان علم النفس على هذا النحو قد عجز أن يخلق للانسان مثلا أعلى لانه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء، ذلك لانه علم وضعي يسير

في نطاق ضيق من التجارب التي تختلف على عقل الانسان وحسه ولانه علم تجريبي فقد عالج حالات (شاذة أو غير شاذة) من غير أن يقيم معايير يستطيع المرأ أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا».

ومن حيث أن مناهج علم النفس والعلوم الاجتماعية تجعل من [illegible] شاهدا وليس فاعلا وتلغي إرادته الحرة وتكبله بقيود من الحريات فتحطم وجوده الحقيقي وتلغي مسؤولية الفرد التي هي كفاء الجزاء (من مثوبة وعقاب) فان الفرد أصبح يرى نفسه. خارج الحلبة . لا مسؤولية عليه وليس هو الملوم، فان الجماعة هي المسؤولة. والجبرية الاجتماعية أو التاريخية هي المتصرفة في الأمر.

وليس علم النفس أو علم الاجتماع وحده هو الذي استشعرت هذه الموجة من الشك في إقامته بل أن التاريخ «تنكر لفلسفة الخلق وجافى فكرة السلوك وازور عن تقدير الفرد، وحاول أن يقيم قواعد يستمد سلطانها من الجماعة».

«كذلك فإن علم الاجتماع ينكر مسؤولية الفرد ويلاشيها في إرادة الجماعة» وهكذا نجد الصورة واضحة، أن هدف هذه المذاهب كلها هو تدمير الانسان، فهذه العلوم الاجتماعية: علوم تجريبية لا خير فيها اذا حاولنا أن نقيم منها مثلا أعلى فهي لن تزيد ايماننا في سمو الفكرة ولا عقيدتنا في سيطرة العقل على العمل، وكلما أمعنا في دراستها زادتنا شكا في أصول الخلق وفي فلسفة الحياة ، فهي تعالج ظواهر نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية، ولكنها لا تأتي بجديد في قيم الأشياء ولا تخلق ميزانا عادلا لحقائق الخلق».

ولقد تلاشت فلسفة (الأخلاق) في علم النفس كما تلاشت الفلسفة السياسية في علم الاقتصاد، ذلك بأن العالم قد أعمته اقتصادياته عن المثل العليا التي أقامها الفلاسفة الحكماء وأسرف في اتخاذ مبادئ الاقتصاد . أنجيلا يكاد لا يؤمن الا به فكما أن الفرويدي في أصول علم النفس ان ارضاء النزعات والرغبات فيه شفاء لما يحز في النفس من ألم ممض، كذلك

نرى الجماعات ان في ارضاء رغباتها الاقتصادية شفاء لما تعانيه من جفوة وشقاء.

والاقتصاد كما هو الآن ـ علم المنافسة الحادة والتطاحن على الكماليات. وليس يخفف من حدته أي قوة دافعة الى المثل الأعلى. وقد كان الاقتصاد نفسه معينا يستمد منه المؤرخون وعلماء النفس ما يرونه من القضايا ليشككوا في قيم الخلق العام».

وهكذا نصل الى غاية أساسية للعلوم الاجتماعية هي انكار قوة الأخلاق في الفرد . وانكار قوة الأخلاق في الجماعة «مما أدى الى حالة من الاستهتار بالمثل العليا يعاني منها الغرب ما يعاني اليوم».

ويصل الباحثون الى أن «تنشئة الفرد» و«بناء الانسان» هو أول ما ينبغي في بناء الأمم. لقد أنكرت هذه العلوم ما للفرد من وزن في حياة الجماعة.

وهذا هو أخطر ما تواجهه المجتمعات في الغرب الآن.

(3)

ولما كانت هذه النظريات قد كشفت بعد سنوات قليلة عن فسادها واضطرابها فقد حاول أصحابها احياءها من جديد فهناك مدرسة جديدة الآن تحاول أن تجدد فرويد وتغير فيه وتبني ما تهدم بعد أن كشفت زيوف كثيرة في أعماقه. كذلك نرى هؤلاء الذين يحاولون تجديد الماركسية والتفسير المادي للتاريخ. أمثال روجيه جارودي ومكسيم رودنسون.

ونرى كولن ولسن يحاول أن يجدد (الوجودية) ونرى ماركيوز يسعى الى الربط بين الفرويدية والماركسية كما جرت المحاولات للربط بين الوجودية والماركسية من قبل.

ويحاول ماركيوز في كتابه (إيروس والحضارة) التوفيق بين الماركسية ونظرية فرويد فهو يعلن ان الحضارة مصابة بالمرض وان هؤلاء الأشخاص

الحاقدين الذين يعتريهم القلق من حولنا هم الثمرة الأولية لفوضى عامة وان معالجة هذه الفوضى العامة هي وحدها التي تحمل الشفاء لكل فرد بدوره.

إن هدف ماركيوز تجديد الفرويدية والماركسية معا وذلك بإقامة جسرين: هما الجنس ولقمة العيش.

وهناك أبحاث أخرى حول الأساطير وعلم السلالات أصول الأجناس تحاول كلها اخضاع الانسان للتحليل والتجربة على نفس الطريق الذي تطورت اليه الفلسفة المادية ان الفكر التلمودي اليهودي الذي يحتوي الآن الفكر الغربي بشقيه ويسيطر عليه . قد حال دون تمكين الفكر الغربي المسيحي من أن يتحرر من نفوذه. وما تلك الصيحات التي تعلو بين حين وآخر الا صرخات الاحتضار.

إن النقاد الغربيين يعلنون ان الجديد في الفكر الغربي يدور حول أزمة الانسان المعاصر. وان كل المذاهب تدور حول هذا المحور . ولكنها مع الأسف عاجزة عن أن ترى الطريق الصحيح أمامها لأنها مصرة على خط واحد هو الفلسفة المادية.

يقول أحد الباحثين في تبرير هذه الدراسات التي تدور حول أزمة الانسان المعاصر:

«ذلك ان الانسان المعاصر قد أصيب اليوم وفي كل مكان بأزمة حادة وخطيرة تهدد بغروب شمس الانسان على الأرض واختفاء الانسان من الوجود فان الرأسمالية والشيوعية كلتاهما في أزمة وترجع هذه الأزمة الى تخلخل مكانة الايدولوجيات المختلفة وعدم حلول مفاهيم جديدة ومفهومات جديدة محل المناهج والمفهومات التي تخطتها الوقائع والأحداث».

ونحن نعرف هذا الكلام ونفهمه جيدا في ضوء فكرنا ذي الأصول الأصيلة الثابتة ونعرف ان الفكر البشري سوف يدور ويدور ثم لا يجد بعد شيئا جديدا. ان آخر الصيحات اليوم هي الاحصاء والعقول الالكترونية ولن تجدي شيئا أمام الاعصار الخطير. إعصار الانهيار الماحق الذي

يتعرض له الفكر الغربي والحضارة الغربية أيضا ونعجب كيف ان بني قومنا لا زالوا على عماية من رؤية الخطر. وعلى عجز عن مقايسة الأخطار.

ان المؤامرة العالمية تحيك خيوطها على النحو الذي كشف عنه بروتوكولات صهيون. أن جول رومان في كتابه المسألة رقم واح يقول: ان الغرب في دمار وينهار وهو ينهار نظرا لفقدان ايدلوجية ثابتة.

ان كولن ولش يرى فشل الوجودية فيذهب الى دعوة جديدة هي اللامنتمي. ولكنه لا يستطيع أن يخرج عن الفصل بين الفكر والحياة والتصور والواقع والعقل والروح والسماء والأرض وتقف الثنائية ويقف اللاهوت النظري سدا في وجه محاولاته الجديدة.

ان التصور الاسلامي للالوهية. للوجود الكوني. للحياة. للانسان: هو وحده القادر على اسعاد البشرية. ولكن البشرية تعجز عن أن ترى الطريق أو تسمع الصوت.

إن الخطر الذي تمارسه المجتمعات الغربية من خلال هذه الفلسفات والمناهج قد دفعها إلى أبعد مدى. ان هذه المدارس قد بلغت بالانسان والبشرية مرحلة جد خطيرة هي: توجيه السلوك الانساني لا على أساس العقل كما كانت الفلسفات المثالية تعمل بعد أن حطمت أوروبا عقائدها. ولكن: على أساس الغريزة والانطلاق النفساني كما بشر به فرويد وأتباعه وكما صورته الوجودية ثم الهيبية. وكما رسمه دعاة التلمودية حين قالوا:

(إن الجنس هو المتعة الأولى في الحياة).

تقول البروتوكولات «لكي نطمئن الى الرأي العام يجب بادئ ذي بدء ان تربكه تماما. فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة لدرجة يضل معها الطرفين فيدركون حينئذ أن أقوم سبيل هو أن لا يكون لهم رأي».

ونحن نعتقد أن ثمرة هذا الاتجاه قد تحققت فعلا. وأن تصارع النظريات المتعارضة بين وجودية وماركسية وبين فرويدية ودور كايمية ومركوزية قد أعطى النفس البشرية أحساسا بالتضارب والتلفيق وكان من

نتيجته أن برزت روح اللامبالاة والعزلة والانفصال في الأجيال الجديدة فتعمقت روح الشك واستعلى احتقار القيم مع السخرية منها.

(4)

إن نوعية الفروض التي قدمها علم النفس والعلوم الاجتماعية هي محصلة دراسات أجريت في بيئات معينة وتدخلت فيها توجيهات معينة. ولم تخلص من ذاتية الباحث ومزاجه وأهوائه وتحدياته وأغلبها (دوركايم وفرويد وليفي بريل وماركس) من عنصر واحد له إيدلوجية ومخطط وله هدف في السيطرة على البشرية. وهي كلها مذاهب تثير الشكوك من غير الوصول إلى اليقين. وتطرح الشبهات وتتركها. وتنتقل بالانسان من المعلوم إلى المجهول. ومن الصريح إلى الغامض. ومن الفطرة إلى الجبرية والقسر. وقد استطاعت بالسيطرة على الفكر الغربي في حالة السيطرة الاستعمارية أن تطرح هذه المذاهب في أفق الفكر الإسلامي وأن يتاح لها البقاء لفترة طويلة لأنها لم تجد معارضة صريحة إلا منذ وقت قريب.

(5)

شهادتان للعلوم الاجتماعية الأولى من الدكتور عاطف غيث أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة الاسكندرية:

«إن مدعم علم الاجتماع الذي تعتمد على نظرياته في جامعاتنا هو العالم اليهودي الفرنسي أميل دور كايم – وهو وجماعته انما يستهدفون أن يطعموا فعالية «الانسان» ويجعلوه عند المصير مجهول. وحاولوا – كذلك – أن يميعوا حركة التاريخ ويبعدوا الأحداث التاريخية عن مضمون الواقع المعاصر حتى لا يتعرف الباحث على حقيقة مسيرة التاريخ نحو هدفه الذي لا بد منه وهو تحرير المجتمع الانساني من القيود التي كبلته قرونا عديدة» ان

علم الاجتماع لا يزال متناقضا وانهزاميا ويعتمد على خليط متناقض من النظريات الرأسمالية. ان هذا العلم قد وضع أسسه على يهود كرسوا حياتهم وعلمهم لخدمة الاستعمار . فحاولوا أن يجعلوا هذا العلم عاجزا عن فهم حقيقة التغيرات في المجتمعات وتمييع حركة الشعوب وعلى هذا فإن علم الاجتماع بوضعه الحالي ثمرة من ثمار الرأسمالية وسلاحا في نفذ الامبريالية لمساندة ايدلوجية معينة وان نقله دون تغيير في جامعاتنا أداة انهزامية».

أما الشهادة الأخرى فهي شهادة الدكتور محمد مندور:

كنت أتحدث عن أحد الفرنسيين في أمر الأخلاق والمجتمع فكنت مما أوقل: ان مبادئ الأخلاق ان هي الا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها أو فضل في الإيمان بها.

إن إرادة الانسان الحرة التي يعتز بها ليست الا وهما. ان الفرد لا يملك لنفسه شيئا وانما هو مسير بغرائز وقوى.

قال الرجل : من قال لك ذلك.

قلت: هذه يا سيدي الأراء التي سمعتها من أساتذة السربون في علم الاجتماع وعلم النفس. قال الرجل الرفنسى: أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسر بحيث تصبح نظريات أو يكشف عنها التفكير المجرد. ان التفكير الفرنسي لا يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين الانسان عندما زعم كبيرهم دور كايم ومن خلفه: ليفي بريل وموسى وفوكونية ومن تبعهم: ان الانسان حكمه حكم المادة. ان هناك ما يسميه هؤلاء وعيا اجتماعيا تتمخض عنه الحياة العامة كما يتمخض الناتج الكيماوي عن مزيج من العناصر. احذر يا بني أن تؤمن بما يقولون. فليس صحيحا ان الرجل المهذب لا يستطيع أن يصل إلى قيادة شخصية يهتدي بها الى مواضع الخير والشر والبطولة والخيبة بنفسه. كما تهتدي الطيور الى أوكارها.

وليس صحيحا ان قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية لا تستطيع في علاجها شيئا وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها كما يفعلون لنستخرج منها قواعد عامة. هذا يا بني وهم بل خداع مبطلين، أنا

أفهم ان نكشف عن قوانين المادة لنسيطر عليها ونسخرها في مرافق حياتنا.

ولكن الانسان ما شأنه بالقوانين، من قال ان الانسان مادة فحسب، وهب انه مادة وان الروح لم يكن لها وجود. وانها تفنى بفناء المادة كما تنعدم النغمات ويتحطم الناس. أليس من الخير بل من الواجب على الانسانية أن ترفض علما كهذا لن ينتهي إلا بتحطيم حياتنا وشل إرادتنا.

إن ما رواه دور كايم وتلاميذه من أن لكل شعب عقلية تتكيف بتاريخ ونوع نشاطه الاقتصادي في محاولة منه لخلق العقل الجمعي هو باطل وزيف، لا يا بني ليس هناك عقل جمعي كما زعم لك دور كايم وإنما هناك عقل فردي وإرادة حرة، إرادة يجب أن تستيقظ في قلوب أمثالك فتهدم العجز، ليس هناك جبر تمليه قوانين مزعومة وانما هناك نشاط حر. نشاط لا يعرف اليأس».

ويعلق دكتور مندور فيقول:

إن العلوم المادية خطت خطوات كبيرة نحو اكتشاف القوانين العامة التي تسيطر على المادة فتمكن الانسان من استخدامها. ونظر الباحثون في الانسان فإذا بهم لا يكادون يجدون لظواهره قوانين فتطلع طموحهم الساذج الى أن يصلوا في معارفهم الى ما وصل اليه علماء المادة فقالوا:
ان الانسان ما هو إلا ظاهرة من الظواهر العامة وهو لا بد خاضع في حياته الفردية وفي حياته الاجتماعية الى قوانين لا مفر من سلطانها.

ومن هنا اتجهت الأبحاث النفسية والاجتماعية هذه الوجهة الشكلية»
ونحن نقول ان الدكتور مندور لم يدرس أبعاد القضايا والتحديات.

إن الذين اكتشفوا القوانين الطبيعية هم أهل أوروبا المسيحيون الذين ورثوا المنهج العلمي التجريبي الإسلامي.

ثم جاء اليهود يسيطرون على الحضارة ويحشون فكرها فالتمسوا السيطرة على الانسان من خلال طرحه في مجال الفلسفة المادية وتطبيق مفاهيم التلمود عليه ومحاكمته وفق بروتوكولات صهيون: أي تدميره.

ومن هنا سيطر التلموديون اليهود على العلوم الاجتماعية والأخلاق والنفس وبرز هؤلاء العتاة الجبابرة مزودين بمنهج واضح في محاولة للسيطرة على الفكر البشري، وبعد أن تم لهم احتواء الفكر الغربي طرحوا شبهاتهم في أفق الفكر الإسلامي من أجل تمزيق العقيدة الجامعة للأمة وإسقاط إرادة الفرد وهدم معنوياته وإسقاط الأسرة بالدعوة الى الأفكار الحرة.

ان الهدف هو نقل المجتمعات من وحدة فكر عامة الى فكر فردي يمزق كيان الأمة، ان الحلول التي وضعوها للنفس الانسانية ترمي الى سحقها وتدميرها لا إلى بناءها ودعمها. ان الدعوة الى دفع النفس الانسانية الى الملذات وتبرير ذلك ان يجعلها ترتوي بل سيحطمها تماما. إن علاج الحرمان بخلق هذا العالم الوهمي من رواية وسينما وتراجيديا انما هو المخدر الذي لن يحل أزمة القلق والتمزق بل يزيدها اشتعالا.

إن أخطر ما يدعو اليه الفكر الذي تحمله مدارس العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق هو القضاء على وحدة الفكر وعلى كيان الانسان وعلى دعامة الأسرة.

إن ميزة الاسلام هي أنه وضع وحدة الفكر الأساسية التي تحول دون الصراع الفكري أو التمزق الاجتماعي ، لقد أعلن الإسلام حربا لا هوادة فيها على تقليد المسلمين لغيرهم، ودعا الى الحرص الشديد على تميز الشخصية المسلمة عن غيرها، وحذر من داء التشبه بالأمم والتبعية لها. وكانت دعوته الى المحافظة على الشخصية الإسلامية ، في ظل التوحيد والأخلاق.

واليوم والعالم كله مضطرب بالتحلل والتمزق والانهيار ، فانما يبرز الإسلام كالضوء الكاشف ليقدم للبشرية هداها وضياءها ، سكينة القلب ونور العقل جميعا..

وكلما ساد الصراع الفكري يلتمع الإسلام دائما باعجازه ليجدد للانسان معالم الطريق، ذلك ان الإسلام أنزل وتكامل ليكون العقيدة الأخيرة للبشرية دونما تناقض مع طبيعتها الأصلية من جهة ودونما تجاهل

لعناصرها الطبيعية من رغبات الجسم وأشواق الروح[1].
وفي كلمة واحدة أخيرة: لم يفهم حقيقة الانسان غير الإسلام.

أنور الجندي

(1) من بحث ممتع رائع للدكتور عماد الدين خليل.



محتويات الكتاب



Ed N MDL N 42 S0 7
DL 3ème Tr. 87

موافقة وزارة الشؤون الدينية
رقم 248/87 ـ بتاريخ 1987.04.30 م